

رواية

الدكتورة

دانة أحمد الجدع



ISBN 978-9957-05-000-0







عمان - الأردن

صندوق بريد : ٩٢٥٧٩٨ - الرمز : ١١١٩٠

هاتف وفاكس : ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٧٨٥٠٢

البريد الإلكتروني : info@daraldia.com

الموقع على الإنترنت : www.daraldia.com

0000/0

ر الضياء للنشر

لا يعبر

أخرى

1435 هـ | 2014 م

تصميم الغلاف	أنس أحمد الجدع
رسمة الغلاف	دانة أحمد الجدع

الإهداء

أهدي خاتمة سلسلة "أغلى ما أملك" إلى زوجي الحبيب، رفيق العمر، ونافذة المستقبل.

زهرة حياتي، ونور عمري، وإشراقة أيامي.

أدعو الله أن يملأ حياتنا بالحب والوفاء والإخلاص، وأن يباركها برضا الله وبر الوالدين وصلة الأهل.

شكراً لك على الدعم الجميل، وأدامك الله لي زوجاً عزيزاً كريماً.

زوجتك

■ ■ ■

بسم اللّه الرحمن الرحيم

بسم اللّه وحده لا شريك له

بسم اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد

■ الكاتبة

الدكتورة دانة أحمد الجدع، أخصائية الأمراض الباطنية، ولدت عام **1984** في الدوحة–قطر، ونشأت وترعرعت في الأردن.

صاحبة الروايات "الخامسة مساء الجمعة" "أمل في القمر" "إلى من قد لا ألتقيه" "وماذا بعد؟" وسلسلة "أغلى ما أملك" بجزئها الأول "دروب الأشواك" والثاني "نحو المجهول"

وهذا الكتاب "أغلى ما أملك – إلى الجذور" هو خاتمة السلسلة، يروي حكاية التوأمين أحمد وهالة في جو من التوتر الاجتماعي، في عصر تسيطر فيه الطبقات الغنية في المجتمعات.

بهذا يختم هذا الكتاب السلسلة، عارضاً العلاقة الأخوية القوية بين أحمد وهالة في أعمار مختلفة، وظروف صعبة.

للتعرف على الكاتبة ومؤلفاتها، تستطيع زيارة الموقع الرسمي:

www.dr-danajada.com

والمراسلة على البريد الشخصي:

Danajada84@yahoo.com

وشكراً للدعم الجميل.

■ ■ ■

■ الجزء الثالث ■

■ الفصل الأول | هالة

أمي... اليوم أصبح عمرنا عشرين عاماً، ما نزال أنا وأحمد نعيش في الشقة التي تركها لنا السيد سامي.

توفي السيد سامي بسرطان في الرئة كان قد انتشر بسرعة في جسده، وترك نقوده وشققه للمساكين الذين ساعدهم، حيث لم يكن له ولد أو والد، وكُتبتْ الشقق باسم جمعية الأيتام، وأوصى بعدم إخراج أحد من الشقق، هكذا ضمنّا شقتنا بفضل الله.

عملنا في مختلف المجالات، وحاولنا تعويض ما فاتنا من تعليم، لا أدّعي معرفة العلوم والأفلاك، ولكن على الأقل تعلّمتُ قراءة الصحف والمجلات.

رغم تطور المدينة، لم يكن لدينا تلفاز أو حاسوب، لم نكن معتادان عليه في الريف، وظلّ نمط حياتنا يعتمد على الأساسيات في كل شيء، فلم تكن نقودنا تكفي لأكثر من ذلك.

أمي... لقد تدبّرنا أمرنا، وجلبنا سريراً جديداً ينام عليه أحمد، وأدوات للمطبخ، وأدوات تنظيف، ومروحة، وساعة، فأصبحت شقّتنا جميلة، قضينا فيها أجمل الأوقات.

واليوم أقوم بتحضير كعكة بالشوكولاتة احتفالاً بميلادنا

العشرين، أحشوها بقطع الفراولة الطازجة، وأسكب عليها سائل الشوكولاتة الدّسم، كما تعودتُ أن أفعل في متجر الحلويات، وأنتظر عودة أحمد من العمل.



جرّب أحمد أكثر من عمل خلال هذه الأعوام، من المطاعم إلى المناجر إلى الحراسة الليلية، وأخيراً استقر في أحد المطاعم المعروفة، بينما ما زلتُ أعمل في متاجر الحلويات منذ وقت بعيد، جرّبتُ العمل في مخيطة ولكنني آثرتُ العودة إلى الحلويات، فقد كنتُ قد أتقنتُ العمل.

أمي... الساعة الآن التاسعة ليلاً، وسيعود أحمد في أي لحظة، وضعتُ الكعكة على الطاولة، وإلى طرفيها طبقان وشوكتان، وكأس من عصير بفواكه مشكّلة، وجلستُ أنتظر.

في التاسعة وعشر دقائق دق جرس الباب، فتحته لأستقبل أحمد الذي بات طويلاً، ذو بنية قويّة، إلى جانب صوته الرخين، ولكن عينيه ما زالتا محتفظتين بلمعانهما وبراءة الطفولة.

كان يرتدي قميصاً برتقالي اللون بأكمام قصيرة، كنتُ قد اشتريته له منذ شهر، وبنطال جينز، ويحمل في يده كيساً بلون أحمر، يبدو أنه هديّة لي.

دخل يشتمّ رائحة الخَبز، وتحزّر ما صنعتُ، إنها كعكة الشوكولاتة.

جلس من فوره سعيداً بها جداً، وقسمتُ له قطعة كبيرة تناولها

بسرعة كبيرة، وزاد قطعة أخرى إلى أن رفضتْ معدته استقبال المزيد.

تناولتُ قطعتي واحتفظتُ بالباقي في الثلاجة، وحان وقتُ هديّته لي، ماذا تكون يا ترى؟

اعتدنا في الأعوام الماضية أن نخرج سويّاً لشراء آلة أو أثاث نحتاجه في المنزل، نصرف عليه من مدّخراتنا العام الماضي، في هذا العام لم يقترح أحمد شيئاً كهذا، بل اجتهد بنفسه ليجلب هدية ليستْ لديَ أي فكرة ما هي.

وضع أحمد الكيس على الطاولة وقال: هل تحزرين ما فيه؟

فكّرتُ قليلاً ثم قلتُ: هل هو شيء للمنزل؟

فكّر أحمد قليلاً ثم قال: لا، ليس للمنزل.

سألتُ: هدية لي؟

أجاب: لك واحد ولي آخر.

غريب! سألتُه: ما حجمه؟

لم يكن الكيس كبيراً، أشار إلى حجم كف يده، فسألتُه: هل اشتريته من قرطاسية؟

أجاب: لا.

فكّرتُ قليلاً: هل هو معدني كهربائي؟

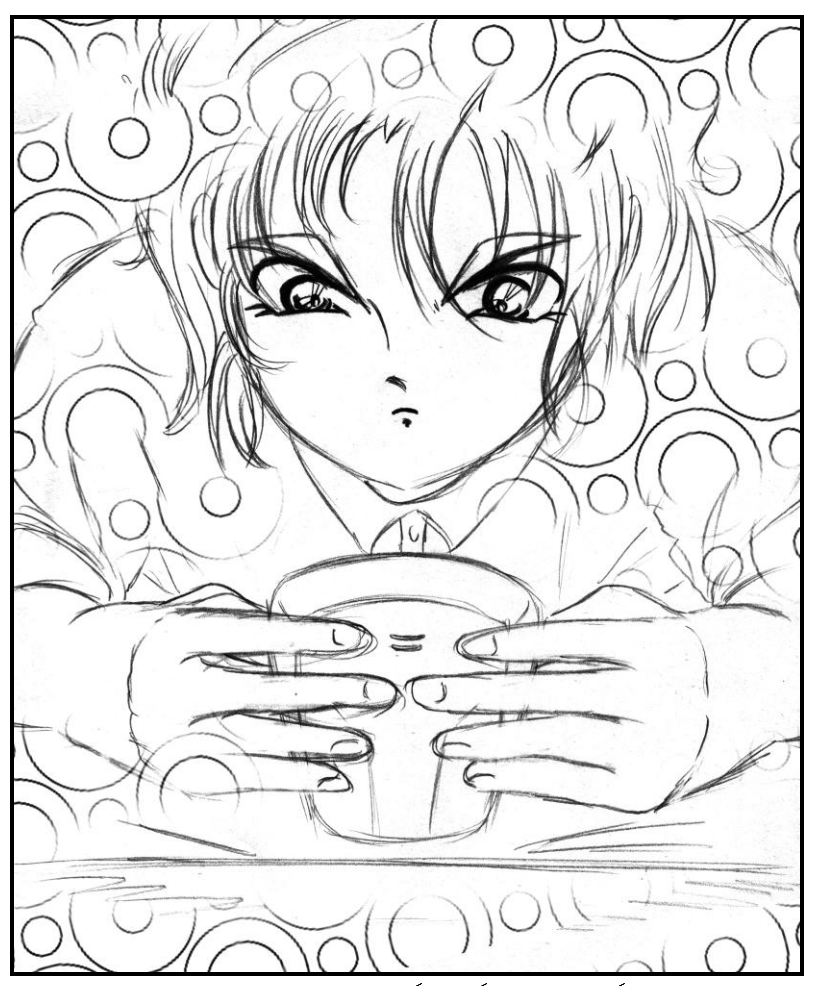
أجاب: نعم، إنه كذلك.

هل هو ما أفكر فيه: هاتف؟

أخرج أحمد الهدية من الكيس، كانتا علبتين لهاتفين جوّالين، أحدهما بلون أزرق والآخر بلون أحمر، كانا من النوع الرخيص، ولكن بالنسبة إلى أول هاتف جوّال في الحياة فقد كانا كنزاً عظيماً.

نهضتُ من الإثارة أحمل الهاتف الأحمر، طلب أحمد إليّ أن أفتح العلبة، في الداخل كانت هناك مجموعة من القطع لا أعلم عنها شيئاً، ولكن أحمد قال: لقد دلّني صاحب المتجر كيف أركبه، هناك شريحة لكل هاتف، نضعها في الداخل.

أعطيتُ أحمد هاتفي، رغم أن صاحب المتجر كان قد شرح لأحمد كيفية تركيبه إلا أنه وجده أصعب مما يظن، فقد قضى وقتاً يحاول فيه فتح الهاتف بحذر، ثم وقتاً أطول لمعرفة كيفية وضع الشريحة في مكانها، ثم كيف نشغّل الهاتف للمرة الأولى، ولكن بعد انقضاء ساعة كان الهاتف جاهزاً للعمل.



أصدر لوناً أصفر ولحناً لطيفاً، وطلب إدخـال التـاريخ والسـاعة، ثم اسم صاحب الهاتف، كان ذلك ممتعاً حقاً، بدأتُ أتصـفح الخيـارات بينما ركّب أحمد هاتفه، هذه المرة لم يستغرق أكثر من عشر دقائق.

قضينا الليلة كاملة نتصفح الهواتف، خزّنتُ رقـم هـاتف أحمـد

كما خزّن هاتفي، وكانا الهاتفان الوحيدان في دليل الهاتف إلى بضعة أشهر عندما بدأتُ أسجّل هواتف العاملين في المتجر الذي أعمل فيه.

مضحك كم تغير حياتنا هذه الأشياء الصغيرة، بتنا نعتمد عليها كثيراً، حيث كنتُ أنتظر أحمد إلى أن يحضر، بتّ أتصل به بعد عشر دقائق من التأخير، كما كان يفعل هو ذلك أكثر مني، ها نحن قد بدأنا نشعر برفاهية المدن عن الأرياف.

عندما مضى الشهر الأول اضطررنا لدفع فاتورة كبيرة، لم نكن قد حسبنا لها حساباً، ومنذ ذلك الوقت بدأنا نقتصد في استخدام الهاتف.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني | أحمد

كان العمل يسير على ما يـرام، وكـل مـا تمنينـاه بعـد رحلتنـا استطعنا تحقيقه بعون الله.

لم نعد نخشى المطر، لم نعد نهتم للبرد، لم نعد نفكر أين ننـام وماذا سنأكل، كل شـيء بـات متـوفراً، بفضـل الله ثـم بمسـاعدة السـيد سامي لنا رحمه الله.

لم نكن الوحيـدين الـذين سـاعدهم السـيد سـامي، كانـت هنـاك مجموعة من الشقق من فوقنا وتحتنا تحوي أناساً تقلبت بهم الظـروف والأقدار إلى أن وصلوا إلى السيد سامي ليساعدهم، رغم أننا لم نكن على صلة قريبة بهـم إلا أنـني كنـتُ أعـرف القليـل عـن حكايـاتهم، ربمـا دفعني الفضول للتقصي عنها حتى أقارنها بحكايتنا.

أحد الفتيان كانت حكايته غريبة بعض الشيء، فقد كـان يتيمـاً منذ الصغر، يعيش في دار الأيتـام إلى أن أخذتـه عائلـة بسيطة تعـتني بـه، قامت تلك العائلة بتغيير اسمه، وقص شـعره، وتغـيير لونـه، لم يعلم الفتى الكثير عن السـبب إلى أن عـاش معهـم فـترة ثـلاث سـنين، حيث علم بعدها أن ابنهما قد ضاع فجأة ولم يعثـروا عليـه، وأنـه الآن يلعب دور الفتـى الضـائع بالاسـم والشـكل وربمـا التصـرفات! لم يعـد

الفتى يعلم من يكون بالضبط.

الأغرب من ذلك أن الفتى الضائع قد عاد إلى المنزل بعد طول غياب، ما إن رآه حتى علم أنه نسخة طبق الأصل عنه في كل شيء، ولم يكن كل هذه السنين إلا يمثل دوراً ليس إلا، والآن لم تعد له أي فائدة.

هرب الفتى ليبحث عن ذاته، ويكوّن شخصيته الخاصة، فغيّر تسريحة شعره ولونه، وبات يعيش في العمارة وحده يعمل في النجارة.

الشقة تحتنا تحوي ثمان فتيات شقيقات، تتراوح أعمارهنّ بين الثانية والعاشرة، كانتْ أمهنّ تحمل كل عام أملاً في أن تلد صبياً، وفي كل مرة تلد بنتاً تقرر أن تحمل بآخر على الفور.

هكذا إلى أن تعثرتْ الولادة الأخيرة، وتوفيتْ الأم وهي تلد بالبنت التاسعة، وتزوج الأب وحصل على الصبي خلال عام من زواجه، ولم يعد أحد يكترث للبنات.

وفي يوم توفيتْ إحدى الفتيات التسع بإهمال واضح، فقرر الثمانية الباقيات ترك المنزل وهربن سوياً، وهنّ يعملن الآن في حياكة السجاد في المنزل.

غريبة هذه الدنيا، لستُ أدري إذا ما كانت حكايتنا أنا وهالة أقسى مما لاقاه غيرنا، ربما لا يكون هذا صحيحاً ولكن كل شيء نسبيّ.

على كل الحال اليوم سنصبح في العشـرين مـن العمـر، كنـتُ قـد قررتُ سلفاً أن أُهدي هالة هاتفاً محمولاً، فقد انخفضتْ أسعارها بشكل كبير، كما أنهـا عمليـة جـداً وتسـهل التواصـل بيننـا عنـدما نكـون في الخارج.

اشـتريتُ هاتفـاً لـي وآخـر لهالـة، وعـدتُ إلى المنـزل حيـث انتظـرتني بقالـب مـن كعـك الشـوكولاتة اللذيـذ الـذي يُبـاع في أفخـر المتاجر.

لقد تغيّرتْ هالة، أصبحتْ أطول وأكثر رقّة، زالتْ آثـار الشـقاء عنها، شعرها بات طويلاً يصل إلى أسفل ظهرها، عيونهـا باتـت أكثـر ذكاء، أخيراً باتت تنام نومـاً عـذباً وتأكـل طعامـاً شـهياً، لقـد صبرتْ كثيراً لتحقيق هذا.

اليوم كانت ترتدي قميصاً أصـفر وتنـورة قصـيرة سـوداء، تـربط شعرها، وترتـدي قـرطين وعقـداً مـن النـوع الـرخيص، ولكنهـا تبـدو جميلة كما عهدتها، تجمّل كل ما يتعلّق بها، ناهيك عن الـذكاء الـذي تتميز به منذ الصغر، فقـد تابعـتْ تعلّـم القـراءة وحـدها إلى أن باتـت مطّلعة على الكتب والمجلات والجرائد المختلفة.

كانت تتقن عملـها بشـكل مميـز، كـل مـرة أتـذوق فيهـا كعكـة

تصنعها كانت ألذّ من سابقتها، اليوم كانت الكعكة غنية بالشوكولاتة الدسمة، لا نتناول هذه الأصناف الفاخرة من الكعك عادة، فهي تكلّف الكثير، ولكن اليوم كان مميزاً، وله صنعتْ كعكة مميزة.

أهديتها الهاتف، ففرحتْ به كثيراً، لم تكن نوعية الهواتف فاخرة، ولكنها ببساطة تفي بالغرض، إضافة إلى أن ألوانها جميلة.

فتحناهما وركّبنا الشرائح، وقضينا وقتاً طويلاً نتصفّحها ونكتشف ما يمكننا عمله بالهواتف، فبالإضافة إلى خدمات الاتصال كانت هناك مفكرة، وساعة مع منبّه، والأجمل من ذلك أنه يحفظ الأيام والتواريخ، كان هذا مذهلاً.

قضينا الليل كلّه نستمع إلى النغمات المختلفة، ونتعلّم كيفية الكتابة، وسجّلنا أرقامنا، ونمنا نحمل الهواتف في أيدينا.

ببساطة كانت أيّامنا تشبه بعضها، ولكنها كانت بسيطة ومريحة، ولم نطلب أكثر من ذلك.

ربما لم نستطع أن نجلب كل ما يحلو لنا، فمثلاً لم نستطع إلى الآن أن نوفر سعر تلفاز صغير، ولم يكن من الأولويات، كما أننا اعتدنا على العمل إلى وقت متأخر، ثم العودة للحديث معاً في المنزل إلى النوم.

مما كان يشغل وقتنا هو تعلم القراءة، بينما كانت هالة تتصفح

المجلات والجرائد، كنتُ ما أزال أحاول قراءة القصص المصورة، وكنتُ أستغرق وقتاً طويلاً في فكّ الأحرف.

في مساء ذات يوم سلكتُ طريقاً مختلفاً إلى المنزل، كانت هالة قد حصلتْ على إجازة قصيرة، فسلكتُ أقصر طريق من متجري إلى المنزل حيث لا يمر بالمتجر الذي تعمل فيه هالة.

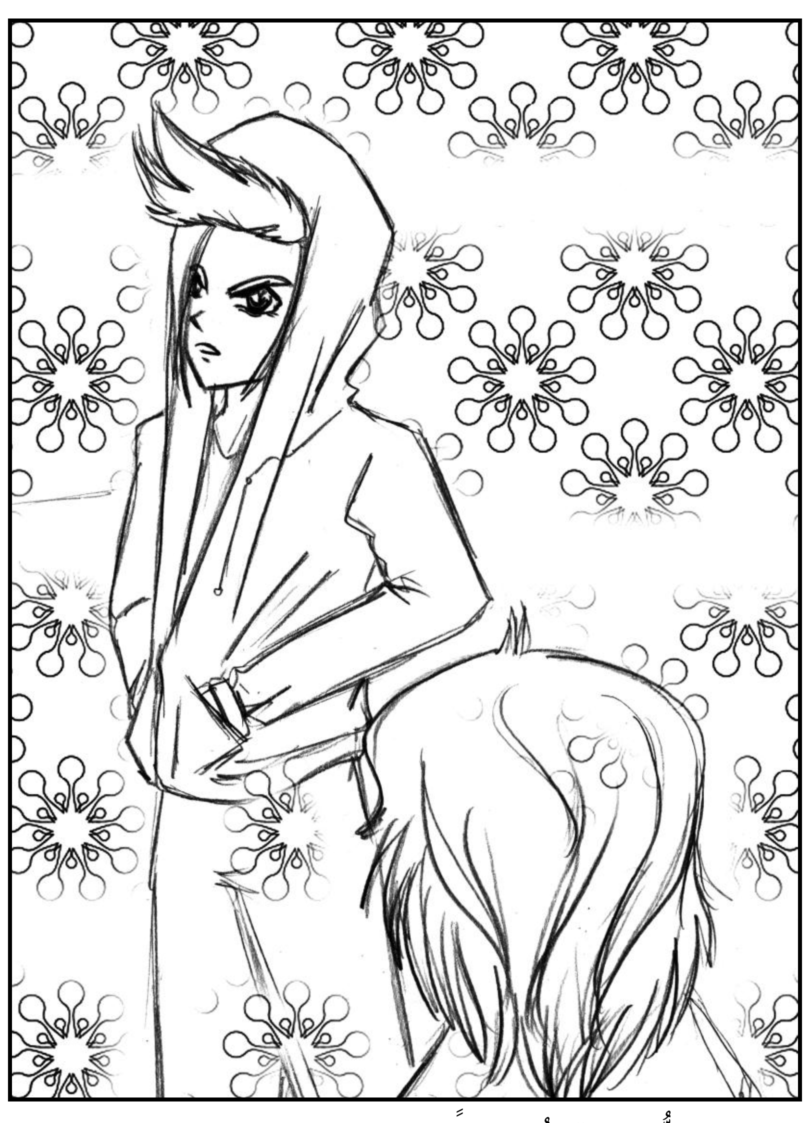
في الطريق استوقفني إعلان كبير، إنها صورة منزل ريفي قديم، يشبه المنازل في قريتنا، كُتبَ فوقه كلام كثير، بدأتُ أحاول تهجئة الكلمات، وتمنيتُ لو أن هالة كانت معي.

استغرق السطر الأول مني عدة دقائق، ذكريات... الماضي... البعيد...

هناك سطر آخر في الأسفل، أصغر حجماً: من أقـ...

سمعتُ صوتاً إلى جانبي يقول: من أقوى الروايات العالمية للكاتب الشهير علي البكر.

نظرتُ إلى جانبي، إنه شاب يقارب طولي، ربما يكبرني ببضع سنين، يرتدي سترة زرقاء بغطاء رأس يخفي بها معظم شعره، وبنطالاً قطنياً أسوداً يبدو من نوع جيد، لا يبدو عليه التشرد أو حتى الحاجة، وهو يجيد القراءة جيداً.



التفتُّ إليه وقلتُ: شكراً.

نظر إليّ، كانت عيونه حادّة، لا يبـدو لطيفـاً، ولسـتُ أسـتطيع

تخيل أي ابتسامة على هذا الوجه، إنه صارم جداً! سأل من دون مقدمات: ألا تجيد القراءة؟

ارتبكتُ قليلاً، لم يكن الكثيرون مثلي، فالتعليم إجباري في هذه الدولة حتى مرحلة متقدمة، أجبتُ: قليلاً.

قال: هل كنتَ ضعيفاً في المدرسة؟

ما باله؟ لماذا يحرجني بأسئلته؟ أجبتُ: لم أرتد المدرسة أساساً.

قال: أنتَ تعلم أن هذا لا يجوز.

قلتُ: لم أكن في هذه البلدة، كنتُ في قرية في دولة أخرى، ولم يكن التعليم إجبارياً، على الأقل على ما أظن.

قال: حمداً لله.

لم أفهم شيئاً مما يقول، ماذا يريد بالضبط؟ فضّلتُ أن أنهي الحديث وأعتذر وأغادر، ولكنه بادرني قائلاً: قلتَ أنك من القرى، لذلك استوقفتك هذه اللوحة، هل تحنّ إلى القرى؟

أجبتُ باختصار: ربما.

قال: هل تحب أن تشاهد الفيلم، إنه جيد.

قلتُ: ليس لدي وقت.

قال: ليس اليوم، انتظر لحظة.

دخل الشاب القاعة، لستُ أدري لمَ عليّ انتظاره، فهو شخص لا أعرفه، بل لم أرتح له على الإطلاق! على كل حال سأنتظر دقيقة واحدة، وسأغادر بعدها.

عاد بأقل من دقيقة يحمل بطاقتين لمشاهدة الفيلم، ناولني البطاقتين وقال: هذه لك، وأحضر معك مرافقاً.

ظننتُ لوهلة أن البطاقة الثانية له، ولكنه يعطيني إياها، سألته: لماذا تفعل ذلك؟

أجاب: لم يكن أمراً صعباً، وأنت تريده أليس كذلك؟ فلماذا لا أفعله؟

أجابني بسؤال، ولكنني قلتُ: أنا لا أعرفك، فلماذا أقبل منك شيئاً كهذا؟

أجاب: ولماذا لا تقبل؟ إنها بطاقة لفيلم سنمائي، وليست مخدرات!

قلتُ: آسف لذلك، ولكنني لا أستطيع أن أقبلها.

قال: البطاقتان ليستا لي، وإذا لم تأخذهما فسأتخلص منهما.

لستُ أدري ما أقول، ولكنه قال: لن تخسر شيئاً، اعتبرها هدية من عابر سبيل.

كان الموقف برمّته غريباً، ولكنني أخذتُ البطاقتين، أخذتهما وأنا أفكر كم ستكون هالة سعيدة بها، ولم أكن أستطيع أن أصرف ما تبقى من نقودي على بطاقات الفيلم.

نظرتُ إلى موعد البطاقتين، إنه التاسعة مساء، ليس لدينا ما نفعله في هذا الوقت، ربما نستطيع مشاهدة العرض.

ما إن أخذتُ البطاقة حتى أشار إليّ الشاب بيده وغادر، استوقفته لأسأله عن اسمه، فقال: ربما لا نلتقي ثانية.

قلتُ: مع ذلك أحبَ أن أعرف اسمك.

قال: ادعني منسيّ.

منسيّ! هذا اسم غريب، أهو من النسيان؟

عدتُ إلى المنزل، طرقتُ الباب فلم يفتح أحد، من المفترض أن تكون هالة في المنزل، فهي في إجازة من العمل، هل ذهبت إلى السوق؟

طرقتُ الباب ثانية وقد بدأ القلق ينتابني، طرقتُ ثانية أناديها: هالة! هل تسمعينني؟

لا مجيب! أخرجتُ مفتاحي الخاص وفتحتُ الباب، لم يكن المفتاح في الداخل، لابد أن هالة في السوق.

مازلتُ قلقاً، أخرجتُ هاتفي، فهو وقتٌ مناسب لاستخدامه،

ولكنه كان مغلقاً! لم أنتبه أنه كان بحاجة إلى إعادة لشحن البطارية، عندما نحتاج هذه الأجهزة فإنها أحياناً تخذلنا.

وصلته بالكهرباء، وانتظرتُ بضع دقائق كانت أطول مما ظننتُ، أشعر أن قلبي يدق بسرعة، وأن يدي بدأتْ ترجف، لماذا يا أحمد، إنها في السوق، لِمَ القلق؟

شغّلتُ الهاتف، فبعث إليّ برسالة أن هناك أربع اتصالات من هالة، لابد أنها كانت تريد أن تخبرني أنها ستتأخر.

طلبتُ رقمهما، رنّ طويلاً إلى أن أجاب صوتٌ لم أعهده، إنه صوتُ رجل كبير، قال: مرحباً، من المتكلم؟

مضتْ بضع ثوان إلى أن استطعتُ أن أسأل: أليس هذا هاتف هالة؟ من المتكلم؟

أجاب: نعم إنه هاتف هالة، هل أنتَ أخوها؟

أجبتُ: نعم، من أنت؟

أجاب: أنا طبيب، حاولنا التحدث إليك مراراً ولكن هاتفك كان مقفلاً.

الآن بدأتُ أقلق فعلاً: هل حدث مكروه لهالة؟

أجاب: لقد تعرضتْ لحادث سير، وهي الآن في المشفى المركزي.

لم أعد أشعر بساقيّ، ورأسي بات ثقيلاً جداً، ولم أعد أعرف الكلمات أو حتى نطق أي شيء، تابع قائلاً: هناك كسر في ذراعها، وقد نزفتْ بشكل حاد، وهي الآن في العناية المركزة.

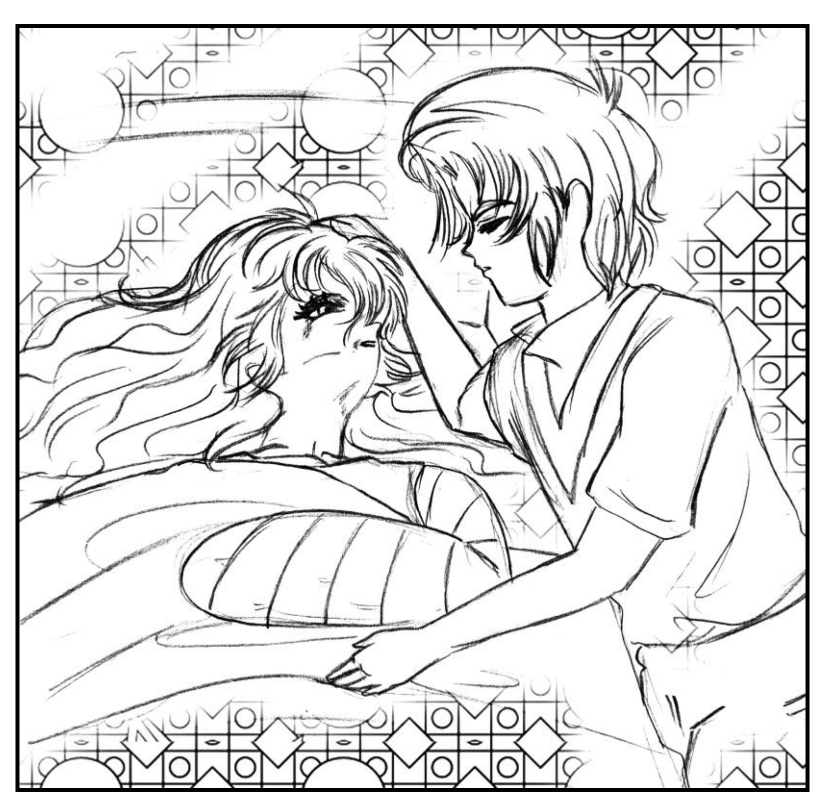
بدأتُ أركض، تركتُ باب الشقة مفتوحاً وركضتُ بأقصى سرعة إلى المشفى، ما يزال الهاتف على أذني، لم أستطع قول أي شيء كما لم أستطع أن أقفل الهاتف، كل ما أسمعه الآن: هل تسمعني؟... أما زلتَ على الهاتف؟...

نعم مازلتُ على الهاتف، ولكنني بالكاد أسمع، المستشفى المركزي لم يكن بعيداً، لابد أنه كان أقرب خيار لنقلها بعد الحادث، العناية المركزة، لابد أن الوضع خطير، هالة... أرجوك أن تكوني بخير، يا رب ألطف بنا يا رب.

دقائق وكنتُ في المشفى، سألتُ عن العناية المركزة وجريتُ إلى الطابق الثاني، دخلتُ بسرعة أسأل عن هالة، أخيراً وصلتُ الغرفة، دخلتُ بسرعة فإذا بها هالة على الفراش مغمضة العينين، تبدو متعبة، وهناك خدوش على وجهها، وضماد حول ساعدها الأيسر، كما أن هناك وحدة دم موصولة بالإبرة على يدها اليمنى، والعديد من أسلاك المراقبة الحيوية.

اقتربتُ منها بهدوء، ووضعتُ يدي على شعرها، أيقظتها بلطف منادياً اسمها، ففتحتْ عينيها، ونظرتْ إليّ وقالتْ: أحمد... أنا آسفة.

وضعتُ إصبعي على فمها وقلتُ: المهم أنك بخير، الحمد لله على السلامة.



■ ■ ■

■ الفصل الثالث | هالة

أمي، لستُ أدري كيف وصلتُ إلى هنا، كنتُ في السوق، وفي لحظاتٍ بتُّ في المشفى.

لا أذكر شيئاً مما حدث، ولكن رأسي يؤلمني، وذراعي لا أستطيع تحريكها، والآن أنا أرقد في المشفى في العناية المركزة، والجميع يهنئونني على السلامة، يبدو أن الأمر كان سيئاً.

كل ما كنتُ أعرفه هو أنني متعبة، شيء ما يجبر عيني للاستسلام للنوم، وبعد فترة شعرتُ بيده تداعب شعري، فتحتُ عيني فإذا به أحمد، لستُ أدري كيف وصل، ومن أخبره، وماذا أخبره، ربما بات يعرف ما جرى أكثر مني.

حاولتُ أن أعتذر إليه، ولكنه أوقفني، المهم أنني بخير، أغلقتُ عيني مجدداً واستسلمتُ للنوم.

فتحتُ عيني بعد فترة، فكان أحمد يجلس إلى جانبي، أعلم أنه لم يغادر، ولن يغادر بدوني، قلتُ له ألفتُ انتباهه أنني استيقظتُ: أحمد... ماذا جرى؟

التفتَ أحمد إليّ وقال: كل شيء على ما يرام، لقد سارت الأمور على خير.

سألته: هل هو حادث؟

أشار بالإيجاب، فسألتُ: كم من الوقت قضيتُ هنا؟

أجاب: إلى الآن، ما يقارب الاثني عشر ساعة.

كل هذه المدة! سألته: ومتى سأخرج؟

أجاب: عندما يطمئننا الطبيب على كل شيء.

بما أن ذراعي اليسرى كانت تؤلمني، وكان الضماد يلفّها، سألتُ: هل هناك كسور؟

أجاب أحمد: قاموا بتثبيته في العمليات.

عمليات! هل كان الوضع سيئاً إلى هذا الحد؟ سألتُ: أمن مشكلة أخرى؟

أجاب: لا، فقط ذراعك اليسرى.

مع ذلك كانت هناك تكلفة العملية، والإقامة في العناية المركزة، هل نستطيع دفع كل ذلك؟ لم أستطع أن أسأل أحمد مباشرة، أعلم أنه يفكر في الأمر ولا يريد مناقشته معي، وأعلم جيداً أن إجابته عن أي سؤال يتعلق بذلك ستكون "المهم أنك بخير".

طلبت الممرضة من أحمد أن يراجع المحاسبة المالية وبنك الدم، سيحين الوقت عاجلاً أم آجلاً، أرجو أن يسير الأمر على ما يرام.

غادر أحمد بينما بقيتُ في الفراش، أنظر حـولي لأول مـرة علـى المرضى الآخرين.

كنتُ في غرفة ذات نافذة زجاجية كبيرة تطـل علـى المشـرفين في العناية، ومن هنا أستطيع أن أشاهد مريضين آخرين.

كان الأول كبيراً في السن، وضع على جهاز للتنفس الاصطناعي، لا يبدو في حالة جيدة، والآخر كان طفلاً في الخامسة من العمر، كان قد فقد ساقه، شـعرتُ بقشـعريرة تسـري في جسـدي، حمـداً لله علـى كـل شيء.

أغمضتُ عيني أنتظر عودة أحمـد، وأرجـو أن يتـدبر أمـره عنـد المحاسب.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع | أحمد

من الغريب أن مشكلتي الأكبر لم تكن المحاسبة، بل كانت في بنك الدم.

أخبرني المسؤول ببساطة أن هالة قد احتاجت إلى وحدتين من الدم المركز، وعليّ أن أعوّض البنك وحدتين مماثلتين.

سألته على الفور: هل يجب أن أتبرّع أنا؟

أجاب: ليس مهماً من يتبرع، المهم أن تتوفر وحدتين تعوضان بنك الدم. هل هناك مشكلة إذا ما تبرّعتَ أنت؟

ارتبكتُ قليلاً، ثم كذبتُ: لدي فقر دم، لا أستطيع التبرع.

أجاب ببساطة: إذن اطلب من إخوانك، أو حتى أصدقائك.

إخوان! أصدقاء، أخشى أنني لا أملك أحدهما!

خرجتُ أقلّب الأمر، يجب أن أوفّر متبرّعاً بسرعة، هل سيقبل أحد من العاملين في المطعم مساعدتي؟ لستُ أدري. وهل سيسألني أحدهم لماذا لا أتبرع أنا؟ وهل عليّ أن أكذب طول الوقت؟

عندما كنتُ في الثامنة أصبتُ بحمّى شديدة، وعاينني طبيب المدينة في المنزل، ولم تتوانى زوجة أبي عن إخباري أنني أعاني من الإيدز، وهو مرض قاتل.

كلما صادفتُ مقالاً أو كتاباً عن الإيدز، كنتُ أتمنى أن أقرأه بسهولة، ولكنني أبدأ ببعض الجمل ثم أشعر بصداع في رأسي، وتعب في عيني، وجهد كبير يجعلني أترك الأوراق، وأحاول تناسي الأمر.

كل ما أعرفه عن الإيدز هي معلومات متفرقة من الناس، "هل تعرف أن فلاناً يعاني الإيدز؟" "إنه يتناول العديد من العلاجات ومع ذلك فقد أصيب بالتهاب خطير" "لم يعش طويلاً، وقد أصيبتْ زوجته بذات المرض"...

كانت زوجة أبي قد أخبرتني أنني لن أعيش طويلاً، كم كانت سعيدة وهي تقول ذلك، لم تكن الحياة الطويلة من آمالي، ولكن أن أعاني من التهابات خطيرة، والمبيت في المشفى، والموت البطيء، هذا ما كنت أحسب له حساباً.

واليوم هالة بحاجة إليّ، بحاجة إلى النقود، وإلى متبرع بالدم، وكلاهما صعب عليّ، يا إلهي، لا تجعلني أخذلها.

مررتُ بالمحاسب، كنتُ أتوقع أن المبلغ سيكون كبيراً، ليلة في العناية المركزة، وعملية جراحية، ونقل دم، بالطبع سيكون مبلغاً كبيراً، وقد كان، فهذا مبلغ لم أحلم يوماً أن أمسكه بيدي، فمن أين لي أن أجلبه؟

غادرتُ المشفى أحاول إعادة حساباتي، مهما قلّبتها وجمعتها وطرحتها لم أكن لأصل إلى حل، عليّ أن أطلب المساعدة، ولكن مِن مَن؟

صاحب المطعم؟ ربما يساعدني بإعطائي مكافأتي مسبقة، استقطاع راتبي، بل العمل دون راتب، ولكن حتى هذا لن يكون كافياً.

هل أمرّ على المتاجر المتنوعة التي عملتُ فيها، هل سيساعدونني؟ وكيف لي أن أسدّهم؟

هل سيساعدني المتجر الذي تعمل فيه هالة؟ ولكنه سيعلم الآن أن هالة لن تستطيع العمل لعدة أشهر، فكيف سنسد الدين؟

يا إلهي ساعدني!

سرتُ في الطريق، ووقفتُ أمام لافتة العرض السينمائي، وضعتُ يدي في جيبي وأخرجتُ البطاقتين، ابتسمتُ ساخراً، حتى هذا القدر البسيط من الترفيه لم نستطع الحصول عليه.

جفلتُ عندما سمعتُ صوتاً يقول لي: هل حضرتَ لتشاهد العرض؟

التفتَ من خلفي، فرأيتُ شاباً أعرف ملامحه، لم أره منذ ما يقارب الثمان سنوات، شعره أسود ناعم، وعيونه الحالمة لم تتغير أبداً، ازداد طولاً، وله لحية خفيفة، يرتدي ثياباً يصح أن أصفها

بالرسمية، سترة مقلّمة، وبنطال من القماش البني، إنه... فيوج!

ابتسمتُ فرحاً للقائه، خاصة في مثل هذا الوقت الصعب، فقد جرت العادة أن يكون فرج الله على يد فيوج في كل مشاكلنا السابقة! إنه مثل أبطال الحكايات، يظهرون في الوقت المناسب دائماً.

قلتُ بابتهاج: فيوج! لم أرك منذ وقتٍ طويل! هل سافرتَ إلى هنا أيضاً؟ معك حق فهذه مدينة جميلة.

قبل فيوج مصافحتي بابتسامة عذبة، ولكنه قال: أهلاً بك، هل سبق أن التقينا؟

لو لم يحدث شيء مثل هذا من قبل لظننتُ أنه نسيني، ولكنه لم يذكرنا في آخر لقاء لنا، قلتُ: أنا أحمد، ألا تذكر الطفلين الهاربين اللذين ساعدتهما في البحر، ثم في السفر إلى هنا، ألا تذكر أنك اتصلتَ بالسيد شادي عبد الحفيظ من أجلنا؟ أنا أحمد.

فرك فيوج شعره قليلاً، يبدو أنه يواجه صعوبة في التذكر، ولكنه قال: أنا لم أركب البحر في حياتي!

هذا بالضبط ما قاله في المرة السابقة، قلتُ: لا تقل أنك لم تكن أيضاً تعمل في مطعم في المدينة المجاورة، وأنك لم تأخذنا إلى المكتبة العامة...

ضحك فيوج وقال: لا أذكر أنني غادرتُ هذه المدينة!

هناك خطب في هذا الشاب، في المرة الماضية ظننتُ أنه شبيه لـه، ولكن يصعب عليّ تصديق ذلك في مرة ثالثة! إنه هو بكل تأكيد، ولكـن لماذا ينكرنا في كل مرة؟ هل يعاني من فقدان حاد في الذاكرة؟ ربما!

قال مستدركاً: لقد استوقفني منظرك وأنـت تحـدق في الإعـلان، لـدي بطاقـة لمشـاهدة الفـيلم، ولـيس معـي مـن يشـاهده، في العـادة لا ينجـذب النـاس إلى أفـلام الأريـاف، رغـم أنـني أجـدها جميلـة جـداً ومنعشة.

نظر إليّ وقد كان من السهل جداً أن يقرأ علامات القلق والهـمّ في وجهي، قال: هل حدث خطب ما؟

مـا زلـتُ أؤمـن أن وجـود فيـوج في أي مكـان هـو مـن العلامـات الحسنة، وأن الفرج اقترب بطريقـة مـا، قلـتُ: أخـتي هالـة تعرضـتْ لحادث، وهي في المشفى، وعليّ دفع التكاليف.

اعتذر: آسف جداً لسماع ذلك، هل هي على ما يرام.

أجبتُ: أجل، حمداً لله.

قال: حمداً لله، وهل تكاليف المشفى باهظة؟

ابتسمتُ وقلتُ: لستُ أدري إذا ما كانت باهظة بالنسبة لمشـفى،

ولكنها باهظة بالنسبة لي.

قال: وتعاني الآن من مشكلة السداد.

أشرتُ بالإيجاب، فسألني عن المبلغ المطلوب، وما إن سمع المبلغ حتى أمسك بيدي وسحبني بخطوات واثقة دون أن يقول شيئاً.

كم أحببتُ ما يفعل، لطالما كنتُ من يقود زمام أمورنا، للحظات أشعر أن أحدهم أخذ بزمام الأمور عني ولو لوهلة، كم هذا مريح، أريد أن أضع كل شيء جانباً، أريد أن أغمض عيني دون أن أفكر في شيء.

سرنا مسافة نصف كيلومتر دون أن نتحدث، وصلنا عمارة بسيطة، كانت نظيفة تحيط بها شجيرات جميلة، حاولتُ أن أقرأ اللافتة الرئيسية "مـ...ـركـ...ـز... عـبـ...ـد..." لم أكد أنهي قراءته حتى سحبني فيوج إلى الداخل، كانت العمارة مليئة بالمكاتب والموظفين، أخذني فيوج إلى الطابق الرابع، إنه يعرف تماماً أين يذهب.

وقفنا أمام باب عُلّقت عليه لافتة تقول "العـ... ـنـا... يـة... الصـ... ـحـ...ـيـة" أدارني فيوج إليه يلقّنني ما سأقول في الداخل: اسمعني جيداً فهذا مهم، نحن نريد أن نحصل على مال يساعدنا على علاج أختك، عليك أن تثبت أنك معيلُها الوحيد، وأن

ليس لديك دخل مالي غير المطعم، وأنـك لم تـرث أرضـاً أو شـقة أو أي عقار من والدك.

سألتُ: وكيف لي أن أثبت كل هذا؟

أجاب: بكل بساطة عليك فقط أن تذكر اسمك، وكل شيء مسجل عندهم على الحاسوب، أخرج بطاقتك الشخصية فقط.

بعد سكون قصير قلتُ: أنا لا أملك بطاقة شخصية.

تفاجأ فيوج لذلك: ماذا! لا تملك بطاقة! وكيف تعيش؟

ابتسمتُ قائلاً: أظن أنني لم أحتجها إلى الآن، ليس لدي أرصـدة في البنوك، ليس لدي عمل حكومي، لم أرتد مدرسة أو جامعة، لم أقـد سيّارة، فلِم أحتاجها؟

وضع فيوج يده على رأسه: هذا أغرب ما سمعتُ.

يبدو أن الوضع كان سيئاً، فعاد يلف في الممر يفكر في حل، قال: إذن علينا أن نُخرج بطاقة شخصية، وقد يسـتغرق هـذا وقتـاً، كمـا قـد تخضع للمساءلة، ودفع النقود... أوه، هذا ليس عمليّاً على الإطلاق.

عاد فيـوج إلى السـكوت والـتفكير، ثـم سـار خـارج المبنـى وهـو يفكر، لا يبدو أنـه قد توصـل إلى حـل، نظـرتُ إلى المبنـى أحـاول حفـظ مكانه، فقد نحتاجه في أي وقت.

تابعتُ المسير إلى جانب فيوج، وكان ما يزال غارقاً في التفكير، سرنا أمتاراً عن العمارة ورأيتُ شخصاً يسير مقترباً منّا، إنه الشخص الذي أهداني بطاقتي الفيلم، ماذا كان اسمه؟... منسيّ! إنه يحمل حقيبة على ظهره، كُتبت عليها بعض الشعارات العشوائية، يصعب عليّ قراءتها عن بعد، ويبدو أنه يسير مقترباً من العمارة التي خرجنا منها للتو.

نظر إلينا، ويبدو أنه تذكرني على الفور، توقف أمامنا وسألني: كيف كان الفيلم؟

أجبتُ: لم أستطع مشاهدته، لقد تعرضتْ أختي لحادث مؤسف.

قال مستنتجاً بسرعة عجيبة: وأنت هنا لتحصل على المال لسداد مصاريف المشفى.

إنه ذكي، أشرتُ بالإيجاب فسأل: كم هو المبلغ الذي حصلتَ عليه؟

أجبتُ: لا شيء، من الواضح أنهم لن يعطوني المال دون بطاقة شخصية، ولستُ أملك واحدة.

قال: لا تملك بطاقة شخصية! لماذا؟

فكّرتُ قليلاً ثم قلتُ: لم أحتج واحدة إلى الآن، كما أنها تكلّف مبلغاً فضّلتُ الاحتفاظ به.

ابتسم منسيّ وسأل: كم هو المبلغ المطلوب؟

لم أحاول أن أخفي شيئاً عنه رغم أنه غريب عنّا، ربما يستطيع المساعدة بشكل أو بآخر، ما إن أخبرته المبلغ المطلوب حتى وضع حقيبته على الأرض، وفتحها، وأخرج منها رزمة من النقود، بدأ يعدها أمامنا والدهشة واضحة في عيوننا، فقد كان مالاً كثيراً!

انتهى من عدّ المبلغ المطلوب كاملاً، وعرضه عليّ لآخذه، قال فيوج فوراً: من أنت يا هذا؟ أرجو ألا تكون هذه نقوداً مسروقة!

ضحك منسيّ وقال: أبداً، كنتُ أنوي التبرع بها، ألم تحضرا لهذا المركز من أجل النقود، اعتبراها نقوداً من المركز حيث أنها كانت ستذهب إليه.

بقينا صامتين، ولكن رغبتي في الحصول على النقود غلبت كل إحساس أو تفكير، نظرتُ إليه وقلتُ: ولن أكون مديناً لك بالمال؟

أكّد منسيّ: هذه أموال تبرعات، لن أطلب إليك أن تعيدها.

كان فيوج ما يزال غير أكيد مما يفعل: هذا مال كثير!

قال منسيّ: كنتما ستحصلان على النقود من مصادر شتّى، إذا ما

لم يلزمكما هذا المال فلأتابع طريقي إذن.

أمسك منسيّ النقود ليعيدها إلى الحقيبة، لم أستطع أن أردع نفسي، ولكنني طلبتُ إليه فوراً أن يتريّث: مهلاً، إنني فعلاً بحاجة ماسة لأي مساعدة، وسأحاول أن أردّ جميلك هذا في أسرع وقت.

قال منسيّ: صدقني لا داعي لهذا، فقط ساعد أختك وسأكون سعيداً.

ناولني النقود فأخذتها، مازلتُ غير أكيد أنني أفعل الصواب، ويبدو أن فيوج ما يزال قلقاً أيضاً بشأن منسيّ، ولكن لم يكن لدي خيار آخر، أرجو فعلاً ألا تكون هذه نقوداً مسروقة!

شكرته على المساعدة، فأعاد حقيبته إلى ظهره وتابع طريقه إلى المركز ليتبرع بباقي المال الذي يحمل، كم هو شخص غريب.

نظر فيوج إليّ وسألني: هل أنت واثق مما تفعل؟

أجبتُ بصدق: لستُ أدري، كل ما أريد الآن أن أسدد النقود وأخرج هالة من المشفى بأسرع وقت، بعدها سأفكر فيما سأفعل.

قال: أرجو أن يمر كل شيء على ما يرام.

نظرتُ إلى فيوج وقلتُ: وشيء آخر، هل تستطيع أن تتبرع بالدم؟

■ الفصل الخامس | هالة

حلمتُ بأمي مجدداً، لا أذكر أنه مضى يوم واحد دون أن أراها في منامي مذ فارقتنا، أمي... لقد تدبّرنا أمرنا إلى الآن، فهل يستطيع أحمد تدبر أمر المشفى؟ يا رب أرسل إليه من يعينه.

كانت يدي تؤلمني، وأشعر بصداع مستمر، أحاول تذكر ما جرى بصعوبة، كل ما أذكره أنني كنت أسير في السوق، لا أذكر حتى أنني كنتُ أقطع طريقاً، كنتُ أسير على الرصيف! لابد أنها سيارة قد فقدت السيطرة وخرجت عن الشارع، كل ما أذكره أنني كنتُ أسير فقط ثم فجأة استيقظتُ في المشفى! غريب ما حدث.

مضتْ خمس ساعات إلى أن عاد أحمد، يبدو وجهه مشرقاً، جلس إلى جانبي وسألني: كيف حالك الآن؟

أجبتُ: بخير، كم هي فاتورة المشفى؟

أجاب: لا تقلقي، لقد تدبرتُ الأمر.

سألته: كيف؟

أجاب: هناك مركز للتبرعات قام بسداد كل شيء.

لم أصدق، ولكن أحمد أكّد لي ذلك، وأخبرني أنه لم يكن ليجد مثل هذا المركز دون مساعدة فيوج.

فيوج! هل هو في هذه المدينة؟ فيوج الذي ساعدنا دوماً، وها هو يساعدنا الآن أيضاً، سألتُ أحمد: أين هو الآن؟

أجاب: يتكفل بأمور بنك الدم، إنه هنا.

قلتُ: أريد أن أراه، لقد مضى وقتٌ طويل!

ابتسم أحمد وقال: لم يتغير كثيراً، قليل من الشعر على الوجه فحسب، سيحضر عندما ينتهي، أما الآن فهيّا حضّري نفسك للمغادرة.

لم تكن لدي حاجيات هنا، فقد حدث كل شيء فجأة، كل ما أملك هي حقيبتي الصغيرة، والبسكويت والخبز الذي اشتريته في السوق، حملها أحمد وغادرنا الغرفة، اتجهنا إلى بنك الدم ولكن فيوج لم يكن هناك، أخبرنا الموظف أنه غادر منذ قليل، بحثنا عنه في الجوار وحول المشفى فلم نجده، لقد اختفى!

غريب أمر فيوج هذا، أذكر أنه لم يكن يذكرنا في المرة الماضية، فهل سيذكرنا بعد مرور ما يقارب الثمان سنوات؟ سألتُ أحمد: هل تذكرك فيوج؟

أجاب: في الواقع لم يتذكر شيئاً.

هناك خطب ما ولا شك، ولكنه الآن ليس هنا، ربما قابلناه مرة

أخرى في وقت لاحق، أما الآن فكان المنزل وفراشي الدافئ كل ما أفكر فيه.

ارتديتُ ثيابي، ولففتُ حجابي، وأوقف أحمد سيارة أجرة، وعدنا إلى المنزل، كانت الشمس قد أوشكتْ على المغيب، ما إن دخلتُ حتى اتجهتُ إلى فراشي، استبدلتُ ثيابي ونمتُ على الفور.

استيقظتُ بعد ما يقارب الأربع ساعات، كان الوقتُ منتصف الليل، وكنتُ ألمح ضوءاً صادراً من غرفة أحمد، إنه لم ينم بعد.

نهضتُ وسرتُ ببطء إلى غرفته، ونظرتُ من شق الباب إلى ما يفعل، كان يجلس على الأرض يقرأ في المصحف، إنه يصلي، أظنه يصلّي شكراً لله على سلامتي.

عدتُ إلى غرفتي، وتمددتُ على الفراش بهدوء، وشكرتُ الله على وجود أحمد في حياتي.

أحمد، الآن تذكرتُ ما كنتُ أفعله قبل الحادث، لقد عادت الصور إلى ذاكرتي فجأة، لقد استوقفني شاب فضولي في طريقي إلى المنزل، كان يقوم بدعاية غريبة، يقول أشياء عن القلوب، عن العيون، عن المشاعر، أكّد لي أنه ليس منجماً أو يقرأ المستقبل، فقط يحلل قلوب العاشقين، أخبرته أنني لستُ بعاشقة، ولكنه أكّد أن القلوب لابد من

عشيق لها، وقد يكون فرداً من الأسرة، ظننتُ أنني ربما سمعتُ شيئاً عن والدتي، فجلستُ إليه وقد كان قد نصب خيمة صغيرة على طرف الطريق، بدأ يسأل أسئلة مبدئية، وطلب إليّ أن أقوم ببعض الإشارات والحركات، والنظر إلى صور وأشكال، لم أفهم ما يفعل، ولم يكن ذلك مهماً، كل ما أريد أن أسمع ما سيقول عن أمي وأن أعود إلى المنزل لأحضّر العشاء.

أخيراً لم أسمع كلمة واحدة عن أمي، كل ما سمعته كان عن أحمد، حملتُ أكياسي وحقيبتي، وغادرتُ مسرعة، ولم أدرِ كيف عبرتُ الشارع، أظن أنها كانت اللحظة التي حدث فيها الحادث.

■ ■ ■

■ الفصل السادس | أحمد

تجهـزتُ للعمـل في اليـوم التـالي، أحمـد الله أنـني لم أغـرق في الـديون، وإلا كانـت حيـاتي سـتختلف تمامـاً، ولكـان للعمـل طعـم مختلف، كان ذلك بفضل الله أولاً ثم بفضل فيوج، كـم غريـب أمـر هـذا الشاب، لا أظن أنني سأفهمه يوماً.

حضّرتُ فطاراً سريعاً، كما جهّزتُ لهالة عصيراً وفطائر قـدّمتها لها على الفراش.

استيقظتْ هالة وشـكرتني علـى الإفطـار، وبـدأتْ تأكـل بـبطء، ولكنني كنتُ أرى أنها لم تكن على طبيعتها، هناك شيء ما يحزنهـا، سألتُها: ما الأمر؟

أجابتْ: لا شيء.

اعتددتُ أن هذه الإجابة تعني شيئاً، فقلتُ: لا تبدين سعيدة، لا تقلقي فهذه الإصابة ستزول، وكل شيء سيكون على ما يرام، الحمد لله أن الوضع لم يكن خطيراً...

قاطعتني قائلة: أعلم ذلك.

لم تكن على طبيعتها على الإطلاق، قلتُ: إذن ما يحزنك؟

ترددتْ كثيراً قبل أن تقول: لقد قابلـتُ رجـلاً في الطريـق، كـان

يدّعي أنه يقرأ القلوب، كان يجلس في الطريق ويقابله المارّة، وفي دقائق يخبرهم من يحبّون ومن يحبّهم.

قلتُ: هذا أغرب عمل أسمع عنه في حياتي! وما علاقة ذلك بالأمر؟

تابعتْ: لقد استوقفني، ترددتُ في البداية أن أسمع، ولكنني ظننتُ أن حياتي أصغر من أن أفاجأ فيها بمن يحبني أو يكرهني، فاستمعتُ له.

سألتُ: وبماذا أفتى؟

لم آخذ الأمر على محمل الجد، ولكن هالة قالتْ: لقد قال أن لي أخاً يحبّني أكثر شيء في الدنيا... وأنني... أنني...

بلعتْ هالة ريقها، وبدأتْ الدموع تترقرق في عينها، لا أصدق أنها تفعل ذلك بنفسها، قالتْ أخيراً: قال أنني لا أستحقّه.

كان التصرف الطبيعي أن أضحك، ولكن دموع هالة منعتني، كيف لها أن تأخذ كلام شخص سخيف في الطريق على محمل الجد؟

وضعتُ يدي على شعرها وقلتُ: لستُ أدري من يكون هذا، وكيف له أن يقرأ ما يدّعي أنه يقرأه، ولكن ثقي بشيء واحد، إن صاحب الحق في مثل هذا القرار هو أنا، وأنا لستُ غبيّاً.

ابتسمتْ هالـة راضـية، أرجـو ألا تفكـر في شـيء كهـذا ثانيـةً، نـهضتُ أودّعها لأخرج إلى العمل.

ركبتُ الحافلـة، دفعـتُ الأجـرة وجلسـتُ، وبعـد عشـر دقـائق توقفت الحافلة في الموقف لتحمّل الركاب، دخل عدد كـبير مـنهم وقـد امتلأت كل المقاعد، ودخلتْ فتاة شقراء، شعرها قصير مفتول، ترتـدي قبعة زرقاء اللون، وطقمـاً رسميـاً مـن قمـيص وتنـورة بـاللون الأبـيض والأزرق، وحذاء بكعب مرتفع، تقارب العشرين من العمـر وتبـدو مـن عائلـة رفيعـة، ولكـن الحـظ لم يحالفهـا حيـث أن الحافلـة كانـت قـد امتلأت، وعليها المغادرة وانتظار حافلة أخرى.



لم يكن العمل بعيداً، من هنا أستطيع السير لعشر دقائق، نهضتُ لأجلسها مكاني، ونزلتُ من الحافلة.

شيء في مخيلتي أخذني إلى موقف مشابه، متى حصل ذلك يا ترى؟

تابعت الحافلة طريقها، وتابعتُ طريقي سيراً على الأقدام، لم تغب الحافلة عن نظري عندما توقفتْ ونزلتْ منها الفتاة الشقراء، لماذا تركتْ الحافلة؟

كانت واقفة على بعد أمتار تنظر إليّ، أو ربما في اتجاهي فقط، فلماذا تنتظرني فتاة مثلها؟ وبماذا يهمها أمري؟

سرتُ بشكل طبيعي إلى أن وصلتُ إليها، فكان من الواضح جداً أنها تنظر إليّ، بل وبادرتني الحديث: أنت لستَ من المدينة أليس كذلك؟

توقفتُ متعجباً لسؤالها، ولكنني أجبتُ: لستُ من هذه المدينة.

قالتْ موضّحة سؤالها: أعني أنك من الريف.

نظرتُ إلى ثيابي، وأجبتُ: نعم.

ابتسمتْ وقالتْ: لا تقلق، إنها ثياب مدنية، ولكن لم يعد أهل المدينة يفعلون ما تفعل.

سألتُ: وماذا فعلتُ؟

زادتْ ابتسامتها وقالتْ: ما تجده طبيعياً لا يجدونه كذلك، على كل حال لقد توقفتُ لأشكرك على ما فعلتَ.

قلتُ: لا شكر على واجب، ولكن الحافلة قد فاتتك.

أشارتْ بيدها وقالتْ: انس أمر الحافلة، لستُ ذاهبة إلى مكان محدد، أردتُ فقط أن أخرج من المنزل.

حدّقتْ بي قليلاً ثم سألتْ: ما اسمك؟

أجبتُ دون أن أدري إلى أي اتجاه تقودني هذه المحادثة: أحمد.

فكّرتْ قليلاً ثم قالتْ: أظن أنني رأيتك من قبل، هناك شيء مألوف في كل ما جرى.

أنا كذلك أشعر أنه موقف مألوف، ولكن هذه أول مرة أتحدث فيها إلى فتاة ثرية، فما المألوف في ذلك؟

اقتربتْ مني، فتحركتُ خطوة لا إرادية إلى الوراء، توقفتْ وأشارتْ بإصبعها قائلة: هل سبق لك أن غادرتَ هذه الدولة إلى الدول المجاورة؟

أجبتُ بشكل آليّ: منذ زمن طويل فقط.

قالتْ: أظن أنك الشاب ذاته الذي أجلسني مكانه في الحافلة لكي

لا أظلّ واقفة، لقد حدث الموقف نفسه منذ سنين.

حسناً، كنتُ غالباً ما أقوم بذلك، فلم يكن هذا التصرف جديداً أو غريباً بالنسبة لي، ولكنها عندما ذكرتْ ذلك لمعتْ في مخيلتي تلك الفتاة الصغيرة الشقراء، ذات الثياب الفاخرة والقبعة الجميلة، كنتُ أخالها من طبقة حاكمة، دخلتْ الحافلة وظلّتْ واقفة لا تدري ما تفعل، كان ذلك عندما كنتُ أبحث عن هالة، عندما خرجتُ من السجن! أوه، كم كانتْ أياماً سيئة.

نظرتُ في الفتاة، إنها هي، يالها من مصادفة غريبة، وكيف لها أن تتذكرني؟ قلتُ: أظن أننا التقينا من قبل فعلاً.

ضحكتْ سعيدة لذلك، قالتْ: يالها من مصادفة، سأحاول تدوين ذلك في كتاب.

تابعتْ الضحك بنعومة فائقة، لابد أنها من طبقة حاكمة، بعد ذلك انحنتْ بكل لباقة تقول: آسفة على تطفّلي، أُدعى دلال، دلال صخر الوالي، سررتُ بالتعرف عليك.

لستُ أدري ما يتوجبُ عليّ فعله في مثل هذه المواقف، إنها تتابع رسميّاتها الرفيعة بينما أعمل يومياً في مطعم للوجبات السريعة التي تخلو من أي رسميّات، قلتُ: أهلاً، أنا أدعى أحمد، أعمل في

مطعم للوجبات السريعة.

اكتفيتُ بذلك، فقالتْ: سررت بالتعرف عليك يا أحمد، أرجو أن نلتقي في ظروف جيدة.

اكتفتْ بذلك، وسارتْ لتبحث عن حافلة مجدداً، غريب أمرها، قالتْ أنها ليستْ متجهة إلى مكان محدد.

■ ■ ■

■ الفصل السابع | هالة

أمي، يصعب عليّ القيام بالمهمات اليومية بيد واحدة، فما تـزال يدي اليسـرى تـؤلمني، تخيّلـتُ للحظـة لـو كـان الحـادث أثّـر في يـدي اليمنى، لكان الوضع أصعب بكثير.

مللتُ الجلوس في المنزل، أريد أن أخرج، رغـم أن الحـادث كـان مخيفاً وسيئاً وكان أثره شديداً عليّ، إلا أنني أرغب في المشـي في السـوق من جديد.

أعلم أن أحمد لن يكون راضياً عن ذلك، ولكنني أعلم أيضاً أنه لن يرفض الفكرة، حملتُ الهاتف واتصلتُ بـه أخـبره أنـني سأتمشـى في السوق، وسأكون حذرة، فكّر قليلاً قبل أن يوافق، وطبعـاً نـبّهني ألـف مرة أن أكون حذرة جداً.

ارتديتُ ثيابي، ولففتُ حجابي، وخرجتُ من المنزل أتمشى بين الأسواق، ليس هناك من شـيء معـين أرغـب في شـرائه، فقـط أريـد أن أخرج من المنزل.

فكّرتُ في أمـور كـثيرة، أهمهـا كـان أمـر النقـود الـتي دفعناهـا للمشفى، وأمر فيوج الذي أتمنى فعلاً أن أراه مصادفة في الطريق، هـذه المرة لا أنوي أن أتركه قبل أن أفهم حكايته كاملـة، فـرغم أنـه غريـب

الأطوار، رغم أنه لا يذكرنا، إلا أن فرَجَنا دائماً كان يلازمه.

توقفتُ عند سوق للمجوهرات، لا أذكر أنني دخلتُ متجراً من هذا النوع في حياتي، بما أنني أتمشى فقط، وبما أنني لا أفكر في شراء شيء، وكل ما أريد أن أتفرّج فحسب، قررتُ الدخول.

كل شيء يلمع هنا، ذهب أصفر وأبيض، وألماس بكل الأشكال، أقراط وعقود وأساور وخواتم، لستُ أدري من أين أبدأ، لقد احتارتْ عيني.

اقترب منّي صاحب المتجر ليساعدني، كان عليّ أن أجامله قليلاً لأكسب بعض الوقت في المتجر، سألته عن الأقراط، فعرض عليّ مجموعة مميزة بأشكال متنوعة، ثم تركني ليساعد زبوناً آخر كان قد دخل المتجر قبلي.

لم أجرؤ حتى على لمس الذهب، كنتُ فقط أنظر هنا وهناك، هناك أناس يرتدون الكثير من هذه الإكسسوارات، يالها من دنيا عجيبة.

نظرتُ إلى صاحب المتجر مع الزبون، كان يعرض عليه عقداً ثقيلاً من الألماس، قد لا أتصور المبلغ الذي سيدفعه مقابله في حياتي كلها.

نظر إليّ صاحب المتجر وسأل: هل اخترتِ شيئاً؟

أجبتُ: كلّها جميلة، لقد احترتُ فيها كثيراً، شكراً للمساعدة.

ولكنّ الزبون كان يحدّق فيّ بشكل ملحوظ، ثم سأل: هل تعملين في متجر هنا؟

أجبتُ: نعم، متجر الحلويات في آخر الشارع.

ابتسم وقال: علمتُ أنك مألوفة بالنسبة لي، كعك ذاك المتجر هو الأفضل.

رغم أن مظهره كان جاداً وثيابه كانت رسمية إلا أنه كان لطيفاً جداً فيما يقول، لم أتخيل ذلك منه، قلتُ: شكراً جزيلاً لك، رغم أنك لم تتناول المثلجات أيضاً، والكعكات الخاصة في الأعياد، حتى أنك لم تدخل المتجر لتتناول من العينات الجديدة كل يوم.

ابتسم وقال: خادمي يقوم بالتسوق للمأكولات، لا أنزل إلا إلى أسواق المجوهرات.

إنه مغرور، يرفع نظاراته الشمسية على شعره الأشقر، الذي يتركه منساباً إلى كتفه، وعيونه زرقاء اللون، وبشرته شاحبة، يرتدي قميصاً أسود بربطة عنق حمراء، ويحمل معطفه على ذراعه، المعطف والبنطال مصنوعان من قماش مخملي فاخر، وكلاهما بلون أسود أيضاً،

أشعر أنني أقف أمام ممثل سينمائي مرموق، وهو لم يتجاوز الثلاثين.

شيء ما في داخلي دفعني لمحاججته، قلتُ: أعلم أنـك حضـرتَ إلى المتجر أربع مرات، وأعلم أنك تحب الكعك بطعم القهـوة، وحلـوى البندق، وشراب الشوكولاتة الساخنة.

اندهش قائلاً: هل خادمي ثرثار إلى هذا الحد!

ولكنني تابعتُ قائلة: لقد كنتَ في المدينـة المجـاورة منـذ ثمـان سنين، تتسوق من المتاجر الكبيرة، كنتَ قـد اشـتريتَ مزلاجـاً للـثلج، رغم أنـها لم تكن تثلج في تلك الأماكن، أظن أنك سافرتَ في رحلة بعدها إلى بلاد بعيدة باردة.

صمتَ قليلاً يفكر، ثم قال: أظن أن ذلك كـان منـذ ثمـان سـنوات فعلاً.

ثم نظرتُ إلى صاحب المتجـر وقلـتُ موجهـة حـديثي إليـه هـذه المرة: وقد كنتَ أيضاً في نفس المدينة في العام نفسه، ربما كنتما تعرفان بعضكما منذ ذلك الوقت، ولكنك لم تكن في المتجر الكبير، بل كنـتَ في مكان آخر.

لم أنطق اسم المكان، فقد كان السجن آخر مكان رأيته فيه عنـدما كنتُ أبحث عن أحمد، ويبدو أنه فهم ما قصـدتُ علـى الفـور، اقـترب

مني وقد بدأ يغضب وقال: من أنتِ؟ ولم تعرفين عنا كل هذا؟ هل تعملين لزاوية ما؟

ابتسمتُ وأشرتُ بيدي أنفي كل ذلك، وكل ما يتعلق به، قلتُ: لقد كنتُ في تلك المدينة في ذلك الوقت فحسب، هذا كل شيء.

قال التاجر: أنت تعرفين الكثير، من أين لك بكل هذه المعلومات؟

أوقفه الزبون وقد بدا هادئاً ومنبهراً في الوقت نفسه، قال: هذا شيء مثير للاهتمام، لابد أنك تجدين متعة في ذلك.

قلتُ: أبداً، فهذا أمر لا أبذل جهداً فيه، أستطيع تذكر الوجوه جيداً، هذا كل ما في الأمر.

اقترب الشاب مني، وقد لمعتْ عيناه باهتمام شديد وقال: أنتِ حادة وذكية، رغم أنك امرأة وتلفين الحجاب.

أزعجني ما قال، ولكنني أجبتُ بأعصاب هادئة: الحجاب رمز الطهارة والعفاف في كل الأزمان والأعراف.

ابتسم بسخرية وقال: أتظنين أنك تعرفين الكثير، إذن لماذا خُلقت المرأة من ضلع أعوج وليس من ضلع مستقيم، فالاستقامة هي الفضيلة.

أجبتُ: لا أظن أنني أعلم الكثير، ولكن أجدني ملزمة للإجابة عن أسئلتك، الضلع الأعوج هو رمز اللين والمطاوعة، والضلع الذي خُلقتْ منه حواء بالذات كان أحد أضلاع القفص الصدري، هل تعرف أهمية هذه الأضلاع؟ إنها تحمي القلب، أهم أعضاء الجسد، تماماً كما تفعل حوّاء.

قال: مع ذلك لم يعتبر الله شهادة المرأة كشهادة الرجل، ولم يعطها القدر نفسه من الميراث.

قلتُ: لكل شيء حكمته، ألا يكفيك أن كل مسلم يتوجب عليه أن يخطو خطو هاجر في الحج بين الصفا والمروة، فريضة على الجميع، ولا يصح الحج من دونها.

قال: وماذا عن إخراج حواء آدم من الجنّة؟

أجبتُ: قد برّأها الله في القرآن، ألم تقرأ قوله تعالى: فأزلهما الشيطان.

ابتسم الشاب قائلاً: هذا مثير جداً، لطالما كانت نظرتي للنساء مختلفة، فما قولك في الرجل يتزوج أربع نساء؟

أجبتُ: شرع الله تعدد الزوجات لأنه الأعلم بأعداد النساء إلى الرجال، وكما نرى أن عدد النساء يفوق عدد الرجال دوماً، فشرع الله

تعدد الزوجات لصالح النساء لا للرجال، حيث لا تظل إحداهن بدون زوج.

ابتسم قائلاً: وهل ترضين أن يتزوج الرجل بعدك ثانية وثالثة ورابعة؟

أجبتُ: سألتني سؤالاً شخصياً بحتاً، وإجابتي هي لا، ولكن هناك نساء يقبلن بالتعدد، ولكنني لستُ منهن، وهذا أمر شخصي لا علاقة له بحكمة الله في كل العباد.

لفّ ذراعيه على بعضهما بحركة تشير إلى الإعجاب والإثارة، وقال: لطالما ظننتُ أن الزواج هو أكبر خطأ يقترفه الشاب بحق نفسه وحريته.

قلتُ: كل الأنبياء تزوجوا، وقد أحبّوا زوجاتهم وكرّموهن واعتنوا بهن.

رفع يديه وقال مستسلماً: لن أضيف شيئاً، هذه أول مرة أعترف بالهزيمة أمام أنثى، هذا يوم مميز فعلاً.

ثم رفع الكيس الذي كان قد انتقاه من المتجر وقال: كان ذلك ممتعاً حقاً، لربما التقينا ثانية يا بائعة الحلوى.

ثم نظر إلى صاحب المتجر وقال: فلتنتقِ الخاتم الذي تشاء،

وسأدفع لك حسابه لاحقاً.

حاول صاحب المتجر أن يثنيه عن ذلك، ولكنه رفض الاستماع إلى أي كلمة، وغادر المتجر، وركب سيارته الحمراء الفاخرة، وانطلق بها بعيداً.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن | أحمد

رغم أن هالة الآن بخير، وهي تجلس في المنزل بأمان، إلا أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من الاتصال بها بين الحين والآخر.

لم يسر العمل بشكل جيد اليوم، فلم أكن أستطيع التركيز، كلما تذكرتُ ما جرى شعرتُ بدقات قلبي تتسارع، وبالخوف من أسوأ الاحتمالات، وبت أفكر بالماضي والمستقبل وكل شيء في لحظة واحدة.

في الاستراحة سألني أحد الزملاء عما جرى، فلم يكن عملي بالمستوى المطلوب، فأخبرته بالحادث، وما جرى مع هالة، فتفهّم الوضع، وبارك لي على سلامتها، ولكنه قال: عليك أن تركز في العمل، وإلا فلن تستطيع جني المال.

قلتُ: النقود تذهب وتأتي، أما أنا فلي استثماري الخاص.

قال: أنت تعوّل كثيراً على أختك، فكّر بنفسك قليلاً.

قلتُ: أجمل شيء أن تتعب من أجل أختك.

لم يفهم الشاب ما أعني، وعدنا إلى العمل من جديد، أشعر براحة كبيرة كلما تذكرتُ أنني لستُ مديناً لأحد بالمال، وأن نقود المشفى قد سُددتْ بسهولة بفضل الله، وعملي يسير بشكل طبيعي دون ضغوط، ولكن بعد الحادث بتّ أفكر في تطوير عملي، والحصول على

قدر أكبر من المال يسمح لي بتوفير القليل لأوقات الحاجة.

أنهيتُ العمل، وبدأتُ أتجول في المدينة باحثاً عن وظيفة إضافية، وكنتُ أعلم أنني أبحث عن وظيفة ليلية لا تتعارض مع المطعم.

مضى اليوم الأول دون أن أجد أي وظيفة، وقد كان أمراً متوقعاً، فلم يكن العثور على وظيفة أمراً سهلاً، بالإضافة إلى عدم توفر المؤهلات العلمية على الإطلاق.

في الأسبوع التالي مررتُ إلى جانب مخزن كبير، يبدو أنه تابع لشركة تصنيعية، إنه يحوي العديد من البراميل، دخلتُ وسألتُ عن وظيفة، وأخيراً عثرتُ على ما أبحث عنه، حراسة ليلية للمخزن.

الحراسة الليلية لم تكن تتعارض مع دوام المطعم، تبدأ من الساعة السادسة مساء إلى الساعة الثانية عشر ليلاً، ويحدث تبديل للمواعيد، أحياناً أحرس من الساعة الثانية عشرة ليلاً إلى السادسة صباحاً.

قبلتُ العمل، وسأباشر في الغد، وكنتُ راضياً عن الوظيفة والأجر، ولكن هالة لم تكن كذلك، كانت تشعر باستياء من قراري، حيث لم تكن تأبه بتجميع النقود، وبدوام كهذا سيجعلها تبقى في

المنزل وحيدة معظم الوقت، وأظن أنها أيضاً تشعر أنها مسؤولة عن قراري هذا بعد الحادث.

لم يغير ذلك من قراري، وقد بدأتُ العمل في الحراسة الليلية، وكنتُ أظن أن الحراسة أسهل من ذلك، فما إن يحل منتصف الليل حتى تشعر بكل حركة صغيرة تحدث في الأرجاء، وتظن أن المشاكل قادمة.

انتهى الشهر على خير، وحصلتُ على مبلغ جيد استطعتُ أن أخبئ معظمه، وبما أنني لم أملك رصيداً في أي بنك فقد كنتُ أخبئ النقود في المنزل.

كان تخزين النقود أمراً غريباً، وله شعور خاص، حيث كنا في معظم الأحيان نشتري ما ينقصنا على الفور، أما الآن فلدي نقود فقط، أوراق كما هي، لستُ أدري هل سأكون أسعد بشراء ما نحتاج بها، ولكنني طردتُ هذه الأفكار على الفور، فأنا أجمّع النقود لوقت الحاجة.

مضتْ الأيام على هذا الحال، وبدأتُ فعلاً أشعر أنني لا أعود إلى المنزل كثيراً، وعادتْ هالة إلى العمل فور تعافي ذراعها، ويبدو أنها باتت تقضي وقتاً أطول في المتجر لأنها تعلم أن لا أحد سيكون في المنزل إن عادتْ.

لم أكن أحب هـذا التجـافي، ولكـنني مقتنـع تمامـاً أننـا بحاجـة إليه، ها قد بدأنا نشعر بصعوبة الحياة في المدن، ليتنا كنا نملـك حقـلاً نعمل فيه معاً ليل نهار، ونجني ثماره لنأكل منه ونبيـع البـاقي، كـم كانتْ حياة هادئة.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع | هالة

أمي، لقد عدتُ للعمل، أحب ما أصنع، ولدي رغبة دائمة في خبز المزيد من البسكويت والكعك، ولكن المشكلة باتت في المنزل، فقد بات موحشاً دون أحمد، لم أعد أريد أن أعود.

بتّ أطيل العمل كما يفعل أحمد، الفرق أنه يجني المال بينما أقضي به وقتي فقط.

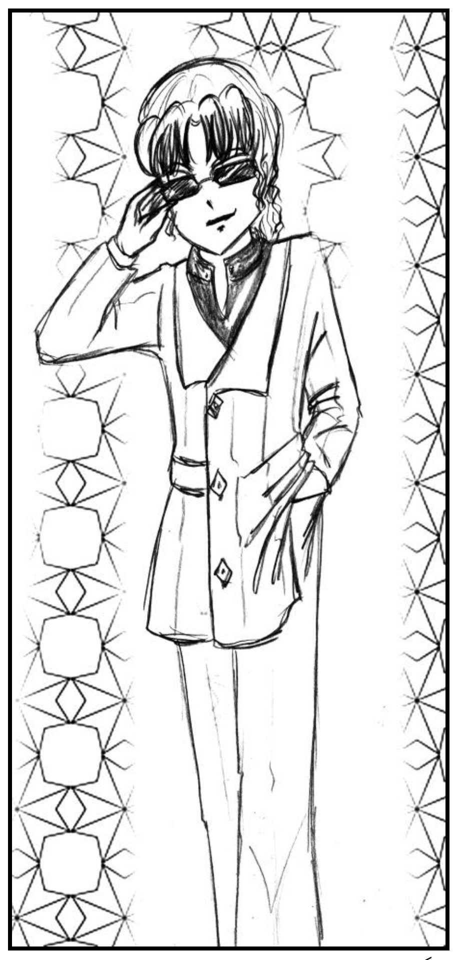
ابتكرتُ الكثير من الوصفات الجديدة اللذيذة، والتي لاقت إقبالاً واسعاً بسرعة، والعمل كان يتقدم من حسن إلى أحسن، ولكن ما الفائدة والمنزل لم يكن كذلك؟

اليوم حضرتْ سيارة فاخرة سوداء اللون إلى المتجر، توقفتْ أمام الباب ونزل سائقها، إنه خادم ذاك الزبون المتعجرف، مشتري المجوهرات، الذي قال أنه لا ينزل إلا إلى متاجر المجوهرات، ألهذه الدرجة ينظر إلى الناس بدونية.

التفّ الخادم، وفتح الباب الخلفي ليخرج منها الزبون، هذه المرة نزل بنفسه إلى المتجر، إنه يدخل لأول مرة!

كان يرتدي نظارات شمسية من نوع مختلف، حجمها أصغر من سابقتها، ويربط شعره الأشقر، ويرتدي بذلة جميلة فاخرة، بلون

لؤلؤي وخطوط سوداء، دخل وحده بينما ينتظره الخادم عند السيارة.



كان واضحاً أن صاحب المتجر ارتبك بزبون كهذا، رغم أنني لم أتوقع أن يدخل بنفسه إلا أنني لا أشعر بالارتباك، أظنها مفاجأة فحسب.

اقترب مني مرحّباً: صباح الخير، أظن أنك تذكرينني.

رفع نظاراته الشمسية عن عيونه الزرقاء، ولم أكن بحاجة لذلك حتى أذكره، قلتُ ببساطة: بالطبع أذكرك، الكعك بطعم القهوة، وحلوى البندق، وشراب الشوكولاتة الساخنة.

ابتسم وقال: بالضبط.

تجاهلتُ كل ما يرمي إليه، وبدأتُ أجهز له طلبه، في هذه الأثناء جلس إلى طاولة وقال: سأتناولها هنا اليوم.

كان ذلك غريباً، لطالما رفض أن يدخل محلاً بسيطاً كهذا، واليوم هو يجلس ليتناول فيه! هذا بالفعل تغير ملحوظ.

أعددتُ له طلبه، ووضعته على طاولته، فرشف رشفة من شراب الشوكولاتة وقال برضاً واضح: أنتم تتقنون الحلوى بالفعل.

أجبتُه: شكراً، هل من طلب آخر؟ هل تحب أن تأخذ شيئاً إلى المنزل؟

قال: كعكة بطعم الفراولة، ليست لي، إنها فقط مناسبة منزلية صغيرة.

بينما كان يمتع نفسه بكعك القهوة، قمتُ بتحضير كعكة الفراولة، ولففتها في علبة الهدايا، وقدّمتها له على طاولته، سألني:

منذ متى تعملين هنا؟

أخيراً استطاع فتح حديث جـانبي، أجبتـه: منـذ سـبع أو ثمـان سنوات.

قال: كنتِ ما تزالين صغيرة!

لم أدخـل في أي تفاصـيل، ولا أريـد أن أذكـر أمامـه شـيئاً عـن هروبنا، وعن رحلتها بين البلدان، وعن تركنـا للمدرسـة وكـل مظـاهر الحضارة، أجبتُ: أحببتُ هذا العمل منذ الصغر.

سأل: هل هذا المتجر لك؟

أجبته: لا، أنا أعمل فيه فقط.

سأل: ولماذا لا تفتحين متجراً خاصاً بك؟ أنت ماهرة.

قلتُ: المهارة لا تكفي، أحتاج لنقود.

قال ببساطة: اقترضي.

قلتُ: وإذا لم أستطع السداد؟

قال: ولماذا لا تستطيعين السداد؟

قلتُ: إذا لم يعمل المتجر كما يجب.

ضـحك قـائلاً: لا أرى سـبباً يـدعو لـذلك، لمـاذا يفكـر النـاس بالخسارة دائماً، لطالما خسرنا ونحن لا نملك شيئاً، فلمـاذا لا نجـرب

أن نخسر ونحن نملك شيئاً.

لم أقل شيئاً، ولكنه أكّد قائلاً: أنا جاد، أستطيع أن أكفل لك بنكاً لذلك، فقط فكري في الأمر.

فكّرتُ قليلاً ثم سألتُ: وبماذا يجني عليك ذلك؟

قال: حب المساعدة ليس أكثر.

لم يكن هذا مقنعاً، ولكنني لن أكون مدينة له بشيء، بل على العكس ربما يضطر لدفع المبلغ إذا ما خسرتُ، لماذا يفعل شيئاً كهذا؟

قال: فكري في الأمر، لا ينقصك شيء من المهارة، وإذا توفر المال فما المانع؟

قلتُ: سأفكر في الأمر.

نهض قائلاً: سأمر بالتأكيد، فكري في الأمر ولن تخسري شيئاً.

حمل صندوق كعكة الفراولة وقال: شكراً على الحلوى الشهية.

وضع حسابه وخرج.

■ ■ ■

■ الفصل العاشر | أحمد

عمل، عمل، عمل، هكذا باتت حياتي.

بتّ أشعر باستياء هالة المتواصل من ذلك، ولكنني لم أغير رأيي بعد، نحن بحاجة إلى النقود، هذه حقيقة لا يجب تجاهلها.

مطعم في الصباح، حراسة في الليل، أحياناً أعاني من الإرهاق والأرق، ولكن عليّ أن أتحمل.

مبلغ آخر الشهر لم يكن سيئاً، عليّ أن أتحمل وأثابر.

في يوم أنهيتُ عملي في المطعم، واتجهتُ إلى حديقة صغيرة أقضي وقتاً قصيراً من الراحة قبل الاتجاه إلى المخازن، اشتريتُ المثلجات وجلستُ إلى النوافير، أشعر بهدوء.

اقترب أحدهم مني، رفعتُ رأسي لأرى دلال تقف أمامي، ترتدي قبعة وردية، وقميصاً أبيض مع فستان مورّد، وحذاء أحمر بكعب طويل وحقيبة حمراء، سألتْ: هل أستطيع أن أجلس؟

لم أعرف ما ينبغي عليّ فعله، أشرتُ بالإيجاب وأفسحتُ لها مكاناً تجلس فيه.

أخرجتْ من حقيبتها بعض الحبوب، وبدأتْ تطعم العصافير، تجمع الكثير منها حولنا، كان ذلك ممتعاً.

سألتْ: هل أنهيتَ العمل اليوم؟

أجبتُ: لدي عمل مسائي بعد دقائق.

قالتْ: أنت مثابر، ألا يدفعون لك مبلغاً جيداً؟

أجبتُ: لا بأس به، يكفينا.

سألتْ: مع من تعيش؟

أجبتُ: لدي أخت وحيدة.

سألتْ: وماذا عن والديك؟

ترددتُ في الإجابة، ولكنني قلتُ: توفيتْ والدتي منذ زمن، وتركَنا والدنا.

قالتْ: حياةٌ قاسية ولا شك.

لابد أنها لا تدري ما تقول، ولا تعرف شيئاً عن القسوة والشقاء، اليوم حياتنا في رخاء مقارنة بما قاسيناه في الماضي. إذا ما بقيتْ تسأل فسأظل في جانب المستجوَب، عليّ أن أسأل شيئاً: تبدين من عائلة ثرية، ماذا تفعلين في الحافلات؟

ابتسمتْ وقالتْ: أمن الغريب أن أركب حافلة؟

أجبتُ: بمثل هذه الثياب الرائعة... نعم.

ضحكتْ وقالتْ: لا أرغب في ركوب السيارة الخاصة، أريد أن

أقترب من الناس، أنا كاتبة وعليّ أن أكون واقعية.

كاتبة! لم تكن فكرتي عن الكاتبات هكذا، كنتُ أتخيل أنهن كبيرات في السن، يلبسن النظارات، ويلازمن الأوراق.

لاحظتْ الاستغراب في وجهي، فسألتْ: هل هذا غريب إلى هذا الحد؟

قلتُ: لا أبداً، أي نوع من الكتب تكتبين؟

أجابتْ: كتبتُ ما يقارب العشرة كتب، كلّها تتحدث عن نضال المحرومين، وقسوة الأغنياء، هذه الطبقات اللعينة التي اختلقها البشر ليحرموا بعضهم بعضاً.

ابتسمتُ وقلتُ: غريب أن يصدر كلام كهذا من فتاة من عائلة غنية.

قلتُ: لو لم أكن من عائلة معروفة لكنتُ في السجن.

اعتراف خطير، إنها جريئة، لا عجب أنها كاتبة، سألتُها: وكيف هو الإقبال على كتبك؟ هل يزعجك الأغنياء بما تكتبين؟

أجابتْ: يحاولون إزعاجي، ولكن ليس لديهم أي حجة واضحة، لستُ جاهلة لألا أجد الإجابة المناسبة للانتقادات.

إنها قوية، بدأتُ أشعر أنها تشبه هالة بعض الشيء، لربما

كانـتْ هالـة سـتفعل الشـيء نفسـه إذا مـا كانـت وُلـدت في عائلـة ارستقراطية.

نهضتْ دلال وقالتْ: لقد تأخر الوقت، يجب أن أعـود، سـررتُ بالتعرف عليك.

نهضتُ ورددتُ التحية: سررتُ أيضاً بالتعرف على سيدة تقاتل لكلمة الحق.

ابتسمتْ وقالتْ: آنسة.

احمرّ وجهي، لستُ أجيد التعامل مع الفتيات بكل تأكيد.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي عشر | هالة

أمي...

بتّ أحلم بمتجري الخاص، على زاوية الطريق الرئيسية، طريق دائم الازدحام، أحضّر فيه الكعك والبسكويت والمثلجات والعصائر، يدخل فيه الزبائن من جميع الأعمار والطبقات والأجناس، أقدّم فيه الألعاب للأطفال في أعياد الميلاد، والورود الحمراء للخاطبين، والشوكولاتة لكل المناسبات.

هل هو حلم سيظل حلماً؟ لقد ذكره الشاب ببساطة، يبدو أمراً بسيطاً بالنسبة له، بينما هو خيال بالنسبة لي، ألا أستطيع تحقيق الحلم؟ ألا يحق لي ذلك؟

هل أستطيع أن أغامر بقرض من البنك؟ وهل سيمنحني البنك قرضاً؟ وكيف سأسدده؟ أخشى ألا تسير الأمور على ما يرام.

شغل المتجر تفكيري، لقد فتح لي ذلك الشاب باباً لم أكن أحلم به من قبل، هل يتوجب عليّ أن أنسى وأعود إلى الواقع، أم أن عليّ المثابرة إلى الأمام؟

لستُ أدري، أشعر بضياع وخوف، وفوق ذلك بتّ أشعر أنني وحدي، لم أستطع حتى مناقشة الموضوع مع أحمد، فلم أره منذ فترة،

دوامه الليلي هذا كانت أسوأ فكرة خطرتْ على باله.

إذا ما كان يفكر في زيادة النقود، فلِمَ لا أفكر أنـا في ذات الأمـر؟ ألا أستطيع أن أفتح متجري الخاص من أجل المال كمـا يفعـل؟ ألا يحـق لي أن أفكر بالطريقة نفسها؟

ولكنـه لم يقترض نقوداً، بينما سأفعل، هناك فرق كبير.

فركتُ رأسي، لم أعد أستطيع التفكير أكثـر، وقـد تـأخرتُ عـن العمل اليوم، ولم أكن في كامـل تركيـزي، كانـت الفكـرة تشـغلني ليـل نـهار.

مضى شهر دون أن أتشجع على الإقدام علـى تلـك المغـامرة، ولم أدخل بنكاً في حياتي، ولست أملك أي رصيد، ولستُ أملك نقـوداً غـير التي أحملها في حقيبتي، ذاك الشاب المغرور يعيش في عـالم مختلـف، إنه يفكر في الأمر ببساطة، والأمر ليس كذلك بالنسبة لنا.



عدتُ إلى العمل كالعادة، وتوقفتْ سيارة فاخرة يقودها سائق خاص، فتح الباب ليخرج الشاب الثري نفسه، يرتدي بذلة كحلية، وربطة عنق حمراء، يترك شعره الأشقر منساباً على كتفه، ها قد نزل بنفسه إلى المتجر للمرة الثانية.

بدأ قلبي يدق بشدة، ماذا يريد؟ هل سيتحدث عن البنك والنقود والمتجر الخاص ثانية؟ بات هذا موضوعاً مخيفاً، أتمنى أنه قد جاء لبعض المثلجات وقطع الكعك فحسب.

دخل المتجر، وألقى التحية، ثم طلب عصير الشوكولاتة الساخنة وكعك القهوة، لم يفتح أي موضوع جانبي، بل أخذ طلبه وغادر ببساطة!

جلستُ على الكرسي أفكر فيما جرى، هل كنتُ أريده أن يحدّثني عن المشروع؟ هل كنتُ أريده أن يتناول الكعك والعصير هنا في المتجر كما فعل في السابق؟ هل أريده أن يظل فترة أطول؟ لربما كنتُ مرتبكة عندما رأيته، وقلقة بشأن المشروع الخيالي، ولكن إجابتي الحقيقية كانت... نعم.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني عشر | أحمد

أنهيتُ العمل المسائي في الثانية عشرة ليلاً، وعدتُ إلى المنزل لأجد هالة ما تزال مستيقظة على غير العادة، كانت شاردة الذهن، جلستُ إلى جانبها أسألها عمّا جرى: هل حدث مكروه ما؟

أشارتْ بالنفي، فسألتها: هل العمل على ما يرام؟

أجابتْ: كما هو.

سألتُ: فلِم لَم تنامي إلى هذه الساعة المتأخرة؟

قالتْ: إذا لم أسهر فلن أراك أبداً.

عدنا إلى الحديث نفسه من جديد، أعلم أنها ستثنيني عن العمل المسائي، ولكنني اليوم أشد اقتناعاً به من الأمس، قلتُ: آسف لذلك، ولكنني أرى أننا بحاجة إليه.

قالتْ: أنت ترى أننا بحاجة إليه.

وضعتُ يدي على كتفها وقلتُ: أنتِ حزينة، حدثيني بما تفكرين.

قالتْ: ألا يكفي أنني لا أراك، أشعر بالوحدة.

قلتُ: غداً سيكون دوامي بعد الثانية عشر، سأكون في المنزل في السادسة مساء.

قالتْ: وستنام من أجل الدوام الليلي.

قلتُ: غداً لن أفعل.

قالتْ: وكيف ستظل مستيقظاً في الليل؟

قلتُ: سأتدبر أمري.

أشارتْ هالة بالنفي، ثم قالتْ: أليس من طريقة أخرى تجلب بها النقود؟

فكّرتُ قليلاً وقلتُ: أظن أنني محظوظ بالعثور على عملين دون شهادة، بل دون أي متطلبات معينة.

قالتْ: ماذا إذا ما اقترضنا؟

هذه أول مرة أسمع فيها هالة تتحدث عن أمر كهذا، سألتها: نقترض! مِن مَن؟ ولماذا؟

قالتْ: إن عملي جيد، بل ممتاز، أفكّر أن أفتح متجراً خاصاً بي، سيكون ذلك أفضل، لماذا لا نعمل فيه معاً ونجني ربحاً صافياً؟

يبدو كلامها جميلاً جداً، ولكنه أيضاً يبدو كحلم برّاق، قلتُ: أي بنك سيقرضنا؟ نحن لا نملك رصيداً، بل لا نملك أي أوراق رسمية! والأهم من ذلك كيف نضمن أن نسدد القرض، قد نُلقى في السجن بسبب القرض، عفواً ولكنني لا أحبذ العودة إلى السجن ثانية.

رأيتُ الانزعاج واضحاً على وجهها، قالتْ: لماذا تتشاءم دائماً، لماذا لا ننجح؟ نحن في ريعان الشباب، ولدينا طموح كما لأي شاب في عمرنا، لماذا لا نعيش حياة طبيعية كغيرنا، لقد كبرنا على الهرب واليُتم!

أجبتُها: نحن محظوظان لحصولنا على شقة خاصة بنا دون عناء، هل نسيتِ هذا؟ الحياة أصعب مما تتصورين، ونحن في عداد المحظوظين جداً!

قالتْ: حظ حظ حظ! إلى متى سنعتمد على الحظ في حياتنا، ألا نستطيع أن نبني مستقبلنا بأيدينا؟ ألم يحن الوقت لذلك؟

أجبتُ وقد احتدم الحوار بيننا: لذلك أعمل عملاً إضافياً، هذا ما أدعوه "بناء المستقبل بأيدينا"، هالة... لا يوجد طريق سهل كما تتصورين.

قالتْ: لم أقل أنني لن أعمل، سأعمل أكثر مما كنتُ أعمل في هذا المتجر، سأحرص أن يكون متجري الخاص هو الأفضل في المدينة كلها.

قلتُ أحاول أن أهدئ الجدال: يبدو ما تقولينه جميلاً جداً، وأتمنى أن يتحقق من كل قلبي، ولكن ليس بقرض من البنك.

لم يعد لدى هالة ما تقول، ولكنني أعلم أنها لم تكن راضية،

ليس من السهل أن تكتشف أن أحلامك ستظل في عـداد الأحـلام، وأنـك بلغت من هذه الدنيا ما تستطيع أن تبلغه، وإلى هنا يتوقف كل شيء.

كنتُ أعلم أن هالة ليستْ من النوع الذي يستسلم، ولكنني كنـتُ على يقين أنـها لا تستطيع أن تقترض من البنك، وهذا أمر مطمئن.

اتجهـتْ إلى فراشـها دون أن تقـول كلمـة أخـرى، وذهبـتُ إلى فراشي، لم تكن ليلة جميلة، ولكن علي أن أنام حتى أعمل في الغد.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث عشر | هالة

أمي... أريد فعلاً أن يتغير هذا الوضع، ربما لم نكن نعيش حياة سيئة الآن، ربما كنا قد عانينا في الماضي أكثر من الحاضر بكثير، ولكنني فعلاً أريد شيئاً جديداً، اليوم أكثر من أي يوم آخر.

ذرفتُ الكثير من الدموع هذه الليلة، أعلم أن ما يقوله أحمد كان صحيحاً، أعلم أننا محظوظان فيما حصلنا عليه إلى الآن، ولكنني لا أريد لذلك أن يستمر على نفس الوتيرة، أريد أن نبني حظّنا بأيدينا.

هذا ما كنتُ أراه كلما حضر الشاب الغني إلى المتجر، بتّ لا أعرف إذا ما كان حضوره عذاباً بالنسبة لي أم أنه الأمل في تحقيق الكثير.

جلس يتناول الكعك في المتجر، حاولتُ أن أبتعد عنه قدر الإمكان، ولكن هذا لم يجدِ نفعاً في متجر صغير كهذا، سألني: كيف تسير أمور المتجر؟

أجبتُ: بخير، زبائننا كثيرون وهم راضون عما نصنع.

قال: لا أقصد هذا المتجر.

يا إلهي، ماذا عساي أن أقول؟ بقيتُ صامتة ففهم على الفور أنني لم أحرك ساكنا في الأمر، قال: لقد أقفل متجر على زاوية الشارع

منذ أيام، أظن أنه مكان مميز.

قلتُ أحاول أن يكون الأمر جليّاً له: لستُ أملك نقوداً كافية لمشروع كبير كهذا.

قال ببساطة: أعرف، لذلك اقترحتُ عليك الاقتراض من البنك.

قلتُ: ولا أستطيع المخاطرة بشيء كهذا.

قال: لا أرى مخاطرة في هذا، فستعملين لتسديد القرض كما تعملين الآن في متجر آخر.

بقيتُ صامتة، للحظة شعرتُ أنني أواقف أحمد على ما قال، أنا خائفة من الاقتراض، وماذا إذا لم ينجح المشروع؟ لا أريد أن أخسر.

قال: أنتِ قلقة جداً، لا داع لكل هذا الخوف، سأدلك على بنك بأقساط زهيدة.

بقيتُ صامتة، أشعر بثقل في رأسي، لم يعد الموضوع جميلاً أبداً، أريد أن أنهي النقاش ولكنه قال: سأساعدك إذا لزم الأمر.

نظرتُ إليه، لماذا يريد مساعدتي؟ ما الذي سيجنيه؟ ولماذا هو مهتم بالأمر إلى هذا الحد؟ شخص مثله لديه كل شيء، فماذا يريد بعد؟

قال: ألا تصدقينني؟

قلتُ: الأمر ليس كذلك، سأحاول تدبر الأمر بنفسي.

قال: ألا تحبين تلقي المساعدة من أحد؟

أجبتُ: الأمر ليس كذلك، هذا مشروع كبير وعليّ أن أفكر فيه مليّاً.

قال: أنتِ تفكرين أكثر من اللازم.

نهض واتجه إلى الباب قائلاً: تعالي معي.

سألتُه: إلى أين؟

قال: ليس بعيداً، سنقطع شارعين من هنا.

خرج من المتجر دون أن يدفع ثمن ما تناوله، اضطررتُ للّحاق به، كان يمشي بخطى ثابتة في الطريق، يعلم تماماً إلى أين يذهب، بينما سرتُ خلفه بسرعة، قطعنا مسافة تقارب الثلاثمئة متر، ووصلنا إلى مركز المدينة، وقف في المنتصف وأشار بيده إلى متجر للحلويات على زاوية الطريق.

وقفتُ أنظر إلى المتجر، إنه جميل جداً، ألوانه مبهجة، والأنوار تلفه من كل زاوية، ليس كبيراً ولكنه في منتصف المدينة، محظوظ صاحبه بلا شك.

قال: أليس جميلاً؟

قلتُ: بالطبع.

قال: ألا تشترينه؟

نظرتُ إليه وقلتُ: ليس لدي المال.

قال: تدفعين كل شهر ما تيسر، أليس عرضاً مغرياً؟

فكّرتُ في الأمر، متجر جديد كهذا سيكلف الكثير، ربما يساوي أرقاماً لم أحلم بها، إنها مجازفة كبيرة، قلتُ: لستُ أدري، أنا قلقة.

قال بكل ثقة: ولماذا القلق؟ ها هو المتجر أمامك، كل ما عليك أن تأخذي المفتاح وتدخلي.

أخرج مفتاح المتجر من جيبه، كان ذلك مفاجئاً، ولكنه شرح قائلاً: لقد اشتريتُ المتجر، وهو لكِ، إلى أن تسددي ثمنه طبعاً.

كانت هذه صدمة حقيقية، ها هو المتجر أمامي، ها هو المفتاح أمامي، ها هو الحلم أسهل مما تخيلتُ، ولكن... لماذا يفعل هذا؟ هذا كثير جداً!

قلتُ: لا أستطيع أن أقبل شيئاً كهذا.

تأفّف قائلاً: هذه ليستْ هدية، أردتُ فقط أن أثبت لك أن الأمر أسهل مما تتخيلين، فبدلاً من أن تعملي هناك تعملين هنا، وما

تحصلين عليه من مال تسددين به القرض في البنك، وهو قرض يسير جداً.

سألتُ: وكم عليّ أن أدفع في الشهر؟

أجاب: ليس هناك مبلغ محدد، سددي حسب مقدرتك، المهم أن تدفعي شيئاً كل شهر.

قلتُ: ما هذا القرض الغريب!

أجاب: إنه بنك ممتاز، فقط اذهبي إلى هناك في بداية كل شهر، أحضري معك النقود، وسلّميها في مكتب الاستقبال باسم معتز قاسم، هذا كل شيء.

سألتُ: إلى متى أسدد القرض؟

قال: القرض مفتوح إلى سداد الدين.

لا أظن أن البنوك تصبر على المقترضين هكذا، هناك أمر ما! سألتُه: هل أنتَ معتز قاسم؟

ضحك مسروراً، وفرح لسرعة البديهة التي يبدو أنه توقعها مني، وقال: علمتُ أنك حاذقة، نعم أنا معتز.

قلتُ بإصرار: عفواً، ولكنني لن أقبل أن تدفع القرض عني، وقد لا أسدده لك إلى آخر العمر.

قال ببساطة: ستسددينه قبل آخر العمر، كما أنه قـرض للبنـك وليس لي.

سألتُه: وكيف ذلك؟

أجاب: البنك لي.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع عشر | أحمد

قرض من البنك، هل نستطيع أن نحصل على قرض من البنك؟ هل أستطيع أن أحقق حلم هالة؟

بقيتُ أفكر طوال اليوم، منذ الليلة الماضية إلى الدوام المسائي، هل يستطيع موظفان اثنان مثلنا الحصول على قرض كبير من البنك؟ وهل هناك بنك يسير علينا؟

من أستطيع أن أسأل؟ من يساعدنا في شيء كهذا؟

أظن في مثل هذه الظروف يعود الأولاد إلى آبائهم، سامحك الله يا أبي.

لم أستطع التوصل إلى حل، حاولتُ التفكير في طريقة أخرى، ربما اقترضنا بعض النقود ممن حولنا، ولكن المبلغ الذي نحتاج قد يكون كبيراً.

قضيتُ ليلة الحراسة أفكر في الأمر، خطر على بالي أخيراً المركز الذي ساعدنا في دفع النقود للمشفى، فيوج... هذا الشاب لديه حل لكل المشاكل، يجب أن أزوره.

أين أجد فيوج؟ كان قد أخذني إلى المركز وأدخلني وهو يعرف تماماً أين يذهب، يبدو أنه يتردد على المركز كثيراً، ربما يعمل هناك

أو في الجوار، قررتُ أن أستفسر عن ذلك بعد العمل الصباحي وقبل العمل المسائي غداً.

في اليوم التالي ذهبتُ إلى المركز، وقفتُ أمام مكتب الاستقبال أسألهم عن موظف لديهم يُدعى فيوج، ابتسمتْ الموظفة وقالتْ: فيوج استقال بالأمس، لقد ملّ العمل المكتبي.

سألتُها: هل تعرفين أين يعمل الآن، أو عنوان سكنه؟ أريد أن أقابله.

أجابتْ: لم يسبق أن زاره أحد من زملائه، إنه غريب الأطوار رغم أنه لطيف وخدوم.

تلك كانتْ نظرة الجميع إليه، سألتُها إذا ما كان هناك من يساعدني لأجده، ولكنها أكّدتْ أنه يفعل ما لا يتوقعه أحد.

إنها محقّة، ولكن علي أن أجده، أين سيكون؟

■ ■ ■

■ الفصل الخامس عشر | هالة

أمي... هل أفعل الصواب؟

أمي... ها هو حلمي يتحقق، ولكنني خائفة.

يا رب، ساعدني لأعرف ماذا أفعل، لم أعد أعرف شيئاً، أشعر بضياع كبير، لماذا يفعل معتز كل هذا؟ هل أصدقه؟ هل هو شخص جيد؟ هل أستطيع الوثوق به؟ وماذا يريد مني؟

قضيتُ وقتاً طويلاً في التسوق، لم أكن أعلم أن المواد مكلفة إلى هذه الدرجة.

دخلتُ متجري الجديد وبدأتُ أحاول تحضير كمية كافية من الحلويات قبل الساعة الثامنة صباحاً، حيث سأفتح المتجر للمرة الأولى.

عليّ العمل بجد، فأنا وحدي هنا، وعليّ أن أحضّر شيئاً شهياً في أول يوم، فالانطباع الأول هو الأهم للزبائن.

وضعتُ إعلاناً أطلب فيه موظفاً، فبخبرتي في المتجر السابق أستطيع أن أجزم أنني لن أنجح في العمل وحدي.

الساعة السابعة والنصف، وعقلي ما يزال يدور، هل كان علي أن أرفض؟ هل أنا في حلم؟ هل سأنجح؟ ماذا لو أخبرتُ أحمد بما

جرى، هززتُ رأسي أحاول إبعاد الفكرة بسرعة، حيث كنتُ على يقين أنه سيطلب إليّ أن أخرج من المتجر على الفور، لا أظنه سيقتنع بأي مما جرى.

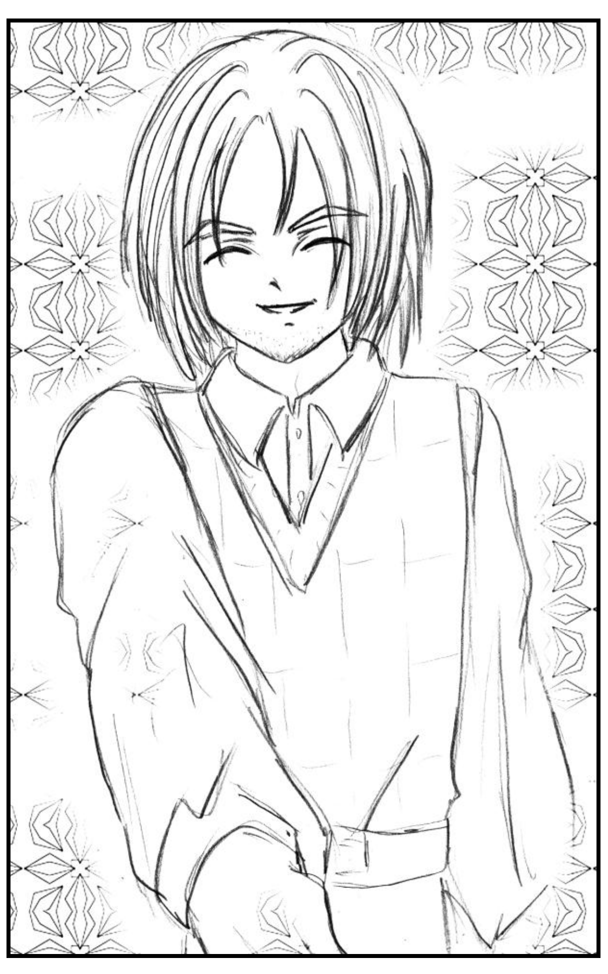
بصراحة، أنا كذلك غير مقتنعة، ولكنني أريد المتجر كثيراً، وعندما أصبح حقيقة واقعة أمامي بت أريده أكثر من أي وقت مضى.

سمعتُ صوت رنات خفيفة، أحدهم فتح باب المتجر، نظرتُ إلى الزبون، إنه... فيوج!

لم أصدق عيني، رغم أنه قد كبر عن ذي قبل، رغم أن الشعر قد نبتَ على وجهه، وبات أطول وأكثر وسامة، إلا أنني على يقين أنه هو، فيوج!

قلتُ والسعادة تغمر قلبي برؤية شخص يجلب الخير أينما حطّ: فيوج! أهذا أنت؟ لم أرك منذ زمن! كم أنا سعيدة بحضورك!

ولكنه تفاجأ بهذا الترحاب الحميم، وأشار بيده بالتحية وقال: أهلاً، هل أعرفكِ؟



جلسنا في المتجر نتبادل الحديث، بعد ردّه البسيط على تحـيتي تذكرتُ أنها لم تكن المرة الأولى التي لم يتذكرني فيهـا، كمـا أن أحمـد أخبرني أنه لم يتذكره أيضاً، ولكنني أكيدة أنه هو، كمـا أنـه لم ينكـر أن اسمه فيوج.

سألتُه: هل فعلاً لا تذكرني؟

أجاب: أين رأيتك؟

قلتُ: أنا هالة، أختُ أحمد الذي ساعدته لإخراجي من المشفى.

قال: أجل، التقيتُ أحمد منذ شهر تقريباً، لقد طلب إليّ المساعدة في توفير النقود.

قلتُ: أجل، وشكراً جزيلاً لمساعدتك، نحن ممتنون جداً.

قال: أبداً، لا شكر على واجب، لم يكن شيئاً يُذكر، المهم أنكِ بخير.

قلتُ: أنت لطيف جداً، حتى وإن لم تذكر رحلتنا الطويلة أريد أن أخبرك أنك ساعدتنا في كل مكان التقيناك فيه، أنت فعلاً شخص رائع.

قال: لا تقولي ذلك، أنا حتى لا أذكر ما تتحدثين عنه، أنتما غريبان، تحاولان إقناعي بأشياء لم أفعلها.

نظرتُ إلى يده، إنه السوار ذاته، أنا متأكدة، أشرتُ إلى السوار وسألتُه: هل ترتدي هذا السوار طول الوقت؟

نظر إلى السوار وقال: إنه على يدي منذ فترة، نُقش عليه اسمي، ولا أستطيع أن أنزعه.

نظرتُ إلى السوار، إنه فعلاً لا يحمل حلقة أو قفلاً، إنـه مغلـق حول رسغه تماماً! لماذا يفعل ذلك؟

سألتُه: إذن لماذا دخلتَ المتجر؟

قال وقد ابتهج أنني غيّرتُ مساق الحديث: لقد كُتب على الباب أنكم تحتاجون موظفين للعمل، أحب أن أجرّب.

ابتهجتُ بهذه البداية الموفقة، موظف أمين كـريم معطـاء، أيـن سأجد موظفاً أفضل من فيوج، ولكنني قلتُ لـه: سيكون ذلـك مـن دواع سروري، ولكن المتجر مـا يـزال حـديثاً، وقـد لا أستطيع أن أدفـع لـك الأجر كاملاً هذا الشهر.

قال: سنعمل على توفير أكبر قدر من المال للمتجر، لا عليك.

حمداً لله، إنني فعلاً محظوظة، ربما لم تكن فكرة المتجـر سيئة منذ البداية، هكذا بدأتُ أبتهج، وحاولتُ أن أبعد عـن رأسـي الأفكـار التي أرّقتني، أريد فعلاً أن أعمل بجد في متجري، وأن يصـبح مزدهـراً غنياً.

باشر فيوج العمل على الفور، وتعلّم الكثير في وقتٍ قصـير، إنـه نشيط وممتع، أحب حسّ البساطة الذي يحوم حوله أين ما ذهب.

سألني: هالة، اعذريني لسؤالي ولكن... كيف استطعتِ تحضير

مثل هذا المتجر في وقتٍ قصير؟

تنهّدتُ، ها قد عادتْ الأفكار تدور في رأسي ثانية، ولكن ربما كان عليّ أن أخبر أحداً، وفيوج هو أفضل من أسرّ له بما في نفسي، حدّثته عمّا جرى، وعن معتز، وعن القرض، ويبدو أنه لم يأخذ الأمر ببساطة كعادته، فقد تغيّرتْ ملامحه وهو يقول: هذا غريب، لماذا يفعل شيئاً كهذا.

قلتُ: فكّرتُ بذلك كثيراً، ولكن... ماذا يريد من فتاة مثلي، أنا لا أملك النقود، لا أملك عُشر ما يملك، فهو يملك كل شيء، إمّا أنه يفعل ذلك كعمل خيري تطوعي، وإما أنه ينوي إيقاعي في السجن وليس هناك من سبب ليحقد عليّ.

سكتَ فيوج قليلاً وقد بان على وجهه أنه توصل إلى نتيجة ما، قال: هل تظنين فعلاً أنك لا تملكين أي شيء يريده؟

شيء يريده! أجبتُ: لا أظن ذلك.

سأل: هل أخبرتِ أحمد عمّا جرى.

قلتُ: لن يقبل بذلك.

فكّر ثم قال أخيراً: اعلمي أن شخصاً كمعتز لديه دائماً أسبابه.

وتابع العمل بهدوء، أرجو ألا يكون ما أفعله سيئاً، ولكن فيوج

لم ينهني عنه مباشرة، إذن لابد أن يكون هناك مجال للمغامرة، أريـد فعلاً هذا المتجر، كـل لحظـة أقضـيها فيـه تجعلـني لا أريـد مغادرتـه أكثر.

■ ■ ■

■ الفصل السادس عشر | أحمد

مرّتْ عدة أيام ولم تذكر هالة شيئاً عن القرض، لا أحب أن أكون السبب في ذلك ولكن كان عليها أن تعلـم الحقيقـة بطريقـة أو بـأخرى، ليس لنا مستقبل زاهر في هذا العالم، نحن فقط قد نجونا.

ربما اعتدتّ العمل في المطعـم منـذ زمـن، ولكـنني لم أعتـد بعـد الحراسة، فكل حركة أو همس كانت مخيفة، ربما لأن الوقت متأخر، ربما لأنني وحدي، أو ربما لأنها طبيعة هذا العمل.

أصبحتُ مرهقاً، أنتظر أيام العطل بفارغ الصبر لأضع رأسي على الوسادة وأنام إلى أن أتعب النوم، أمّا هالـة فلـم أعـد أعـرف شـيئاً عـن عملها، كما لم نعد نخرج معاً في الصباح، فقـد أصـبحتْ تخـرج مبكـرة جداً، أخبرتني أن صاحب المتجر أوكل إليها مهمة شراء المـواد، لـذلك عليها أن تستيقظ مبكرة وتبدأ التحضير.

اشتقتُ للأيام الماضية حيث كنا نخرج معاً ونعود معـاً، لا نفكـر في شيء ولا يهمنا أحد، ربما كنتُ من بدأ هذا الجفاء، ولكنني ببساطة كنتُ أول من صحا من سبات الطفولة الجميل.

أنهيتُ العمل في المطعـم، لـديّ سـاعة قبـل الـذهاب إلى المخـازن للحارسة، لم أعد أعرف ماذا أفعل فيها، هل أعود إلى المنزل؟ هالة لـن

تكون هناك، هل أذهب إلى المخازن، لا يُستحسن ذلك، هل أذهب إلى حديقة أو أمشي في الشارع، لقد مللتُ كل ذلك، أخيراً أخذتُ كؤوساً من المطعم، وبدأتُ ألاعب الزبائن كما كنتُ أفعل في الماضي، تذكرتُ كم كان ذلك مسلياً، وكم أحب الناس شيئاً بسيطاً كهذا.

للحظة شعرتُ أنني عدتُ إلى الوراء، إلى الأيام السعيدة، ولكن سرعان ما انتهتْ الساعة، وعدتُ إلى الحراسة، وعدتُ إلى الواقع.

كانتْ تلك الليلة موحشة، كانتْ مظلمة لا قمر فيها، والهدوء كان مزعجاً أكثر من أي وقتٍ آخر، تجوّلتُ هنا وهناك أنظر إلى البضاعة، ربما عليّ أن أترك هذا العمل.

بدأتُ أفكر جدياً في الاستقالة، والعودة إلى العمل في المطعم بشكل أساسي، والعودة إلى حياة هادئة جميلة حتى ولو كنتُ سأجني القليل من النقود، فها هي النقود التي جنيتها من الحراسة تحت مخدتي في المنزل، لستُ أدري إلى متى ستظل هناك، وماذا سأفعل بها.

لم يطُل التفكير في الأمر حتى احتجتُ النقود التي جمّعتُها، فقد أصبتُ بالحمّى، وبتّ أسعل بشدة، وقد أشارتْ الصور إلى وجود التهاب حاد في الرئة، كان عليّ أن أنام ليلة في المشفى، ولكنني رفضتُ ذلك، وآثرتُ البقاء في المنزل وتناول العلاج فيه.

لم أشعر بتحسّن، وقد توقعتُ ذلك، فمعلوماتي القليلة عن الإيدز كانت كافية لمعرفة أن الالتهابات تكثر وتطول، اضطررتُ للعودة إلى المشفى للحصول على الإبر الوريدية للمضاد الحيوي، ونمتُ ثلاث ليال لم أسمح فيها لأحد أن يسحب عيّنة واحدة من دمي، فلم أرد أن يكتشف أحد أنني مصاب بالإيدز، كما لم أرد أن تعلم هالة أيضاً.

بدأتُ أشعر بتحسن بعد الليلة الثانية، وخرجتُ بعد الثالثة، وقضيتُ أربعة أيام في المنزل، تحسّنتُ فيها، وعدتُ بعدها إلى العمل لا أكلّ ولا أملّ.

■ ■ ■

■ الفصل السابع عشر | هالة

أمي... ربما اتخذتُ القرار الصحيح، مرّ شهران على افتتاح متجري الخاص، وعملتُ مع فيوج بجد، وقد بات لديّ زبائن كُثُر.

أمي... ها هو متجري يجمع نقوداً أكثر من المتجر السابق، إنها أموال لم أحلم بالحصول عليها طول حياتي، ربحٌ صاف لا راتب صغير محدد آخر كل شهر، الآن فقط أعرف قيمة التملّك.

عمل فيوج بجد وإخلاص، وأعطيته راتباً جيداً، وقمتُ بالذهاب إلى البنك وتسديد جزء صغير من الدين كما اتفقنا، وسارت الأمور على أحسن ما يرام، وعاملني الموظفون باحترام شديد.

إذا ما ظلّت الأمور تسير على هذا المنوال فإنني الأسعد في الدنيا، كم أحب هذا العمل، وكم أنا محظوظة بالحصول على متجري الخاص.

اليوم دخل معتز المتجر، كان يرتدي سترة بنية وبنطالاً أبيض، يفرد شعره على كتفه، ويرفع عليه نظارته الشمسية، هذه المرة قابلته بابتسامة رضا فرح بها، وبادلني نظرات تقول "كنتُ أعلم أنك ستنجحين"، كان شعوراً رائعاً، رحّبتُ به وقدّمتُ له طبقه من شراب الشوكولاتة الساخنة والكعك بطعم القهوة كما يفضّلها، وجلسنا نتحدّث.

قال: ازدهر المتجر.

قلتُ: الحمد لله.

قال: والكعك ألذّ من ذي قبل.

ابتسمتُ وقلتُ: يسعدني أنه نال استحسانك.

فقال: كل شيء هنا ينال استحساني، إنه متجر مميز بمالكة مميزة.

لم أعتد عبارات الإطراء، ولستُ أعرف كيف يجاب عليها، فاكتفيتُ بشكره، وأخيراً قررتُ أن أمسك زمام الحديث، وأن أعرف عنه المزيد، سألتُه: سيد معتز، لقد ساعدتني كثيراً، ووقفتَ إلى جانبي، ولكنك ما تزال عندي كالجندي المجهول، لم يسبق لك أن تحدثتَ عن نفسك أمامي، أحب أن أعرف عنك المزيد.

ابتسم وكأنه كان ينتظر مني هذا السؤال، قال: ظننتُ أنك ستسألين وتجمعين المعلومات من هنا وهناك.

قلتُ: لستُ جيدة في ذلك، وتستطيع القول أنني لا أصدق إلا ما أعاين بنفسي.

قال: أنا معتز قاسم، صاحب أكبر بنك في المدينة، وتاجر عقارات كبير، ربما يأخذ العمل معظم الوقت، ولكنني أحب الكثير

من الهوايات، كالعزف والفروسية، كما أحب الكعك بطعم القهوة وشراب الشوكولاتة الساخن.

ابتسمتُ، وقد رشف القليل من شراب الشوكولاتة، سألتُه مباشرة السؤال الذي كان يدور في رأسي مذ التقيتُه: لماذا فعلتَ كل هذا؟

فهم على الفور أنني أقصد المتجر، ومساعدتي، ودفع النقود مباشرة، أعاد الشراب إلى الطاولة وقال: لأنك مميزة، منذ لقائنا الأول ولم تغيبي عن ذهني لحظة واحدة.

ماذا أستطيع أن أطلق على مثل هذا الحديث، هل هو غزل؟ إعجاب؟ حب؟ هذه أول مرة أسمع فيها شيئاً كهذا، كما أنني شعرتُ لأول مرة في حياتي أنني كنتُ بحاجة إلى تلفاز أشاهد فيه المسلسلات وما يجري فيها حتى أكون مستعدة لمحادثة كهذه، ولكن... فات الأوان.

قال: لم يسبق لي أن شغلتْ فتاة اهتمامي، وكنتُ أظن أن ما يصفه الرجال من عشق وولع ما هو إلا ضعف وسذاجة، ولكنني أعترف أنني ضعفتُ، وربما بتّ من السذّج.

بقيتُ صامتة فترة سرحتُ فيها في البعيد، لابد أنه ينتظر أن

أقول شيئاً، ماذا أقول؟ ماذا أفعل؟ بل ماذا أريد؟ هل هذا اعتراف صريح أنه يحبني؟ لم أتوقع ذلك أبداً، وماذا يجب أن أقول؟ أي كلمة ستحسب الآن عن عشرة، فكّري يا هالة، فكّري يا هالة!

ظلّ ينتظرني، فاضطررت لفتح فمي والتفوه بأي شيء، فكان ما كان مني: ماذا يُفترض أن أقول في مثل هذه المواقف؟

ضحك معتز، ضحك كثيراً إلى أن شاهدتُ الدموع في عينيه، على الأقل لم يكن جوابي سلبياً، ولم ينزعج، ولم يحزن، ولم يصرخ، ولم يخرج من المتجر، أظن أن هذا كان جيداً.

أخيراً تمالك نفسه، وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يقول: كان هذا ظريفاً فعلاً.

ابتسمتُ وقد كان الارتباك واضحاً عليّ، فقال: على كل حال سأتركك تفكرين في الأمر، وسأعود لاحقاً لأسمع ردك.

سألتُ: ردّي على ماذا؟

أخيراً قالها بصراحة ووضوح: أريدك أن تكوني زوجتي.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن عشر | أحمد

أشعر بفراغ كبير، أشعر بوحدة قاتلة، أريد أن آخذ عطلة من العمل ولكنني استهلكتُ معظمها في المرض.

لم أعد أرى هالة كثيراً، ولم نعد نتكلم معاً كالسابق، أشعر أن الفجوة بيننا باتت كبيرة.

لا يجب أن تظل الأوضاع هكذا، من المهم أن نعود كما كنا، ولكن هل لها يد في ذلك؟ أنا من بدأ هذا وأنا من يتوجب عليه أن يصلحه.

هذه المرة عدتُ إلى المنزل قبل الدوام المسائي، أريد أن أتحدث إلى هالة، ليس في أمور العمل بل في أي موضوع كان يجمعنا في السابق، أريد لتلك العلاقة أن تعود بأي شكل، ولكنني لم أجد استحساناً منها، كانت شاردة في أمورها الخاصة التي أعلم أنها كَثُرتْ ولم أعد أعرف منها شيئاً.

لستُ ألومها، فبابتعادي عنها يوماً بعد يوم باتت لديها حياتها الخاصة أكثر فأكثر، ربما أصبحتْ تخرج مع صديقات، ربما تتحدث إليهن عمّا يجول في خاطرها، ربما يتسوقن معاً كل صباح، المهم أنها بخير وبصحة جيدة.

سألتُها عن العمل، فأجابتني ببساطة أنه على ما يرام، سألتُها

إذا ما كانتْ بحاجة إلى نقود، فأجابتْ أنها تتدبر أمرها، سألتُها إذا ما كانت ترغب في الذهاب إلى مكان ما أو زيارة أحد المتاحف، ولكنها لم تبدِ أي اهتمام.

رغم أنني أعلم أننا تباعدنا في الفترة الأخيرة، إلا أنني أشعر أن هناك ما يشغل تفكير هالة، أستطيع تمييز الفرق بين الاثنين، ولكن لماذا لا تخبرني عما يجول في خاطرها؟

مرّتْ أيام، وما عدتُ أسمع من هالة الكثير، أصبحتُ وحيداً فجأة، هناك ما يقلقني في ذلك ولكن لا أعرف ما هو.

سرتُ في الطريق الساعة الثانية عشرة ليلاً عائداً إلى المنزل من حراسة مسائية، كان الطريق خالياً، والناس نيام، سمعتُ صوتَ أحدهم ينادي بصوتٍ منخفض، التفتّ فإذا به منسيّ، يقف على زاوية الطريق يؤشّر لي دون أن ينتبه علينا أحد.

اقتربتُ منه أسأله لِم السرّية، ولكنه تجاهل سؤالي وقال على الفور: اسمعني، ستفاتحك هالة اليوم في أمر مهم، مهما كان ذلك الأمر لا توافق.

ماذا يقول؟ وكيف له أن يعرف شيئاً كهذا! قلتُ: لا أفهم ما تعني...

قاطعني وأعاد وشدد على مهما: مهما كان الأمر لا توافق، أتفهم؟

يبدو الأمر خطيراً، سألتُه: وما هو ذلك الأمر؟

قال: فقط تذكر ما قلتُ جيداً.

قلتُ: يجب أن أعرف عن ماذا تتحدث، يبدو الأمر خطيراً.

تنهد وقال محاولاً الاختصار: معتز ليس شخصاً جيداً، هل يكفي هذا؟

سألتُ: ومن يكون معتز هذا؟

تأفف أكثر وقال وقد نفد صبره: فقط تذكر ما قلتُ.

أضاء مصباح في المنزل المجاور، فركض منسيّ مغادراً المكان بسرعة، لم أستطع إيقافه فقد ابتعد بسرعة هارباً من... لستُ أدري من ماذا، ولماذا يفعل ذلك؟

تابعتُ سيري إلى المنزل، وكانتْ هالة مستيقظة على غير العادة. كانتْ جالسة في الصالة تنتظر عودتي، من الواضح أن أمراً ما يشغلها أكثر من أي يوم آخر، وانتظارها لي يعني أنها قد قررتْ أخيراً مفاتحتي بالأمر واستشارتي فيه.

جلستُ إليها وسألتُها: ما الأمر؟

ترددتْ قليلاً قبل أن تفاتحني بالموضوع، وقالتْ: أحمد... هناك من طلب الزواج بي.

هل كان عليّ أن أتوقع شيئاً كهذا؟ كل هذه المراحل من التغيير في حياتنا هل كانتْ بسبب شخص ما؟ كم كنتُ ساذجاً، كان عليّ أن أفكر في هذا من قبل، هذا ما كان يشغل هالة! سألتُها: من يكون؟

أجابتْ: اسمه معتز قاسم، وهو بصراحة ثريّ جداً، ويملك بنكاً في المدينة، بل أكبر بنك فيها.

قلتُ: حدثيني عنه، كيف عرفك وماذا تعرفين عنه؟

قالتْ: لقد تردد على المتجر عدة مرات، هذا كل ما في الأمر.

من الواضح أن هناك ما هو أكثر من ذلك، ولكن لماذا ما تزال تخفي هالة عني أمراً ما؟ قلتُ: أنتِ تعلمين أن هذا لا يكفي لتوافقي على أحدهم، علينا أن نسأل عن سيرته، ماذا إذا ما كان لصّاً؟

قالتْ: لا أظن، إنه صاحب شخصية قوية ومميزة، ولكنه ليس سيئاً.

قلتُ: سنسأل عنه في الصباح، ما دام شخصية غنية فهو معروف بلا شك، سيسهل علينا السؤال عنه.

شردتْ هالة ثانية، يبدو أنها قلقة، تمنيتُ فعلاً لو أعرف ما

جرى، ليتني لم أنغرس في العمل في الفترة الأخيرة، لكنتُ علمتُ كل شيء بسهولة، لماذا يصعب عليّ سؤال هالة عن أي شيء الآن، كما يصعب عليها التحدث إليّ في أي موضوع.

زواج، ألم يكن عليّ أن أفكر في الأمر من قبل، هالة جميلة وذكية، وهي على خلافي تستحق أكثر مما هي عليه الآن بكثير، وها هي قد حانت فرصة ذهبية لتغير حياتها إلى الأفضل، فلِم لا؟

بالمقارنة معي فإنني بسيط وبطيء الفهم، ولا أظن أنني أتقن أي عمل أفعله، كما أنني لم أتقن القراءة أو الكتابة يوماً، وأظن أنني قد حصلتُ على أكثر مما أستحق في هذه الدنيا، آه كم اتسعتْ الفجوة بيننا.

ذهبتُ في اليوم التالي إلى العمل، في المطعم حاولتُ أن أستفسر عن معتز قاسم هذا، كان اسمه مألوفاً لي بشكل كبير، ولكنني لا أذكر أين سمعتُ به.

لم تكن آراء الناس مختلفة، وقد عرفه الجميع وقالوا أنه يجمع أكواماً وأكواماً من النقود في كل لحظة، وهو همّه الوحيد وفخر حياته، كما أنه ليس كريماً ولا حتى لطيفاً مع الفقراء، كان دائماً يلومهم على فقرهم أنهم قد جلبوا ذلك بأيديهم.

لم تكن بداية موفقة، ولكنني لم أكتف بهذا، بل سألتُ عنه

أيضاً في المخزن، هناك ضحك الجميع لسؤالي، وأخيراً تذكرتُ أين سمعتُ هذا الاسم، هذه المخازن التي أعمل فيها هي ملك لمعتز قاسم!

لا يبدو أن أحداً يحبه، ألأنه غني؟ هل يغار منه الناس إلى هذه الدرجة، ولكنهم يقولون أنه ليس لطيفاً معهم، أهي ردة فعل طبيعية إزاء شعورهم تجاهه؟

عملتُ في الحراسة تلك الليلة إلى الساعة الثانية عشرة، أفكر بمعتز هذا طول الوقت، لماذا لم يختر زوجة له من طبقته، من أقربائه أو ممن يتعامل معهم، واختار هالة دون الجميع؟ لستُ أفهم السبب، أهو إعجاب خاص أم أنه يستغل موقفنا الضعيف أمامه؟

فكّرتُ كثيراً إلى أن بدأتُ أشعر بالصداع، أخيراً أنهيتُ حراستي، ولكنني على يقين أن هالة في انتظاري، ماذا سأقول لها؟

بصراحة لا تعجبني الفكرة، لا يبدو شخصاً جيداً، ولا أريد لها أن تنخلط في تلك المجتمعات، ولكن هذا لن يكون سبباً كافياً لأرفض زواجها به.

هالة تعلم أنني أريد لها كل الخير، لا أظن أنها ستنزعج بما سأقول، ولكنني لستُ واثقاً مما سأقول أساساً، عليّ أن أستفسر أكثر، ولكن مِن مَن؟

لم أستطع الوصول إلى نتيجة اليوم، وعدتُ إلى المنزل وقد كانـت هالة في انتظاري كما ظننتُ، لم أجبها بشـيء محـدد، ولكـنني طلبـتُ إليها أن تمهلني أياماً أخرى لأسأل عنه، فلسـتُ أعلـم أحـداً قريبـاً إلى معتز.

لم تعلّق هالـة، وذهبـتْ إلى فراشـها، يبـدو أنهـا محتـارة هـي الأخرى.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع عشر | هالة

أمي... ها هي ابنتك في سن الزواج، ربما ترتدي الثوب الأبيض قريباً.

كم أريدك إلى جانبي، أشعر بالحيرة والخـوف، كيـف أسـتطيع أن أتخذ قراراً خطيراً كهذا؟

طبقة نبيلة، هل أستطيع أن أعيش بيـنهم؟ هـذا مقلـق، فأنـا لا أعرف شيئاً عن تقاليدهم وعاداتهم، لابد أن لديهم الكثير من الأسرار.

أحمد لم يساعدني في شيء، إنه لا يعلم مـا يفعـل مثلـي تمامـاً، أريد شخصاً له خبرة في هذه الأمور، ولكن من؟

عملتُ في المتجر وأنا أفكر في معتـز طـول الوقـت، مـرّت خمسـة أيام ولم يحضـر، ولم يسـتطع أحمـد أن يجمـع المعلومـات الـتي تكفيـه ليجيبني، وما زلتُ لا أعرف ماذا أفعل.

وضـعتُ آخـر لمسـات علـى كعكـة لعـرس سـيقام اليـوم، ثـلاث طبقات، عليها الكثير من الفواكه تغلبها الفراولة، وفي الأعلـى تجلـس العروس وتدلّي أرجلها مـن أعلـى الطبقـات، ويقـف العـريس خلفهـا. لستُ أدري كيف صنعتُها وبالي مشغول، حمداً لله أنها كانت جميلة.

نظرتُ إلى فيوج الذي كان يحضّر البسكويت بأشـكاله المختلفـة،

وطبعاً الشكل الذي لا ينقطع في المتجر كان القلوب، كانت هذه أول مرة أشعر أن لهذا الشكل إحساساً غريباً، لذلك لا يجب أن ينقطع من أي متجر.

خطرتْ ببالي فكرة، قلتُ لفيوج: هل أستطيع أن أسألك عن أمر ما؟

وضع البسكويت في مكانه المخصص للعرض بشكل جذّاب وقال: بكل تأكيد.

قلتُ: لقد كنتَ دائم العون لنا، وأنا أعتبرك أخاً لي، فهل لي أن أستشيرك في أمر؟

قال: يبدو أنه مهم جداً.

قلتُ: أنت تعرف النبيل معتز الذي يحضر إلى المتجر بين الحين والآخر.

ابتسم قائلاً: الكعك بطعم القهوة، وحلوى البندق، وشراب الشوكولاتة الساخنة.

ابتسمتُ وقلتُ: أجل، لقد طلب الزواج بي، ما رأيك في ذلك؟

سكتَ قليلاً يفكر، لماذا يحتار الجميع في أمره؟ هل كان الأمر سيكون أسهل إذا ما كان شخصاً غير معتز؟ أخيراً قال: هل تحدثت

مع أحمد في هذا الشأن؟

قلتُ: بالتأكيد، ولكنه استغرق خمسة أيـام في السـؤال عنـه ولم يرد لي الإجابة الشافية.

سأل: هل تحببين أن أسأل عنه أيضاً؟

تنهدتُ وقلتُ: وهل يخيفكم إلى هذا الحد؟

قال ببساطة: نحن لا نعرف عنه شيئاً.

نظرتُ إلى باب المتجر، ومنه إلى الخارج، سرحتُ قليلاً ثم قلـتُ بكل صدق: فيوج... لا أخفيك القول، لقد مرّتْ خمسة أيام على زيارته الأخيرة، وأشعر بالقلق كلما فكّرتُ أنـه ربمـا لا يعـود، أظـن أنـني... اشتقتُ إليه.

■ ■ ■

■ الفصل العشرون | أحمد

معتز قاسم، معتز قاسم، لماذا يتخوف الجميع من ذكر اسمه؟ لماذا أشعر أن أحدهم لا يقول كل ما يعرف؟ بدأ الخوف والشك يتسلل إليّ، لِم لا أسأل أسئلة مباشرة لا يستطيع أحدهم أن يهرب منها.

قررتُ أن أغير طريقة سؤالي أخيراً، وصرتُ أسأل "هل تزوج من قبل؟" "هل يتعامل مع الممنوعات؟" "هل يبيع الأسلحة للأعداء؟" "هل يرتاد الخانات؟" وإلى ما شابه ذلك، الغريب أن الإجابات كلها كانت جيدة، ليس من عيب عُرف به، إذن لماذا يخافه الناس؟ لماذا لا يحبونه؟

حسناً، أخبرني أحدهم أنه لا يساعد المحتاجين، ويعتبر الفقر خطأ الإنسان، وقد قال شيئاً كهذا علانية عدة مرات، ربما يكون هذا سبباً كافياً لكي لا يحبه الناس.

سألتُ وسألتُ لأيام عدة، أعلم أن انتظار هالة كان مربكاً، ولا ألومها لذلك، فقرار كهذا لن يكون سهلاً على الإطلاق، ولكن في اليوم السابع نطق أحدهم أخيراً ليقول: اسمعني، أنت تسأل عن معتز هذا فجأة وبإلحاح، هل ستشاركه في مشروع ما؟

أجبتُ: في الحقيقة مشروع كبير جداً.

تنهد وقال: كن حذراً، فهو يأخذ ولا يعطي، ويطأ كل ما في طريقه، ولا يستطيع أحد إثبات تهمة عليه، إنه ذكي وحذر.

قلتُ: تهمة؟

قال: هل تظن أن عمله شريف؟ إنه يملك أضعاف ما ترى، ولا أحد يعلم بم يتاجر وكيف وإلى أين، كلما زادت الأسرار زادت الشكوك.

يا إلهي، ماذا سأفعل؟ قرار كهذا يعتبر مجازفة كبيرة، كيف سأخبر هالة بشيء كهذا؟ أشعر بضعف كبير، ليتني سمعتُ أخباراً طيبة عنه وانتهى الأمر، لماذا يجب أن يتعقد كل شيء؟

اتبعتُ هذا الأسلوب، وأخبرتُ عدة أشخاص أنني سأشارك معتزاً بمشروع كبير، وكان الإجماع على الحذر الشديد وعدم الثقة، هذا سيء جداً.

عدتُ إلى المنزل الساعة الثانية عشرة، وكانت هالة في انتظاري، هذه المرة وقد نفد صبرها، قالتْ: سيحضر معتز إلى المتجر في أي وقت، وأنت ما تزال تسأل هنا وهناك، عن ماذا تبحث بالضبط؟

قلتُ بهدوء: إنه زواج يا هالة، وليس أمراً بسيطاً.

قالتْ: أعطني جوابك النهائي، أنعم أم لا؟

سكتّ، هذا ليس سهلاً على الإطلاق، فتحتُ فمي لأقول: يجب أن نفـ...

ولكن هالة قاطعتني على الفور قائلة: أهو نعم أم لا؟

بلعتُ ريقي وقلتُ بجدية: إنه لا، لا يا هالة.

انفجرتْ هالة تقول: بعد كل هذا الوقت! ولِمَ لا؟ ألا تظن أنني أستطيع مجاراة العالم؟ هل تظن أننا سنعيش هكذا إلى الأبد؟

قلتُ وما زلتُ أحاول المحافظة على هدوئي: هالة، معتز ليس ذا سمعة حسنة.

قالتْ وقد ملأها الغضب: ومن كنتَ تسأل طول الوقت؟ عمّال الطرقات؟ الطباخون؟ الحرّاس؟

قلتُ: وما بالهم؟ إنهم يعرفون الكثير عن الناس، ويعرفون أن معتزاً جمع أموالاً طائلة بشكل مريب، ويعرفون أنه ذو سلطة كبيرة ولا يستطيع أحد أن يدينه بشيء، ويعرفون أنه يحصل على ما يريد بأي وسيلة.

قالتْ: لم يقولوا أنه لص أو قاتل.

قلتُ: لا أحد يعرف ماذا يفعل بالضبط.

قالتْ: لا دليل.

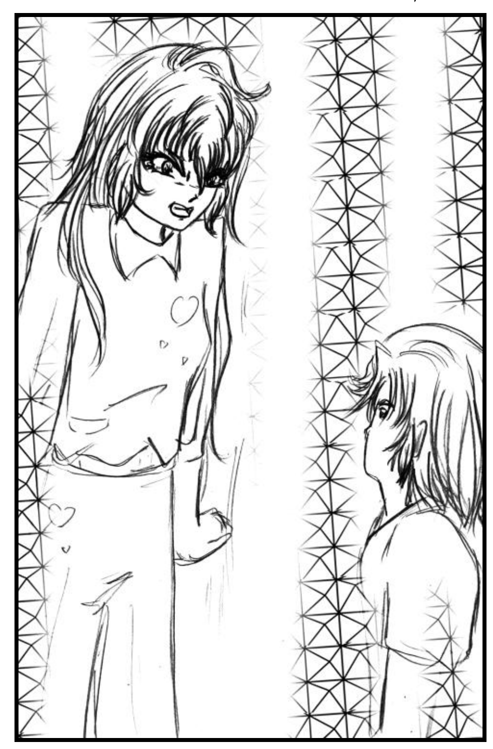
قلتُ: كل الناس تقول ذلك.

قالتْ: أفواه الناس الكبيرة ليست دليلاً.

قلتُ: ليس هناك دخان بلا نار.

قالتْ مصرّة على موقفها: أنت تسأل من يغار منـه، كـل النـاس تغار من الناجحين، وأنبّهك إلى أن أياً منهم سيركض ليزوّج أختـه مـن معتز إذا ما جدّ الجد.

سكتّ قليلاً ثم قلتُ: ربما، ولكن ليس أحمد.



تنهدتْ هالة في يأس، وقالتْ: هذا هو الفرق بيننـا، أنـت راض بينما أنا طموحـة، ومـن حقـي تحقيـق طموحـاتي حتـى وإن كنـتَ قـد رضيتَ بما وصلتَ إليه.

قلتُ: الرضا أفضل من الطموح الذي لا يوصل إلى أي رضا.

هكذا انتهى الحديث بيننـا، انتهـى نهايـة مفتوحـة، وذهبـتْ هالة إلى غرفتها، وأغلقتْ الباب لتنام، أو ربما لتفكّر إلى الصباح.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والعشرون | هالة

أمي... لم أستطع أن أتوقف عن البكاء.

أمي... هذا كان أسوأ جدال دار بيني وبين أحمد.

أمي... لماذا لا يقف أحمد إلى جانبي؟

أمي... أريدك هنا.

طلع الصباح ولم يغمض لي جفن، تورّمتْ عيناي من الدموع، ولم أفتح الباب إلى أن تأكدتُ أن أحمد قد غادر الغرفة.

اتصلتُ بفيوج أخبره أنني سأتأخر اليوم، فلم أكن لأذهب إلى المتجر قبل أن يخفّ التورّم في عيني.

غسلتُ وجهي بالماء، وتمددتُ على الفراش أفكر، ويبدو أنه قد غلبني النوم حيث صحوتُ على رنّة هاتفي، إنه فيوج، وقد باتت الساعة الثانية عشرة ظهراً.

قال: هل أنتِ نائمة؟

قلتُ: غفوتُ دون أن أدري، هل كل شيء على ما يرام؟

أجاب: نعم، انتابني القلق بتأخرك، فلم تتأخري يوماً عن فتح المتجر من قبل، هل هناك خطب ما؟

ابتسمتُ بصعوبة، أجبرتُ نفسي على ذلك رغم أنني أعلم أنه لا

يراني، ولكن ربما ينعكس ذلك إيجابياً على صوتي، قلتُ: أشعر بالتعب، هذا كل ما في الأمر.

سأل: ألن تحضري اليوم؟

قلتُ: بلى، سأكون عندك في نصف ساعة إن شاء الله.

نظرتُ إلى نفسي في المرآة وأنا أقول هذه الجملة، ما تزال عيني متورّمة بشكل ملحوظ!

أغلقتُ السمّاعة، وغسلتُ وجهي ثانية وثالثة، بل استحممتُ لأهدأ قليلاً، وقد كان له مفعول جيد فعلاً.

ارتديتُ ثيابي، وخرجتُ إلى العمل، وقد خفّ التورّم في عيني.

دخلتُ المتجر وقد كان هناك الكثير من الناس، فباشرتُ العمل على الفور، كيف تركتُ المتجر وهو في أمسّ الحاجة لي؟

عملنا بشكل متواصل إلى الساعة الخامسة، هدأ العمل، وجلستُ آخذ قسطاً من الراحة، وضع فيوج كرسياً بالقرب مني وقال: هل حدث شيء ما؟

كذبتُ كِذبتي نفسها: لا شيء، نمتُ طويلاً.

سكتْ، لا يبدو أنه يصدق ما يسمع، ولكنه قال: لقد حضر معتز.

رفعتُ رأسي بسرعة، ولم أحاول إخفاء علامات الدهشة ممتزجة مع خيبة الأمل، يحضر إلى المتجر في الساعات التي غبتُها! قلتُ: أحقاً؟

قال: نعم، أخبرتُه أنك متعبة، وستحضرين بعد الظهر، اشترى بعض الكعك وغادر.

سألتُ: ألم يقل شيئاً؟

قال: لم يكن ليقول لي شيئاً.

تنهدتُ، هذا يوم سيء، ولكنني لا أملك الرد بعد، ماذا كنتُ سأقول له إذا ما حضر؟ كان عليّ أن أفكر أن هذا قد يحدث في أي لحظة.

سمعتُ صوت باب المتجر، وقد كان هو، يرتدي بذلة بيضاء، وقميصاً أزرق، يربط شعره ويحمل باقة كبيرة من الورود الصفراء، وعليها بطاقة كُتب عليها "نتمنى لك الشفاء العاجل".

ضاعتْ كل الكلمات في صدري، هذه اللحظة التي لم أكن أعرف ما سأقول فيها، وما زلتُ لا أعرف، ولا أظن أنني يوماً كنتُ لأكون جاهزة.

دخل المتجر وعيناه لا تفارق عيناي، قال باهتمام: يبدو أنك تعبة فعلاً.

ارتبكتُ كثيراً وقلتُ: كلا كلا، أنا على ما يرام، مجرد إرهـاق، تفضل.

قال: لا أريد أن أثقل عليك، هذه فقـط تمنيـاتي لـك بالسـلامة، أرجو أن تقبليها.

قلتُ: شكراً جزيلاً لـك، لم يكـن عليـك أن تتعـب نفسـك، هـذا لطف كبير.

ناولني الورود، فناولتها لفيوج ليضعها جانبـاً وقلـتُ: تفضـل، هل تحب أن تشرب شيئاً؟

قال بكل أناقة: إذا ما كنتِ ستشربين معي.

قدّمتُ لـه شـراب الشـوكولتة السـاخنة، بينمـا سـكبتُ لنفسـي عصيراً مثلّجاً من الأناناس، وجلسنا لنتحدث، وسار الحـديث دون أي تحضيرات مسبقة.

قلتُ: لقد تأخرتَ في الحضور.

قال: هل فكّرتِ في الأمر؟

قلتُ: فكّرتُ، ولكنني لم أصل إلى الجواب بعد.

ابتسم وقال: لقد تأخرتُ في الحضور وليس لديك الجواب بعد!

تنهّدتُ، لا أريد أن أكذب عليه كما لا أريد أن أخسره، علـيّ أن

أحافظ على الخيط بيننا دون أن ينقطع، قلتُ: بصراحة، أجد صعوبة في إقناع أخي.

اقتضب جبينه وسأل: وما بال أخيك؟

قلتُ: يبدو أنه يظن أنني لا أستطيع أن أنتمي إلى طبقة نبيلة.

ابتسم بارتياح، وشرب رشفة صغيرة من شرابه ثم نظر إليّ وقال: والدتي أيضاً تجد صعوبة في زواجي من فتاة ليست من عائلة نبيلة.

إنه صريح جداً، إذا ما كانت والدته ضدّ الزواج فلماذا يفعل كل هذا؟

تابع قائلاً: ولكنني أعلم أنها إذا ما رأتكِ ستغير رأيها.

قلتُ: إذن إنها ليست معارضة بشدة.

فكر قليلاً ثم قال: بلى، ولكن... أنا من يتزوج وليس هي.

قال هذه الجملة بعيون حادة، فهمتُ منها أنه يعني أحمد أيضاً بشكل غير مباشر، لستُ أدري كيف هي علاقة معتز بأمه، ولكنني وأحمد تربطنا أخوّة قويّة، لا أظن أنني أستطيع إقناعه بسهولة.

قلتُ: الوضع مختلف قليلاً هنا، فإذا ما كنتُ سأتزوج فإن أخي أحمد هو من سيزوجني في المحكمة، ولن يصلح ذلك دون موافقته.

نظر معتز إليّ بعيون جادّة وقال: هالة... أنت لديك والد.

سرحتُ في البعيد، والدي ما يزال على قيد الحياة، ولكنني لم

أره منذ سنين، ولا أعرف شيئاً عنه، كما أنني هربتُ من المنزل، ولا أريد منه أن يجدنا، ربما يعرف معتز أن لي والداً ولكنه لا يعرف طبيعة العلاقة بيننا.

تنهّدتُ وقلتُ: حسناً، هذا ما لا تعرفه، وسأكون صريحة معك لتقرر أخيراً إذا ما كنتُ مناسبة لك، الحقيقة أنني وأخي هربنا من المنزل مذ كنا في الثانية عشرة، كان والدي ينوي أن يزوجني لعجوز مقابل المال، ومنذ ذلك الوقت وأنا لا أعرف شيئاً عن أبي.

قال بثقة: وماذا إذا ما أحضرتُ تفويضاً موقعاً منه للمحكمة؟

سرحتُ فيما يقول، إنه جاد بطريقة عجيبة، ألا يهمّه ما قلتُ قبل لحظات؟ يُحضر تفويضاً من والدي، هل يعلم من هو؟ هل يعلم أين هو؟ أنا نفسي بتّ أشكّ أنني سأعرفه إذا ما رأيته.

ابتسم معتز وقال: هل تظنين أنك الوحيدة التي تعرف عن الآخرين.

كلا، هذا أمر مختلف، كل ما أعرفه عن الناس هو تذكر وجوههم في أماكن رأيتهم فيها من قبل، ولكنني أكيدة أن معتزاً لا يعرف والدي، فكيف له أن يصل إليه؟

قال معتز وكأنه يقرأ ما أفكر: لديّ طرقي الخاصة، ما رأيك؟

سألتُ: رأيي في ماذا؟

اقترب منّي وهمس لي بصوت جـاد: كـل مـا يهمـني أن تكـوني موافقة، وكل شيء آخر سيخضع لإرادتنا يا هالة، لا شـيء مسـتحيل، مثل هذا المتجر الذي كان في الخيال، يمكننا تحقيق كل شيء.

هل يُفترض أن تكون تلك الكلمات جميلة؟ لماذا لا أشـعر بـذلك؟ لماذا بدأ القلق ينتابني؟

تابع: هالة، كل ما يهمني أن نكون معاً، لا أريد شخصـاً آخـر، كل ما أريده هو أنتِ.

سرحتُ قليلاً ثم قلتُ: دعني أفكر في الأمر أكثر.

قال: ألم يحن الوقت لتقرري؟

قلتُ: هذا قرار مختلف الآن، أنت تريدني أن أوافـق حتـى وإن رفض الآخرون، وعليّ أن أفكر مليّاً في شيء كهذا.

عدّل جلسته على الكرسي، وتنهّد قائلاً: حسناً، لكِ ذلك.

ثم ابتسم وتابع: هذا يجعل الأمر أكثر متعة.

نهض عن الكرسي وقال: سأعود بعد غد، أحب أن أسمع أخباراً طيبة.

قلتُ: إن شاء الله.

غادر المتجر، غادره وباتت جلستنا تلك كالحلم، لستُ أدري ماذا يجري ولم أعد أميز الحقيقي من المزيف، هل حصل ذلك فعلاً؟ هل تحدّث إليّ هنا؟ هل سيعود مجدداً؟

بقيتُ جالسة، انتبهتُ أنني بقيتُ جالسة حتى غادر معتز، ولم أقف لوداعه، هل كان هذا تصرفاً سيئاً مني؟ هل اعتبرها وقاحة؟ هل سيفكر في عدم العودة بسبب ذلك؟ هل سيغير رأيه؟

رأسي يؤلمني، أريد أن يفكّر أحدهم عنّي، أحد ليس أحمد...

نظرتُ إلى فيوج، وأشرتُ له أن يجلس إليّ، ففعل بهدوء، قال: ماذا حدث؟

قلتُ: لقد كنتَ هنا.

قال: ولكنني لم أسمع الحديث، ولم أحاول التنصت.

قلتُ: ليتك فعلت، أريد نصيحة.

قال: في شأنه؟

فكّرتُ قليلاً ثم قلتُ: أريد منك أن تساعدني في إقناع أحمد، لن أكون سعيدة في الزواج دون رضاه.

قال: هذه خدمة وليستْ نصيحة.

قلتُ دون أن أبالي: اعتبرها ما تشاء، ولكن حاول أن تساعدني.

■ الفصل الثاني والعشرون | أحمد

إنه لا، لا يا هالة...

حملتْ هذه الجملة الصغيرة الكثير، ولكن ما لم أكن أعرفه أن هالة متعلقة بمعتز وتستميتُ للدفاع عنه، لماذا أشعر أنه أكثر من مجرد زبون في المتجر؟

خرجتُ إلى العمل دون أن أعلم إذا ما كانتْ هالة ما تزال في الغرفة أم أنها خرجتْ إلى العمل، كانتْ في العادة تخرج قبلي، ولكن باب غرفتها اليوم مغلق، وليس من الحكمة أن أطرق الباب بعد كل ما جرى في الأمس.

مرّ العمل بروتين ممل، كنتُ أفكر فيما جرى البارحة، وما أزال عند رأيي، لا أظن أنني أخطأتُ في حق هالة، ولا أذكر أنني قلتُ ما يجرحها، ستهدأ عما قريب، إنها عاقلة وأثق أنها ستقوم بكل ما هو صحيح.

أنهيتُ عملي في المطعم، ولدي ساعة قبل الذهاب إلى المخازن، هل أعود إلى المنزل؟

قررتُ الذهاب إلى المسجد، هناك صلّيتُ ركعتين أستخير فيها لزواج هالة، وأحمد الله على تيسير العبادات لنا، أذكر أننا مذ وطأنا

هذه البلاد لم نترك فرضاً إلا صلّيناه في موعده.

فتحتُ المصحف أقرأ فيه عندما جلس أحدهم إلى جانبي، نظرتُ فإذا به فيوج!

لم أره منذ مدة، تذكرتُ أنني كنتُ أبحث عنه لأمر ما! نعم كنتُ أبحث عنه من أجل القرض، هل ما يزال ذلك مهماً، ربما يشغل هالة عن التفكير بمعتز على الأقل، إنه دائماً يحضر في الوقت المناسب، ولكنني لاحظتُ أنه يملك ما يتحدث عنه.

بعد التحية السعيدة قال فيوج دون مقدمات: لقد بعثتني هالة إليك.

تفاجأتُ وقلتُ: هل رأيتَ هالة؟

أجاب: أنا أعمل معها في المتجر، وأراها كل يوم.

لم أكن أعرف ذلك، لماذا لم تخبرني؟ هذا خبر سار، وفيوج صديق حميم لي، وهو يعني الكثير لكلينا، هل باعدتنا الحياة إلى هذا الحد؟

قال: لن أطيل عليك، أنا هنا من أجل معتز.

لم يسألني فيوج شيئاً عن رأيي، يبدو أنه يعرفه مسبقاً، اقترب مني وقال بجدّية: اسمعني، لا تعاند هالة فهي ليستْ في موقف

لترفض مثل هذا العرض، فهو عرض لا يتكرر أكثر من مرة.

قلتُ: ولكنه ليس جيداً لها.

قال: هذا لا يكفي، يجب أن يخطئ أمامها.

سألتُ: كيف؟

قال: ادعه إلى الشقة، اطلب إليها أن يقابلك بشكل رسمي وأن يطلب يدها منك مباشرة، أليس هذا هو الواجب؟

قلتُ: وماذا بعد؟

قال: لن يحضر، إنه لا يدخل التجمعات السكنية الرخيصة، لابد أن الجميع هناك يكرهونه، سيخشى الحضور.

قلتُ: يبدو رأياً سديداً، ولكن ماذا إذا ما حضر؟

قال: إذا ما حضر وهذا مستبعد، فعليك استقباله واستضافته.

قلتُ: وهل سأقبل؟

قال: ليس لديك خيار آخر، فلنرجُ فقط ألا يحضر.

نهض فيوج ليغادر، ولكنه توقف عند الباب والتفت قائلاً: على فكرة، لقد غيّرتْ هالة المتجر الذي تعمل فيه، وهو الآن متجر... معتز.

متجر معتز! منذ متى؟ معلومة جديدة مهمّة، لم تذكر لي هالة

شيئاً عن ذلك، ولكن لماذا؟ يبدو من الواضح أن وضعها في المتجر الجديد بات أفضل، هل تشعر أن لمعتز الفضل في ذلك؟ إنها تعمل بجد!

لم تكن خياراتي كثيرة، وقررتُ أن أعمل بنصيحة فيوج، وأخبرتُ هالة أنني أريد أن أقابله، وعليه أن يطلبها رسمياً مني في المنزل.

كان ذلك منطقياً، رغم ذلك شعرتْ هالة بحيلة ما أدبّرها، طلبتْ إليّ ألا أهينه أو أضغط عليه إذا ما حضر، فوعدتها أنني سأعامله باحترام.

وفي زيارته التالية للمتجر أخبرَتْه هالة بطلبي، لم يبدُ عليه الارتياح لذلك، ولكنه سأل: في أي يوم؟

هذا كان رده الوحيد، حتى أنه لم يسأل عن العنوان على الإطلاق، لقد درس درسه جيداً قبل أن يخطو خطواته تلك، وحضر اليوم المنتظر، وارتدتْ هالة أجمل الثياب لاستقباله بينما كنتُ أدعو الله ألا يحضر من كل قلبي.

موعدنا في السابعة، وقد جهّزتْ هالة كعكاً وعصيراً من أفضل الأنواع، ووضعتها في أجمل الأطباق التي يبدو أنها اشترتها حديثاً لهذه الزيارة بالذات، وغيّرتْ من ترتيب الصالة، ومسحتْ الأرضية

والزجاج، وبات المنزل مختلفاً عمّا كان.

تخيّلتُ كم ستكون خيبة أملها إن لم يحضر، أرجو فعلاً ألا يكون شخصاً تافهاً يتلاعب في الناس، وفي الوقت نفسه ما زلتُ أدعو الله ألا يحضر.

الساعة السادسة إلا خمس دقائق، جلستْ هالة إلى النافذة تراقب السيارات، بينما ارتديتُ ثيابي ووضعتُ عطراً لاستقباله، ويبدو أنني بتّ مثل هالة، أنتظره.

الساعة السابعة تماماً، وقفتُ إلى جانب هالة عند النافذة أراقب السيارات، لا تحضر، أرجوك ألا تحضر، اختلق أي عذر في الصباح وسأفعل الشيء نفسه، كيف تدخل إلى عمارة قديمة فقيرة، هذا ليس من مقامك، أنت تعلم أنني أحاول إحراجك، أحاول التضييق عليك، أحاول إبعادك عن هالة، فلا تكابر أرجوك.

وقفتْ هالة، هناك سيارة باهظة الثمن تقف أمام العمارة، سيّارة عريضة سوداء اللون، تلمع وكأنها خرجت اليوم من شركتها، نزل سائق السيارة، وفتح الباب الخلفي ليخرج منه معتز الذي أراه لأول مرة.

شاب طويل وسيم أشقر، يربط شعره، ويرتدي بذلة بنية اللون،

تبدو باهظة الثمن حتى إذا نظرت إليها من مكـان بعيـد، أغلـق البـاب وعدّل وِقفته وثيابه، ثم اتجه إلى الباب الخلفي مـن الجهـة الثانيـة في السيارة، فتحها بنفسه، وخرجتْ منه سيدة تقـارب السـتين، ترتـدي فستاناً أخضر وقبعة بيضاء، شعرها ناعم كستنائي اللون، أمسك معتـز يدها لتسير إلى داخل العمارة، بينما وافاهما السائق بباقة من الورود.

لوهلة نسيتُ أنهم داخلـون إلى هنـا، ولم أسـتوعب الأمـر إلى أن نطقتْ هالة بارتباك شديد: يا إلهي! هذه والدته!

الآن عرفتُ فقط أنه قد فاز.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والعشرون | هالة

أمي... ليتك كنتِ هنا.

إنني أراها للمرة الأولى، سيدة راقية، ترتدي أفخم الثياب، وتسير بقامة منتصبة، وخطوات ثابتة، فستانها الأخضر يوحي بشيء من الهدوء رغم التفاصيل الصغيرة في كل زاوية منه، وقبعتها وقفازاتها البيضاء تكسر اللون الأخضر بشكل لطيف، أما هي فلم يلعب الدهر كثيراً بتفاصيلها، أستطيع تخيلها عندما كانت في العشرين، فتاة جميلة ذات شعر ناعم وابتسامة جميلة، وعيون حادّة.

يا إلهي، لستُ أصدق أنها تحضر إلى هنا، لستُ أصدق أنه قد حضر وفوق ذلك يريدها أن تقابلني هنا، في منزلي، في شقتي المتواضعة، ماذا أفعل؟ ماذا أقول؟

كنتُ مندهشة، ولكن ليس بالقدر الذي أدهش فيه معتز أحمد، هناك شيء يفكر فيه بحذر، لقد بات الأمر جدياً، وها هي الزيارة الرسمية، لم نعد أطفالاً يا أحمد.

دخلتُ المطبخ بينما فتح أحمد الباب لهما، سلّم معتز على أحمد وقدّم نفسه، بينما لم تفعل أمه، بل ظلّتْ تنظر يميناً وشمالاً إلى أثاث المنزل.

أدخلهما أحمد، وأجلسهما في الصالة، وقدّم معتز لأحمد هدية رسمية للزيارة، كانت حلوى فاخرة من متجر معروف، كما ناول السائق باقة الورود لأحمد وعاد إلى سيارته ينتظرهما فيها.

اعتذر أحمد لبساطة المكان، ولكن معتز قال: لا عليك، إنه بسيط وجميل.

ولكن أمّه لم تعلّق.

كان من الواضح أنها قد حضرت مرغمة، وأنها ربما تدخل شقة للمرة الأولى في الحياة.

عندما أفكر في الأمر، أنا لا أعرف منزل معتز، لابد أنه يعيش في قصر ألف ليلة وليلة، زيارة شقة صغيرة ربما تعتبر مغامرة تستحق الكتابة، إنهم يعيشون في عالم مختلف.

كانت الجِلسة مشحونة، كانت الأم ما تزال تتفحص المنزل، بينما كان حديث سطحي يدور بين أحمد ومعتز، ولا يبدو أن أحدهم يفهم الآخر.

حضّرتُ العصير، ودخلتُ المجلس، فانقطع حديث معتز وأحمد فوراً، وركّزتْ الأم نظراتها فيّ، لم تكن نظرات مريحة ولكنني لم أتخيل أقل من ذلك، قدّمتُ لها العصير أولاً، أخذته دون أن تحرّك

عينها عنّي، عندها نهض معتز وقال: أمي، هذه هالة، هالة، هذه أمي السيدة ناهد أكرم.

ناهد أكرم، لقد سمعتُ هذا الاسم من قبل، نظرتُ إلى ثيابها ثانية، لون أخضر ممزوج ببعض البياض، قلتُ: السيدة ناهد أكرم مؤلفة كتاب الألوان في حياتنا؟

ابتهج معتز بهذه الملاحظة، بينما تفاجأت الأم، قالت: هذا صحيح.

قلتُ: الأخضر... لون هادئ وغالباً ما يتراجع خلف الألوان الأخرى، إذا ما امتزج فإنه يفضل الأبيض، تصنع الثياب الخضراء للمناسبات العائلية، والزيارات الاجتماعية غير المتكلّفة، تحلو معه الإكسسوارات الذهبية، وتضفي له أناقة وبهاء، إنه لون يُشعر الآخرين بالراحة، ليس هجومياً ولا دفاعياً، إنه لون الصداقة.

انبهرتْ الأم، فقد كان هذا مقطعاً كاملاً من كتابها الخاص، وكان معتز أشد انبهاراً منها، وقد نظر إلى أمه وقال بابتسامة: أنا لم أخبرها شيئاً عن الكتاب.

لديّ مقدرة على تذكر الصفحات، لديّ ذاكرة صورية قوية، مذ استقرينا في هذه المدينة بتّ أتردد على المكتبة العامة، وأطالع الكتب

المتنوعة، وكنتُ غالباً ما أحفظها بشكل سريع، ساعدتني هذه الذاكرة مراراً، في تذكر الوجوه، الطرق، الكتابة، لطالما كانت ذاكرتي أقوى سلاح لدي.

أخيراً قالت الأم: هذا جميل، ولِم ترتدين الوردي إذن؟

كان هذا أفضل ثوب لدي، لم أستخدمه إلا في مناسبة واحدة حيث كان المتجر الذي كنتُ أعمل فيه في موسم أعياد، وقد قامت حفلة صغيرة هناك، وقد كنتُ ضيفة فيها على غير المعتاد، احترتُ طويلاً ماذا ألبس، وفي النهاية اشتريتُ هذا الثوب.

إنه بسيط وجميل، وردي اللون، بقميص فضيّ قصير، وشال من نفس القماش المقلّم، أمّا لماذا أرتدي الوردي، الجواب ببساطة أنه أفضل ثوب لديّ.

أجبتُ وقد تذكرتُ المقطع المخصص للون الوردي في الكتاب: الوردي... لون مسالم، يعبّر عن التفاؤل، وغالباً ما يلبسه صاحبه وهو يتوقع الأفضل...

توقفتُ حيث بدأتُ أشعر بشيء من الخجل مما أقول، هل من المناسب قول ذلك في هذا الموقف؟ هل سألتني لتحرجني؟

قدّمتُ العصير لمعتز، ثم إلى أحمد، وجلستُ معهم في المجلس

وقد بدأتُ أشعر بتوتر، أمه ليستْ بسيطة، وهي لا تحبني.

لم يطل الحـديث، وحـاول معتـز أن يختصـر الزيـارة مـن أجـل الجميع، نظر إلى أحمـد وقـال بصـراحة: أحمـد، يسـعدني أن أخطـب أختك هالة، إنها فتاة مميزة، وأسـتطيع أن أقسـم أنهـا الوحيـدة الـتي استطاعتْ اختراق قلبي والوصول إلى أعماقي، سـتعيش حيـاة كريمـة، وأعد أن أحداً لن يمسّـها بسـوء، سـتكون في عنـايتي الخاصـة، زوجـة وشريكة الحياة مدى الدهر.

خفق قلبي سريعاً بسماع تلك الكلمات، شعرتُ بسعادة وغبطـة، إنني محظوظة، ولكن في الوقت نفسه كان قلبي يخفق بالخوف، ها هو أحمد يجلس هنا وعليه أن يجيب، لقد حضروا يا أحمد من أجلي، لقد انصاعوا لطلبك، لقد فعلوا كل مـا يتوجـب علـيهم، عاملـهم بالمثـل يـا أحمد، أرجوك.

أطرق أحمد قليلاً، بدأتُ أشعر بتوتر، أحوّل نظـري بـين أحمـد ومعتز، ماذا يحدث؟ لستُ أدري كـم مـن الوقـت قـد مضـى إلى أن قـال أحمد أخيراً: أنـا شـاكر جـداً لزيارتكمـا، وقـد سـرّني جـداً التعـرّف عليك، وأقدّر حضور السيدة أيضاً، وهذه أختي الوحيدة، أطلب إليكمـا تفهّم القلق والخوف عليها من ناحيتي.

بلعتُ ريقي، بينما أشار معتز بالإيجاب لما يقول منتظراً الجملة التالية، ولكن أحمد قال: لا أريد أن أُثقل عليكما، ولكنني أحتاج مهلة للتفكير في الأمر.

شعرتُ بحرارة انفجرتْ في الغرفة فجأة، مهلة أيضاً! تفكير! إلى متى يا أحمد؟ لقد مضى وقتٌ طويل وأنت تفكر وتسأل وتبحث، ألا يكفيك ذلك؟ حتى بعد أن حضرا بصورة رسمية يظنان أن الأمور ستنتهي هنا، تريد أن ينتظرا أيضاً! إلى متى يستطيع معتز أن ينتظر، أو... أهذا أسلوبك لتقول أنك غير موافق.

ابتلع معتز جملة أحمد بصعوبة، وابتسم قائلاً: أنتما تفكران بشكل بطيء جداً.

ثم نهض قائلاً: سرّني التعرّف عليك.

مدّ يده وصافح أحمد، ونهضتْ أمه دون أن تقول شيئاً، ودون أن تسلّم على أحد، وغادرا المكان.

لستُ أصدق عيني، إنهما يغادران ولا أستطيع أن أقول شيئاً، أريد أن أستوقفهما ولكنني لا أستطيع، أريد أن أصرخ ولكنني لا أستطيع، أريد أن أضرب أحمد ولكنني... لا أستطيع.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والعشرون | أحمد

لا أريد أن أُهزم، ليس بأسلوب كهذا، حتى وإن أحضرتَ أمك، حتى وإن نزلتَ تحت رغبتي الخاصة، حتى وإن حاصرتني من جميع الاتجاهات، لا أريد أن أُهزم.

أردتُ فعلاً قول ذلك، وبدلاً منه طلبتُ مُهلة جديدة لأفكر في الأمر، أظن أنه ذكي ليفهم أن الجواب هو "لا" بأسلوب مهذّب.

لم تكن المشكلة مع معتز، فهو شخص يظهر مرة في الحياة وقد لا أراه ثانية، ولكن مشكلتي كانت مع هالة.

غادرا الشقة، وركبا السيارة وابتعدا، وما تزال هالة تقف أمام النافذة دون حراك، تقف دون أن تصدق ما جرى، دون أن تعرف ما تقول أو تفعل. هل أتركها على حالها أم أن علينا الحديث في الأمر، هل أؤجل ذلك؟ لابد أنها ستصرخ وتبكي، هل أتركها تفعل ذلك وحدها أم أكون الجدار الذي تنفجر عليه؟

لا ألومها على ذلك، ولكنني لا أرى ما تحب فيه، شاب مغرور مع أم متعجرفة، لا توجد حياة سعيدة بينهما، ماذا قال لها؟ ماذا فعل لها؟ هالة أعقل من أن لا تلاحظ.

ابتعدا عن مرأى البصر، وجثتْ هالة على ركبتها وقالت: لن يعودا.

بدأتْ الدموع تنهمر من عينها ببطء وهي تردد: لن يعودا أبداً.

اقتربتُ من هالة بحذر، أعرف أنها قد تنفجر في أي لحظة، والسبب في ذلك هو أنا، أنا وحدي، وقفتُ وراءها وقلتُ: لماذا تبكين؟

لم تنظر إليّ، فقط خبّأتْ رأسها بين ذراعيها وتابعتْ البكاء، كان هذا أقسى من أن تصرخ عليّ، لا أحب رؤية دموع هالة، خاصة أنني عاجز عن مساعدتها، لا بل أنا السبب فيها.

قلتُ: أنتِ بحاجة إلى قسط من الراحة، اهدئي وفكري في الأمر.

أخيراً انفجرتْ، قالتْ في حنق شديد: فكّري فكّري فكّري... أنت فعلاً تحتاج إلى وقتٍ طويل للتفكير، لماذا أنت هكذا؟

سأحاول التركيز على أن ما تقوله هالة الآن هي ساعة غضب ولن تعني ما تقول، ولكن هل سأقدر على ذلك؟

تابعتْ: ستظلّ على حالك هكذا، تأكل وتنام، لا تستطيع حتى أن تتخيل أن هناك أناساً يعيشون حياة مختلفة. وماذا في ذلك؟ ما المشكلة في أن يملك الناس المال؟ هل هي جريمة؟ هل هذا عيب؟ لستُ أفهم كيف تفكر، هل تغار منهم؟ هل كنتَ ستقبل مثل هذا التصرف إذا ما كنتَ مكانهم؟ ألا تعلم أن ردّك كان فظّاً؟ كان من المفترض أن تسير الأمور بسهولة، لماذا تعقد الأمور؟

ركضتْ هالة إلى غرفتها وأغلقتْ الباب وراءها، بتّ معتاداً على ذلك، وهذا أسوأ من أن أفاجأ، فقد بات جو الكآبة يلف المنزل معظم الوقت.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والعشرون | هالة

أمي... لماذا يفعل أحمد بي ذلك؟

أمي... كم أريدك إلى جانبي، أنا بحاجة إليكِ.

نهضتُ من الفراش مبكراً واتجهتُ إلى المتجر على الفور، أريد أن أعمل، أن أعمل وأعمل وأعمل، لعلّي أتوقف عن التفكير ولو للحظة.

جهّزتُ الكثير من الحلويات والكعك بأشكال جديدة، وحضّرتُ خلطة لم أستعملها من قبل، أراحني هذا قليلاً فقد كان طعمها لذيذاً ومظهرها شهّياً.

حضر فيوج أخيراً بعد ساعتين، فوجد المتجر نظيفاً، والكعك معدّاً، وهو جاهز لاستقبال الزبائن، دخل مسروراً وقال: أعطاك الله العافية، هل جهّزتِ كل ذلك بنفسك؟

ابتسمتُ وقد كانت هذه أول مرة أبتسم فيها منذ الأمس: نعم، أفضل من التفكير.

اقترب فيوج وأزاح كرسيّاً لأجلس عليه، وجلس على الطرف الآخر من الطاولة يريد أن يسمع ما جرى، جلستُ وقد كنتُ أحبّ أن أفضي لأحد بما في صدري، قلتُ: لقد حضر معتز البارحة إلى منزلي، وجلب أمّه معه.

رأيتُ الدهشة واضحة على وجه فيوج، قال: أحضر والدته!

تابعتُ: أحضر والدته، ومع ذلك لم يوافق أحمد، بعد كل هذا غادرا دون جواب نهائي.

قال: دون جواب نهائي أم بالرفض التام.

قلتُ: دون جواب نهائي معناه الرفض التام يا فيوج، ولن يعودا أبداً.

سأل: هل تشاجرتما؟

ضحكتُ لسؤاله، وكانتْ ضحكتي غنية عن الجواب، في موقف كهذا لابد أننا تشاجرنا بعنف لم نعهده من قبل بيننا، حاولتُ أن أحبس دمعتي ولكنني لم أستطع، أمسكتُ منديلاً ورقياً أحاول أن أسبق الدمعة قبل أن تنهمر، ولكنها كانت واضحة، قال فيوج: لماذا كل هذا؟ معتز ليس الأول والأخير في هذه الدنيا يا هالة، إنه أول الخاطبين ولن يكون آخرهم، ثقي أن الكثير من الشبان الطيبين سيحضرون.

لستُ طفلة لتقول ذلك! ولكنني... أظن أنني أردته، أظن أنني انجذبتُ إليه بطريقة غريبة، في وقتٍ لم أكن أفكر فيه بالزواج حضر ليشعل ناراً لم أسع إليها، والآن لم أعد أدري ماذا أفعل.

لم أقل شيئاً من هذا لفيوج، رغم أنني كنتُ أتمنـى أن أنطـق بمـا أفكر، ولكنني أظن أن هذا هو حدّ العلاقة بـيني وبينـه، أمـي... أنـت الوحيدة التي كانت لتسمع مني هذا الكلام.

مسحتُ دموعي ثانية، بعد برهة أخرج فيـوج مـن جيبـه ورقـة قدّمها إليّ، إنها رسالة، سألته ما هذه فقال: أوصلها ساعي البريـد إلى المتجر، إنها لكِ.

أخذتُ المغلّف، هل هـي ورقـة رسميـة لسداد ديـن المتجـر؟ يـا إلهي! لم أفكر في الأمر على الإطـلاق، لابـد أنـه سيأخذ المتجـر، لقـد انتهى حلمي.

نظرتُ إلى الطابع، إنه ليس من هذه المدينة، هذا الطابع...

فتحتُ المظروف، قرأتُ أول سطرين: إلى ابنتي العزيـزة... هـذا والدي!

نظرتُ إلى فيوج الذي قال: لا علم لي بشيء مما فيهـا، اقرئيهـا بتأن.

نهض فيوج يتابع العمل، بينما قرأتُ الرسالة بتمعّن: إلى ابنتي العزيزة، وبعد،

أرجو الله أن تكوني بصحّة جيدة، وعِيشة هنيّة، أعلم أنـني قـد

قصّرتُ تجاهكما، ولكنني أرجو أن أكفّر عن ذلك ولو جزئيّاً.

سمعتُ بخطبة النبيل الشريف لكِ، فخفق قلبي سعادة وطرباً، كنتُ على ثقة أنك لا تستحقين أقل من ذلك، وها أنا أبارك لك الزواج، وأدعو الله أن يرزقك الذرّية الصالحة.

قد لا أستطيع حضور الزفاف، ولكنني بعثتُ بموافقتي وبكفالتي لقاضي المدينة التي تسكنينها، سيتكفّل بالأمور الرسمية، فاستخيري الله واستشيري قلبك.

والدك

■ ■ ■

■ الفصل السادس والعشرون | أحمد

بات العمل مملاً، والمنـزل مزعجاً، متـى ستنسـى هالـة معتـزاً وأهله؟ أعترف أنني كنتُ أريد طردهم بأي شكل، كنتُ أريده أن يفهـم أنني لم ولن أقبل بـه، أردتـه أن يشـعر ولـو لمـرة في حياتـه أن الحيـاة ليستْ مسخّرة له لتسير كيف يشاء، هنـاك أنـاس آخـرون يشـاطرونه الحياة، ولهم ما له فيها.

المشكلة هـي هالـة، لقـد جرحتهـا مـراراً، ولسـتُ أدري كيـف أسوّي الأمر معها. لم تقص لي الأحلام الوردية التي وعدها بها معتز، ولكنني أعلم أن أي فتاة ستضعف أمامه، إنه داهية.

يوماً ما ستعلم هالة أنني أفكر فيها كـثيراً، وأتمنـى لهـا حيـاة أفضل من حياتي، ونجاحاً باهراً ومستقبلاً واعداً، ولكن ليس هكـذا يـا هالة، ليس بهذه الطريقة.

لم نتحدث عن الموضوع لفترة، أظن أننا لم نتحدث عـن أي شـيء كذلك، هو صمتٌ قاتل خيّم على المنزل، أرجو أن تكون مسـألة وقـتٍ لا أكثر.

مللتُ السير في الطرقات، قررتُ أخيراً أن أتجه إلى قرية قريبـة أجلس فيها تحت الأشجار، لعلّي أهدأ قليلاً وأبتعـد عـن أجـواء المـدن

المزعجة، وكان لقراري أثراً إيجابياً، حيث شعرتُ باسترخاء سريع لحظة النظر إلى الحقول والبساتين والأشجار الجميلة، وشممتُ رائحة الورود، وسمعتُ خرير مياه النهر يسير بين المنازل الخشبية، هذه هي الحياة التي اعتدتُ عليها، هذه هي الحياة التي أحبها، منذ متى شغلتني المدينة عن الطبيعة.

الابتسامة لم تفارق الناس، لم يكونوا أغنياء ولكنهم سعداء، ليت هالة كانت معي لتشاهد هذا بعينها، ليتنا نملك أرضاً نزرعها هنا وننتقل من المدينة إلى الأبد.

سرتُ بمحاذاة النهر، وشاهدت دلال تجلس تحت شجرة توت، تستظل بظلّها وتحمل دفتراً تقرأ فيه، اقتربتُ منها، رغم أنها تلبس ثياباً جميلة نهدية اللون يخالطها اللون الفضي تبدو باهظة الثمن، إلا أنها لا تبدو غريبة هنا، إنها مسترخية وهادئة، كأنها تجلس هنا كل يوم.

وقفتُ إلى جانبها إلى أن انتبهتْ عليّ، ابتسمتْ عندما رأتني قائلة: أحمد! كيف وصلتَ إلى هنا؟

أجبتها: كنتُ أبحث عن مكان هادئ، وليس هناك أجمل من الطبيعة. هل تحضرين إلى هنا عادة؟

قالتْ: أجل، أحب هذا المكان، إنه مسالم، ألا تظن ذلك.

مسالم، إنه وصف غريب بعض الشيء، المدن ليستْ في حرب، بل ربما هي كذلك، كل متجر يعمل بسرعة وينافس المتاجر الأخرى، الناس كلهم في عجلة وكأن هناك من يلاحقهم، وصف كهذا من مؤلفة يعتبر وصفاً دقيقاً للغاية. نظرتُ إلى الدفتر في يدها وقلتُ: أهو كتاب جديد؟

ابتسمتْ قائلة: نعم، أظن أنه أغرب كتاب أكتبه.

سألتُها: لماذا؟

قالتْ: غالباً ما كنتُ أكتب عن الفقراء، وأحارب الطبقة الغنيّة بشكل غير مباشر، ولكن في هذا الكتاب أجد نفسي أتحدث على لسان ملك البلاد، وأصف أشياء لم أكن أتخيل أن أكتب عنها، بل هناك الكثير من الصفحات والأفكار التي أعيد النظر فيها.

نظرتُ إلى الدفتر، فإذا بالكثير من الفقرات شُطبتْ عن آخرها وأُعيدتْ كتابتها، يبدو أنه كتاب صعب التحرير، سألتُها: هل أستطيع أن أسأل عن ماهية الحكاية؟

أجابتْ: إنه عن حاكم ظالم، يعيد النظر في أسلوبه السابق بعد حادثة مميزة فتحت عينه على الحقائق، ويسرد الكتاب شخصيات

كبيرة يكشف عن أساليبهم الخبيثة في السرقة والظلم.

سألتُها: هل تذكرين الأشخاص بأسمائها الحقيقية؟

أجابتْ: لم أفعل ذلك في حياتي، وإذا ما أردتُ أن أنشر كتاباً فعليّ أن أكون حذرة في هذا الشأن، لا يجب أن تكون الأسماء شبيهة بالواقع.

هل تستطيع دلال أن تساعدني في شأن معتز؟ إنها أول نبيل أسأله، ربما يستحق الأمر المحاولة، ولكن ألم ينتهي الأمر كليّاً؟ لماذا أعاود الدوران حول الموضوع؟ هل أشعر أنني أخطأتُ؟

قررتُ أن أسألها، لعلّي أريح ضميري: دلال، هل لي أن أسألك عن شخص معين؟

سألتْ: من يكون؟

قلتُ: نبيل يدعى معتز، هل تعرفينه؟

نظرتْ إليّ بعيون جامدة وقالتْ: معتز قاسم؟

قلتُ: بالضبط، كيف هو؟ هل هو شخص مستقيم أم أنه مراوغ طول الوقت؟

فكّرتْ قبل أن تجيب، ويبدو أنها تتوخى الحذر الشديد: لماذا تسأل عنه؟

بما أنها كانت حذرة فعليّ أن أكون كذلك: أنا أعمل في مخزن له، أحب أن أعرف عنه.

فكّرتْ ثانية ثم قالتْ: إنه طموح وذكي، شخص قويّ الإرادة جداً، لا أذكر أنه اتخذ قراراً ولم يستمتْ لتنفيذه، كما لا أذكر أنه فشل في أي شيء مما يفعل.

سألتُها بوضوح أكثر: هل هو إنسان شريف؟ هل يكسب المال المشروع؟

نظرتْ إليّ بعيون قلقة، إنها تشكّ في غايتي من السؤال، قلتُ مستدركاً الأمر بسرعة: لا أحب أن أعمل لدى لص، أشعر أنني أساعده على السرقة.

قالتْ: لا أظنه لصاً، إنه فقط عنيد وقوي الشخصية، يخشاه الجميع، هذا كل ما في الأمر.

سألتُها: هل لديه شعبية عند النبلاء؟

أجابتْ بسهولة أكبر: لا، ولكنه ثري وقوي، وهذا ما يهم.

تنهّدتُ، ويبدو أن الهمّ كان واضحاً على وجهي، ابتسمتْ وقالتْ: ظننتُ أن النقود هي أكبر همّ في الدنيا، ما بالك؟

أجبتُ: للفقراء همومهم الخاصة أيضاً، نحن بشر أيضاً.

قالتْ: لم أقصد الإهانة، ولكنني كنتُ أؤمن أن المال هو سبب الهموم.

قلتُ: ربما، بطريقة غير مباشرة أيضاً.

سألتْ: هل تحتاج المال؟

أجبتُ وقد كنتُ صادقاً: لا، لن يفيدني المال في شيء الآن.

سألتْ بطريقة مباشرة أكثر: هل تريد شيئاً من معتز؟

يبدو أنها قريبة منه جداً! حمداً لله أنني توخيتُ الحذر، قلتُ: لا أظن ذلك.

سألتْ: هل سيفيدك إذا ما زاد راتبك في العمل؟

إنها تعرفه جيداً ولا شك، ولكن هذا كان آخر ما أريد، أجبتُ: أبداً، لن يفيد ذلك في أي شيء.

يبدو أنها احتارتْ، فلم تستطع استنتاج أي شيء، ولم أُرد لها أن تصل إلى أي استنتاج، حاولتُ تغيير مسار الحديث وبدأتُ أسألها: لماذا تكتبين ما يزعج الطبقة الغنية؟

ابتسمتْ تقول: أنا لا أقصد أن أكتب ما يزعج الطبقة الغنية، أنا فقط أكتب ما يفعلون، وإذا ما كان هذا مزعجاً لهم فليتوقفوا عما يفعلون.

قلتُ: أنتِ لا تشعرين بالانتماء إليهم.

قالتْ: أن تولد في بيئة معينة لا يعني أنك توافق على كل ما يفعلون، عليك أن تفكر في هذا الدنيا.

قلتُ: أوتفضلين أن تكوني فقيرة؟

قالتْ بسرعة: لا، ولكن لا أحب أساليب الطبقة الغنية في النظر إلى الأشياء، أتمنى أن يبقوا أغنياء بأفكار مختلفة.

أغنياء بأفكار مختلفة، عدتُ إلى ما أفكر فيه رغماً عني، عبثاً كنتُ أحاول تغيير الموضع، سألتُ: ومعتز ليس بأفكار مختلفة.

بعد أن رأيتُ النظرة المختلفة في عيون دلال أدركتُ أن أسئلتي تقف هنا، نهضتْ وقالتْ: هذا آخر جواب أجيبه عن معتز، فأنت ترفض أن تفصح لي حتى عن سبب أسئلتك المتكررة.

حاولتُ الاعتذار بسرعة ولكنها استوقفتني وقالتْ: لا، الجواب هو لا.

أغلقتْ دفترها لتغادر، حاولتُ الاعتذار على تعكير صفوها في عزلتها الخاصة ولكنها تجاهلتني وغادرتْ.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والعشرون | هالة

أمي... ليتها كانت رسالة منكِ.

أمي... هل ما يزال والدي يفكر بي؟

أمي... هل من الحكمة أن آخذ بما يقوله والدي الذي تركنا منذ زمن بعيد، وأترك ما يقوله أحمد الذي اعتنى بي كل هذه السنين؟

أمي... لم أستطع ترك الرسالة من يدي، ربما كان الأمل الأخير الذي أتمسك به، أو ربما يكون الخوف من أن يقرأ أحدهم ما جاء فيها.

أشعر بتناقض في كل ما يجري، لستُ أعرف الصواب، وهل هناك صواب أساساً، أليس الخيار لي؟

لقد كتب لي والدي أن أستشير قلبي، وأنا أعلم بما يشير عليّ، ولكن هل هذا كافٍ؟

خبّأتُ الرسالة عن أحمد جيداً، ووضعتها في مكان لا يصل إليه أبداً، ولكن لماذا أخبئها؟ لماذا أخشى أن يجدها؟

أشعر بصداع، وضعتُ رأسي على الوسادة ولكنني لم أنم دقيقة واحدة، أشعر بضياع، معتز... أما زلتَ تريدني؟

طرق أحمد باب غرفتي في الصباح، لم أجبه ولكنه قال: هالة...

لنتناول الإفطار سوياً.

لم أُجب، طرق الباب مجدداً وقال: آسف لما جرى، ولكن الوضع لن يظل هكذا إلى الأبد، هيا نفطر سوياً كما كنا نفعل دائماً.

نعم، كنا نفعل ذلك دائماً، وكانت أياماً جميلة، ولكنك لستَ من يقرر متى نعود إلى تلك الأيام، أنت المخطئ، وقد كنتَ أول من غيّر ذاك الروتين الجميل، الذنب ليس ذنبي.

طرق ثالثة ولكنني بقيتُ صامتة، حاول أن يفتح الباب ولكنه كان مغلقاً، هكذا بات باب غرفتي مغلقاً في وجهه معظم الوقت، لا أذكر آخر مرة دخل فيها أحمد غرفتي، ولا أظن أن اليوم الذي سيدخلها فيه قريب.

يئس أخيراً، وسمعتُه يغادر المنزل، يبدو أنه لم يتناول إفطاره أيضاً، نهضتُ حتى لا أتأخر عن العمل، فتحتُ باب غرفتي، فرأيتُ الإفطار معدّاً على الطاولة، خبز محمّر وحمّص ومتبّل، ومربّى بطعم الأناناس وزبدة، إضافة إلى إبريق الشاي الساخن، كان المنظر شهياً، لقد أعدّه أحمد بنفسه، ولكنني ما زلتُ على عنادي وقررتُ ألا أتناول لقمة واحدة منه، جهّزتُ حقيبتي، واستحممتُ وغادرتُ إلى العمل، وتناولتُ فطيرة هناك.

كان العمل يسير على ما يرام، ولكنني بتّ قلقة من أن يطالبني معتز بالمتجر في أي لحظة، نظر فيوج إليّ وقال: أما زلتِ تفكرين؟

تنهدتُ وقلتُ: هذه المرة أفكر في المتجر، أخشى أن أفقده.

قال فيوج مؤكداً: لن تفقديه، لا تقلقي.

سألتُه: كيف تقول ذلك بكل ثقة؟ فبعد ما حدث عليه أن يتخلّى عني، وهذا أقل ما يمكن أن يفعل.

نظر إليّ فيوج وسألني بصراحة: المتجر ليس السبب الذي يجعلك توافقين على معتز زوجاً أليس كذلك؟

أجبتُ: بالطبع لا، ولكنني الآن بتّ أخشى على المتجر، لقد تعلّقتُ به جداً، إنه متجري.

لم يُجب فيوج، فهدأتُ وقلتُ: لقد تسرّعتُ في قبول المتجر أليس كذلك؟

قال: كان عليكِ أن تعلمي أن لكل شيء مقابلاً.

تنهّدتُ، تذكرتُ أنني كنتُ أسأل وقتها ماذا كان يريد معتز من فتاة مثلي لا تملك عُشر ما يملك، الآن فقط أعلم أنني أملك كل ما يريد، يبدو أن فيوج كان يعرف الإجابة مسبقاً ولكنه خجل من ذكرها صراحة.

قاطع فيوج أفكاري عندما قال: هالة... أظن أنه سيعود.

سألتُ: من؟

لم يُجب، فعلمتُ أنه يقصد معتزاً، ابتسمتُ وقلتُ: أنت لم تكن معنا عندما حضر إلى المنزل، لن يعود بكل تأكيد.

أشار بالنفي وقال: لستُ مضطراً لأن أكون هناك، سيعود يا هالة، وعليك أن تعلمي ما ستقولين.

سألتُه: وماذا سأقول؟ لقد أنهى أحمد الموضوع بكل بساطة.

تذكرتُ رسالة والدي فجأة، وقال فيوج: كل ما أعرفه يا هالة أن هذا النوع من الرجال لا يحب أن يخسر.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والعشرون | أحمد

لستُ أعرف المتجر الجديد الذي تعمل فيه هالـة، أريـد أن أمـرّ عليها ولو للحظة، أريد أن أراها، أريـد أن أطمـئن عليهـا، ولكـن أيـن أذهب؟

لدي ساعة واحدة بين الـدوامين، سـرتُ فيهـا في السـوق، لـيس بحثاً عن متجر هالة، بل هرباً من المنزل الفارغ والمطعم الصاخب.

وصـلتُ وسـط السـوق، إلى أشـهر بقعـة تجاريـة فيـه، لابـد أن المتاجر هنا تعمـل أضـعاف المتـاجر الأخـرى، سـرتُ إلى أن اسـتوقفني متجر للحلويات على زاوية الطريق، إنه كبير وجميل، ولكـنني أكيـد أن ما تخبزه هالة ألذ طعماً من أي متجر آخر.

كان زجاج المتجر شفافاً، وقد لمحتُ فيوج في الداخل، إنه يناول زبوناً علبة قد اشتراها للتو.

تـذكرتُ أنـه أخبرنـي أنـه يعمـل مـع هالـة في المتجـر نفسـه، استرقتُ النظر أكثر فإذا بها هالة تجهز عصيراً مثلجاً، ودون أن أشعر ابتعدتُ بسرعة قبل أن تراني.



لماذا فعلتُ ذلك؟ أنا لم أرها منذ الصباح وقد كنتُ أبحث عنها، فلماذا أهرب الآن؟ لماذا لا أريدها أن تراني؟ ألن يسعدها ذلك؟

ربما ليس الآن، أظن أنني لا أريدها أن تنشغل عن العمل في أمور أخرى، فقد رأيتُ في عينيها الرضا بالعمل الجديد، والسعادة في هذا المتجر أكثر من المنزل، أريدها سعيدة حتى ولو لم أكن سبب سعادتها، أريدها راضية حتى ولم لم يكن لي شأن في ذلك، ولكن ألم تكن تريد معتزاً، ألم أقف عائقاً في سعادتها؟

لا يا أحمد، أنت تفكر في سعادتها، وأنت واثق أنها لن تكون سعيدة هناك بين حيتان المدينة، ولكنها لا تعلم ذلك.

ابتعدتُ عن المكان، واتجهتُ إلى المخازن، وبقيتُ هناك إلى منتصف الليل، لا أحب هذا العمل ولكنني بدأتُ أعتاد عليه، هذه مخازن معتز، ألا يعلم أنني أعمل لديه؟ ألا يستطيع أن يطردني من العمل بسبب ما فعلتُ؟ ربما لا يعرف موظفيه على الإطلاق.

أنهيتُ الدوام المسائي، وغادرتُ في الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل أتجه إلى المنزل، وكعادة الطرق كانت فارغة ومظلمة، ولكن نادراً ما كنتُ ألحظ مشكلة في المدينة، فقد كان يغلب عليها الأمان، إلى هذه الليلة كان كل شيء مسالماً، ولكنني اليوم شاهدتُ منظراً مفاجئاً جداً.

على بعد عشرين متراً، وعلى زاوية الطريق، كان هناك رجل في الأربعين من العمر، يسير وحده بهدوء، يبدو أنه متجه إلى منزله، وفي لحظة خاطفة ركض إليه أحدهم، وطعن رقبته بسكين وغادر مسرعاً تاركاً الرجل يهوي إلى الأرض دون حراك.

كان يلف وجهه بالقماش، ولكنني عرفتُ تلك العيون، إنه منسيّ! لماذا يفعل ذلك؟

لقد مات الرجل، وركضتُ بأقصى سرعة أهـرب إلى المنـزل، كـم كان ذلك جبناً مني، ولكنني لم أستطع التفكير في شيء آخـر، خشـيتُ أن يتـهمني أحدهم بالقتل، لا أريد أن أقع في المشاكل، ألقيـتُ بجسـدي تحت اللحاف، وشعرتُ بجسدي يرتجف بشدة، يالها من ليلة!

■ ■ ■

■ الفصل التاسع والعشرون | هالة

أمي، ها أنا ذا أعود إلى العمل، إنني أعمل بجد من أجل المتجر، هذا متجري ولا أريد أن أخسره.

ربما ساعدني معتز في الحصول عليه، ولكنني تعبتُ أيضاً في العمل إلى أن صار متجراً ناجحاً يدر المال الوفير.

أمي، بات هذا كل ما أملك، وسأفعل المستحيل للحفاظ عليه.

أثناء الانهماك في العمل اقتربت مني فتاة في العاشرة من العمر، حملتْ إليّ وردة حمراء تقدّمها لي، نظرتُ إليها باندهاش فكانت وجنتاها قد احمرّتا، سألتُها: هل هذه الوردة لي؟

أشارتْ بالإيجاب، فأخذتُ الوردة وشكرتها، فقالتْ: أردتُ أن أقدم الوردة إليك، وأخبرك أنني أريد أن أصبح مثلك عندما أكبر.

أدهشني ما سمعتُ، هذه الصغيرة تراقبني وتحب ما أفعل، ابتسمتُ لها وقدّمتُ لها كعكاً من النوع المميز، فرحتْ به جداً وخرجتْ مع والدتها من المتجر.

أحكمتُ قبضتي على الوردة، ثم ضممتُها إلى صدري، كم هو شعور جميل، بدأتْ عيناي تدمعان قليلاً، حمداً لله على كل شيء، لقد عملتُ جاهدة في هذا المتجر، لقد أخلصتُ عملي فيه، ولكن... ما إن

رأيتُ الوردة الحمراء حتى ظننتُها من معتز!

لم يمضِ وقتٌ طويل حتى سمعتُ أخباراً عن معتـز، فقـد حضـر سائقه الخاص يطلب إلينا صنع كعكة للغد احتفالاً بعيد مـيلاد سـيده، طبعاً خاب أملي عندما رأيـتُ السـائق يـدخل بـدلاً مـن معتـز، ولسـتُ أدري إذا ما كان معتز هو من طلـب الكعكـة مـن هـذا المتجـر بالـذات، ولكن السائق غادر وقد تركني في أفكار تلف رأسي بسرعة كبيرة، عليّ أن أحضر كعكة لعيد ميلاد معتز، كعكة خاصـة باهظـة الـثمن، شـيء مميز لم يشاهد مثله من قبل، غداً أستطيع أن أبرز من جديد، أن أكـون مميزة، أن أكسر حاجز الصمت.

تركتُ فيوج يعمل في الاسـتقبال بينمـا جلسـتُ وحـدي أفكـر في الكعكة، يجب أن تكون مميزة، يجب أن أبهر بها الجميع، ماذا علـيّ أن أصنع؟

رسمتُ مخططـات لعـدة أفكـار، مجـوهرات، سـيارة، حقيبـة، نظارة، قصر، حديقة، رسمتُ ورسمتُ، ليس من شيء جديد.

عليّ أن أضيف شيئاً خارجاً عـن المـألوف، ولـيس علـيّ أن أهـتم بالتكـاليف، فسـيدفع ثمـن أي كعكـة أصـنع، إذن علـيّ أن أفكـر في الإضافات، أنوار، ألحان، مفرقعات، لدي يوم واحد أفكّر فيه.

تأخرتُ في المتجر إلى الليل، وتركني فيوج وحدي، نظرتُ حولي فإذا بالمكان امتلأ بالأوراق تحمل مخططات مختلفة، لم تلق إحداها رضا مني، ليس منها ما يبهر الجميع، خاصة الطبقة الرفيعة.

نهضتُ عن الكرسي أشعر بالدوار، نظرتُ إلى الساعة فإذا بها الثانية بعد منتصف الليل، لدى أحمد دوام متأخر، لذلك لم يلحظ تأخري، ولكنني كنتُ تعبة جداً.

هل أعود الآن إلى المنزل؟ هل يكفي ما فعلتُ اليوم؟ هل لدي وقتٌ كافٍ في الغد؟ الحفل في المساء، لدي الوقت لصنع الكعكة، ولكنني لا أظن أن لدي الوقت للتفكير فيها.

أخيراً قررتُ أن أفكر فيها وأنا في طريقي إلى المنزل، حملتُ حقيبتي وجمّعتُ الأوراق المتناثرة لألقي بها، وأثناء ذلك ضربتْ ذراعي برف فسكب عنه عصير الفراولة، هرعتُ لأرفعه ولكن العصير سُكب معظمه من على الرف إلى الأرض، عمل جديد لم يكن في الحسبان في مثل هذا الوقت المتأخر! لا أبدو محظوظة اليوم.

أحضرتُ المنظّف لأمسح الأرض، فنظرتُ إلى الرف حيث تتساقط قطرات العصير، إنها تسقط، تسقط... أخيراً وجدتها!

■ ■ ■

■ الفصل الثلاثون | أحمد

مضى اليوم دون أن أرى هالة، وعدتُ إلى المنزل بعد عمل مسائي شاق، وكانت تغلق باب غرفتها.

نمتُ بسرعة واستيقظتُ للعمل الصباحي، ثانية كانت هالة تغلق باب الغرفة، لابد أنها قد خرجتْ، فقد تأخر الوقت.

ذهبتُ إلى المطعم وقد بدا الإرهاق واضحاً عليّ، لم تكن تلك المرة الأولى التي أتابع فيها الدوام بعد سهر الليل، ولكنني أظن أن تفكيري بهالة وغيابها الدائم عن حياتي كان السبب الأكبر في هذا التعب.

في المطعم دار حديث حول حادثة جرتْ في الطريق الليلة الماضية، أحدهم كان قد طعن رجلاً في الطريق، حذّرني الجميع من السير في الليل بعد الحراسة المسائية، ولكن عملي كان الحراسة، ولابد أن أتوقع الأسوأ.

ولكن شيئاً ما كان يخبرني أنني أعرف ما جرى، وأنني رأيتُ الحادث، ربما لأنني أعمل في الحراسة، ربما حلمتُ بشيء كهذا الليلة الماضية، لستُ أدري، ولكنني أعلم أنني استيقظتُ والعرق يتصبب من جبيني، هناك خطب ما، ولكنني لم أعرف ما هو.

أتممتُ العمل في المطعم، واتجهتُ إلى المخازن أحاول الحصول

على إجازة ليوم واحد، ولكن لم يكن هناك من يحرس بدلاً مني، فاضطررتُ للحراسة.

أظن أنني غفوتُ من حين لآخر، وهذا كان أمراً سيئاً للغاية، ولكن شيئاً لم يحدث أثناء الليل، واستلم المناوبة الحارس التالي، وعدتُ إلى المنزل وغفوتُ على الفور.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والثلاثون | هالة

أمي، لقد صنعتُ أجمل كعكة، ساعدني فيها فيوج، وقد قضينا وقتاً طويلاً إلى أن أتممناها.

أمي، بقي على فيوج أن يلف الكعكة بشكل جميل ومميز، بينما كان عليّ أن أقوم بعمل مهم جداً، فقبل الذهاب إلى الحفل عليّ أن أذهب لأبتاع ثوباً مناسباً ثم أذهب إلى مصففة أنيقة لأجهز نفسي للمناسبة الكبيرة.

أمي، اليوم هو يومي أنا، وسوف يرى الجميع من تكون هالة.

قضيتُ أربع ساعات عند المصففة، ألبستني فيها الثوب ورسمتْ المكياج، ولفّتْ الحجاب كما لو كان عرسي، الفارق الوحيد أن الثوب كان ذهبياً.

اليوم صرفتُ من النقود ما أدخره في ثلاثة شهور في العادة، ولكنني كنتُ أعتمد في سداد تلك النقود على الكعكة التي كنتُ أعلم أن معتزاً سيدفع أي مبلغ أقرره من أجلها.

حان الوقت، وحلّ المساء، واستأجرتُ سيّارة توصلني وفيوج إلى الحفل حاملين الكعكة على عربة فخمة، وصلنا بسرعة، وكان قلبي يدقّ بشدة، هذا منزل معتز، بل هذا قصره، كل شيء جميل هنا

كتحفة فنّية، النوافير موزعة في الباحة الكبيرة بين الأزهار، ونوافذ القصر تبرق حتى في الليل، لابد أنه أجمل من الداخل.

أنزل فيوج العربة، وكان قد لفّ الكعكة بقماش كما طلبتُ منه، فيوج نفسه كان قد استعد جيداً للحفل، ارتدى بذلة أنيقة، وصفف شعره، الآن فقط لاحظتُ أنه كان وسيماً جداً، وسيجلبُ الأنظار إليه أيضاً، ولكن وضعي مختلف، وهدفي واحد، وأنا الآن في كامل الاستعداد.

أخذتُ نفساً عميقاً، وخطوتُ خطوتي الأولى إلى الداخل، الحفل كان في الباحة، والجميع يتحلق حول المركز، لابد أن معتزاً هناك.

أوصلنا الحارس إلى الحفل، ورتّب الإجراءات لإيصال الكعكة إلى المنتصف، وسرتُ مع فيوج إلى حيث قادنا الحارس، وطلبنا إليه أن نوصل الكعكة بأنفسنا.

لمحتُ أمّه السيدة ناهد، تبدو في غاية السعادة وهي تشرب العصير مع المدعوين، ترتدي فستاناً بنيّ اللون، بشرائط فضية، وحذاء يلمع، أبعدتُ نظري عنها، لا يبدو معتز بالقرب منها، كل المدعوين من الأثرياء، يرتدون أجمل الثياب، ويتبادلون الأحاديث، وكأنني أدخل عرساً لمئة عروس وعريس.

ركّزي يا هالة، أنتِ أيضاً في أجمل حلّة اليوم، وليس هناك من هو أجمل منك، وليس هناك من هو أهم منك اليوم، أين هو؟ أين؟

نظرتُ إلى مدخل المنزل حيث الدرج والبوابة الضخمة، لقد كان هناك، يقف إلى جانبه رجل مرموق وامرأة جميلة، إنها تكبره في العمر، يبدو حديثاً عملياً، الآن فلتنظر إلى مفاجأتي.

أوقفنا الحارس في منتصف الحلقة، وأشار إلى الجميع بالانتباه لوصول الكعكة، نظر معتز إلينا، والتقتْ عينه في عيني، لم يُخفِ معالم الدهشة والانبهار، واعتذر إلى من كان يكلمهم، ونزل الدرج متجهاً نحوي.

سكتَ الجميع، أشعر أن جميع العيون تنظر إليّ، وأولها كان عين السيدة ناهد، توقف معتز على بعد متر واحد مني، وانحنى مرحباً بوجودنا في الحفل.

انحنيتُ له كما يفعل النبلاء، وقدّمتُ له الكعكة قائلة: عيد ميلاد سعيد للنبيل، هذه كعكة متواضعة من الأصناف التي تفضّل، أرجو أن تنال إعجابك.

رفع فيوج الغطاء عن الكعكة، سمعتُ صوت انبهار الجميع، ولكنني أحببتُ اللمعان في عيون معتز، كانت الكعكة مبنية على شكل

قصر كبير، بثلاث طوابق وشرفات، وحديقة خضراء مليئة بالأزهار، إضافة إلى نوافير موزعة في زوايا الحديقة والشرف تصب عصير الفراولة الذي يسير في مساره إلى أن ينزل من بوابة القصر إلى خندق يحوطه، كانت النوافير تعمل بالكهرباء، والخندق يدفع بالمياه إلى أعلى الشرفات من جديد، فتكتمل الدائرة، كما أن القصر مبني من حلوى القهوة، والأعمدة من الشوكولاتة الفاخرة، وجدران القصر مزينة بالمكسرات كحجارة دقيقة، كانت تحفة فنية سكتَ الجميع وهم يحدقون فيها.

أخيراً قلتُ لمعتز: أرجو أن تكون قد نالت إعجابك.

ابتسم معتز سعيداً وقال: هل يؤكل كل هذا؟

أشرتُ بالإيجاب وقلتُ: بكل تأكيد، أحب أن تجرب القطعة الأولى.

حمل فيوج السكين ليقطع قطعة لمعتز، عندها لاحظت معظم الحاضرين قد أخرجوا كاميراتهم وهواتفهم النقالة من الحقائب وبدأوا يصورون الكعكة قبل أن تُقطع، وكانت الابتسامة واسعة على وجه معتز، إنه سعيد جداً بما يجري.

قطع فيوج قطعة لمعتز، وضعها في طبق مزيّن، وقدّمتها بنفسي

إليه، تناول معتز قطعة وقال: إنها متقنة جداً، سلِمتْ يداك.

ثم أشار إلى الحارس أن يأخذ الكعكـة إلى المطـبخ ليـتم تقسـيمها بين المعزومين، وذهب فيوج معه ليشرف على الكعكة، بينما أشار إليّ معتز أن أسير معه في الحديقة.

تركنا جميع الحضور وسط دهشـة كـبيرة، بـين كعكـة لم يـروا مثلها في الحيـاة، وبـين فتـاة لا يعرفونهـا يتحـدث إليهـا معتـز علـى انفراد، شعرتُ بزهو لحظتها، إنني أفضل منهنّ جميعاً.

جلستُ إلى معتز على مقعد في الحديقـة، تحـيط المكـان النـوافير والأزهار الجميلة، حقيقة أن المنزل الحقيقـي كـان أجمـل مـن الكعكـة بكثير.

ضحك معتز وقال: لقد حضرتِ.

قلتُ: طلبتَ كعكة عيد ميلادك من متجري، كان عليّ أن أجهّـز الأفضل.

سأل: هل هذا كل شيء؟

صمتّ لحظة، ثم قلتُ: لا، لقد تغيّبتَ مدّة طويلة.

قال: انشغلتُ في العمل.

نظرتُ إليه وسألتُ: هل هذا هو السبب؟

فكّر قليلاً ثم قال: وأردتك أن تفكري وحدك.

أفكّر، لقد تعبتُ من التفكير، أحب هذا المكان، أحب أن أعـيش هنا، و... أحبّ هذا الشخص، وأحب أن أعيش معه.

قاطع أفكاري وقال: هل حدث مكروه لم أعلم به؟

أشرتُ بالنفي، قلتُ: كل شيء على مـا يـرام، المتجـر في أحسـن حال.

سأل: وأحمد؟

تنهدتُ أتذكر ما فعله أحمد بمعتـز، ولكـنني أجبـتُ ببسـاطة: بصحة جيدة.

قال: آسف أنني لم أرسل دعوة رسمية للحفل.

ابتسمتُ وقلتُ: كنتُ سأفكر كثيراً إذا ما كـان علـيّ أن أحضـر، لربما سببتُ لك بعض المشاكل، هكذا وقد أحضـرتُ الكعكـة لا أظـن أن أحداً سيزعجك.

قال: يزعجني! هالة، هؤلاء جميعاً بحاجـة إلـيّ، لـيس مـنهم من يستطيع أن يزعجني.

نظرتُ حولي، وقـد كانـت الأنظـار كلـها مصـوبة نحونـا حتـى ونحن بعيدين، قلتُ: الجميع ينظر إلينا.

ابتسم قائلاً: إنهم يغارون.

قلتُ: أفهم أن الفتيات يغرن مني، وماذا عن الشباب؟

أجاب: يغارون مني أنا.

نظرتُ إليه فقال: تبدين في غاية الجمال.

احمـرّتْ وجـنتي، عنـدها اقـترب منّـا أحـد المضـيفين يحمـل عصيرين من التوت الأحمر وقطعتين من الكعكة التي صنعتُ، وضعهما بالقرب منّـا، فأشـار إليـه معتـز بإحضـار علبـة مـن خزانتـه، وحمـل العصير وقدّمه إليّ، شكرتُه وابتسمتُ قائلة: لا أحظى بفرصة تجريـب الكعكة التي أصنع في العادة.

ابتسم قائلاً: لا تفوتي على نفسك هذه المرة، إنها شهيّة.

تناولتُ قطعـة مـن الكعكـة، إنهـا فعـلاً لذيـذة، وتنـاول معتـز قطعته كاملة، ربما حان الوقتُ لأغادر، لستُ أدري هل يفترض بي أن أظلّ؟ لقد أنهى فيوج عمله وهو في انتظاري، نظـرتُ إلى معتـز وقلـتُ: أتمنى لك عيداً سعيداً، يتوجب عليّ المغادرة الآن.

وصل المضيف وقدّم علبة صغيرة لمعتـز، الـذي نظـر إلـيّ وقـال: هالة، أعلم أن هناك رسالة وصلتكِ من والدك قبل بضعة أيام.

أوه تلك الرسالة، لقد كانت صدمة حقيقية، ولكن... كيف يعلـم

أمرها؟ تابع قائلاً: ما زلتُ أؤمن أنكِ من أريد.

فتح العلبة فإذا بـه خـاتم ذهـبي، نظـرتُ إلى معتـز بانـدهاش، ولكنه كان هادئاً، ولا يبدو المزاح على وجهه على الإطلاق، قـال: لقـد اشتريته لك، منذ اللقاء الأول، وانتظـرتُ هـذا اليـوم طـويلاً، هـا هـو أمامك، لك أن تأخذيه أو أن تردّيه.

ماذا كنتُ أظن، لقـد حضـرتُ إلى هنـا بنفسـي، أمـن أجـل هـذه اللحظـة يـا هالـة أم أنـك كنـتِ تلعـبين؟ الآن مـاذا سـتفعلين؟ الخيـار خيارك، وحدك.

نظرتُ إلى الخاتم طويلاً، ولم أجرؤ على النظـر إلى وجـه معتـز، إذا ما أخذتُ الخاتم الآن فسيغضب أحمد، وإذا ما لم آخذه فلن يقـترب مني معتـز بعـد اليـوم أبـداً، ومـاذا يعـني أن آخـذ الخـاتم؟ أن أصبح خطيبته بشكل رسمي، ألا يتوجب عليّ عندها البقاء في الحفل ومقابلـة المعزومين كخطيبة رسميّة، ألن تتسارع الأحـداث بشـكل قـد لا أتمكـن من مجاراتها، يجب أن أتأنى في حضور الجميع.

نظرتُ حولي فإذا بعيون الجميع تحدق فيّ! بـدأتُ أرجـف علـى الفور، حتى فيـوج كـان ينظـر بقلـق، فقـال معتـز بسـرعة: لا تـأبهي بالآخرين، لا تتصوري أحداً غيرنا هنا.

عـدتُ أنظـر إلى الخـاتم، إذا مـا رفضـتُه فسأسـبب لـه إحراجـاً كبيراً، وإذا ما أخذتُه...

نظرتُ إلى معتز وقلتُ: لن أرفضه، ولكـنني لـن أبقـى في الحفـل اليوم.

قال: لستِ مضطرة لذلك.

مددتُ يدي، أستطيع أن أسمع همس النـاس مـن بعيـد، أخـذتُ الخاتم وارتديتُه في إصبعي في اليد اليمنـى، إشـارة إلى الخِطبـة، أغلـق معتز العلبة وفي عينه كل الزهوّ والافتخار، لقد سارتْ الأمور علـى مـا يرام.

ضجّ المكان، يبدو أن أحد المعزومين قد فقد وعيه، أرجو ألا تكون والدته، نظرتُ إلى فيوج الذي كان يضع يده على رأسه، لا يبدو راضـياً بتاتاً، نظرتُ إلى معتز وقلتُ: عليّ المغادرة الآن، هناك الكثير لنفعله.

ابتسم وقال: يبدو ذلك.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني والثلاثون | أحمد

لم أشعر بالتعب والإرهاق بهذا الشكل في حياتي، لم تعد ساعات نومي تكفي، ولم أستطع تحمل تقلّب أوقات الدوام على الإطلاق.

كما أنني لم أعد أعرف كم يوماً مضى دون أن أرى هالة، لقد فقدتُ الإحساس بالوقت.

هالة، ماذا تفعل يا ترى؟ إنها في الغرفة المقابلة ولكنني لم أعد أعرف عنها شيئاً، أشعر أنها سافرتْ إلى مكان بعيد.

رغم الإرهاق وقلّة النوم، أجبرتُ نفسي على النهوض وطرق باب غرفتها، لستُ أدري كم هي الساعة ولكن كان عليّ أن أراها، لربما رؤيتها بخير ستهوّن عليّ تعبي.

طرقتُ الباب، مرة ومرتين، سمعتُ صوتها تقول: ما الأمر؟ هل هناك مكروه؟

يبدو أن الوقت متأخر جداً، وقد أفزعتُها، ولكنني أسمع صوتها أخيراً، قلتُ: هل أنتِ مستيقظة؟

قالتْ: ولماذا أكون مستيقظة في هذه الساعة؟

سالتُ: هل أيقظتُكِ؟

صمتتْ قليلاً ثم فتحتْ الباب تحدّق فيّ، قالتْ: ما خطبك؟

أجبتُ: لم أركِ منذ وقتٍ طويل.

تنهّدتْ وقالتْ: ألا تعرف كم الساعة الآن، إنها الثالثة بعد منتصف الليل، كان عليك الانتظار قليلاً إلى الفجر، لن يضرّك ذلك.

قلتُ: تخرجين قبل أن أستيقظ، وتنامين قبل أن أعود، لم أعد أعرف متى يمكنني أن أراك.

سألتْ: هل هناك أمر ما؟

قلتُ: وهل يتوجب أن يكون هناك سبب لنرى بعضنا؟

صمتتْ هالة، ثم خرجتْ من غرفتها واتجهتْ إلى المطبخ، سكبتْ كوبين من عصير الرمان، وناولتني إحداهما، ثم جلستْ على الأريكة في الصالة، فجلستُ إلى جانبها.

شربنا العصير بهدوء، ألم يعد هناك حديث يجمعنا؟ أما تزال غاضبة بشأن معتز؟ لا يجب أن أذكره الآن أبداً، عليّ أن أفاتحها بموضوع مختلف، المتجر، العمل، أليس لدينا ما نقوم به غير ذلك؟

قلتُ: هالة، هل تحبين أن نخرج في نزهة؟

سألتْ: إلى أين؟

أجبتُ: هناك مدينة مجاورة تطل على بحيرة جميلة وأشجار

مزهرة، لن يستغرق الوصول إليها وقتاً.

فكّرتْ قليلاً فقلتُ: سنحضّر معنا غداء نتناوله هناك، سيكون ذلك ممتعاً.

سألتْ: متى؟

أجبتُ: الجمعة القادمة، سيكون ذلك مناسباً.

قالتْ: ولكنك تداوم أيام الجمع!

قلتُ: سآخذ عطلة الجمعة القادمة، أشعر بالتعب.

فكّرتْ قليلاً ثم قالتْ: ليس لدي مانع، ربما تكون فكرة جيدة.

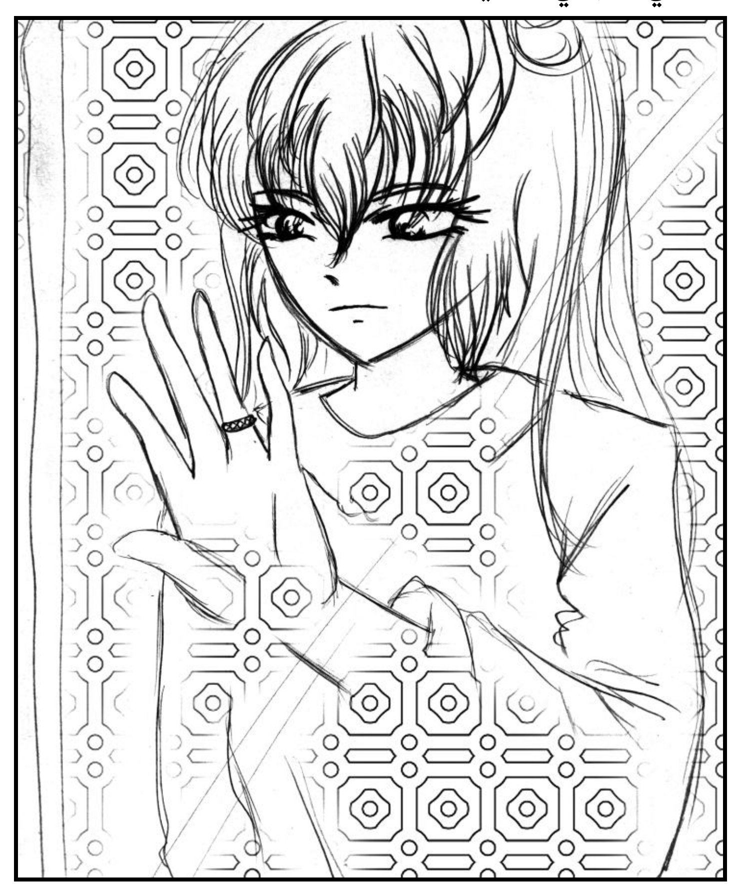
فرحتُ بذلك، وشعرتُ للحظة أن غياب أسابيع قد انقضى في لحظة، نهضتُ أحضر ورقة نكتب فيها ما نحتاج في تلك الرحلة، لأقوم بشرائه غداً، وتحضير ما يلزم.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والثلاثون | هالة

أمي... لقد خُطبتُ

أمي... إنني أرتدي خاتماً ذهبياً



أمي... كان يجب أن تكوني إلى جانبي اليوم لتباركي لـي، لماذا أكون وحيدة؟

أمي... كان هذا قراري وحدي، اليوم كـان معتـز سـعيداً، وكـل المعزومين مصدومين، حتى فيوج يجلس إلى جانبي في السيارة لا يـدري ما يقول، أظنه يعارض ما جرى بشدة ولكنه يعلم أن الأمر لا يخصّه.

إنه كما قال معتز تمامـاً، إنـه قرارنـا وحـدنا حتـى لـو عـارض الجميع، والآن أنظر إلى الخاتم في يدي وأتساءل كيف ستكون ردة فعـل أحمد.

أخيراً نطق فيوج بعد صمتٍ وتفكير طويلين: ماذا تفعلين؟

أجبتُ ببساطة: ما رأيتَ.

قال: هل تظنين فعلاً أن مثل هذه الأمور تسير بـهذه البساطة؟

قلتُ: أنتم تحبون تعقيد الأمور دوماً.

قال: هذا لا يجوز يا هالة، لا تستطيعين اتخـاذ قـرار في حفلـة عيد ميلاد سخيفة.

قلتُ: قراري أخذ مني وقتاً طويلاً من التفكير، ولم يكن نتيجـة لحظـة إحـراج كمـا تظـن، كمـا أن مشـكلة معتـز ربمـا تعـد أكـبر مـن مشكلتي، عليه أن يقنع الجميع بما يفعل وهو يتصـرف وكـأن الأمـر لا يعني أحداً سواه.

قال: الأمر يعني أحداً سواه، بل الكثيرين، وهو لا يأبه بهم.

قلتُ: ربما تحتاج لذلك أحياناً.

قـال: ومـاذا عـن أحمـد؟ هـل سـتعودين إليـه بالخـاتم؟ هـل ستعاملينه كما يعامل معتز ضيوفه؟ ألا يستحق منك الحقيقة؟

نظرتُ إلى الخاتم في يـدي مجـدداً، أحمـد... كيـف سـتكون ردة فعله؟

قال فيوج: لا تفعلي، لن يتحمّل الصدمة.

أعلم أن فيوج محق، ولكنني لا أوافق أحمد الرأي، كمـا أنـني لم أعد أستطيع تصور زوج لي غير معتز، أو منزل غير قصره الجميل، أو حياة غير حياة النبلاء، بتّ أشعر أن هذه هي الحياة المقدرة لـي حتـى ولو لم يُعجب بها أحمد، ولكن كيف لي أن أخبره بذلك؟

قال فيوج: هالـة، فكـري في الأمـر جيـداً، مـن السـيء جـداً أن تتزوجا رغماً عن الآخرين، لا أحد راضٍ بزواج كهذا.

نظرتُ إلى فيوج الذي ربما بدأ يتحدث فيما لا يخصّـه شخصـياً، لاحظ ذلك في تعابير وجهي غير الراضية، فجأة وضع يده علـى جبينـه بحركة سريعة، يبدو أنه يعاني صداعاً أو ربما تـذكر شـيئاً، هـل هـو فعلاً فاقد للذاكرة؟ اعتذر قائلاً: آسف، ربما تجاوزتُ الحـدّ، ولكـنني قلق ليس إلا.

قلتُ: لن تخبر أحمد.

قال: عليكِ أن تفعلي ذلك بنفسك، لن أجرؤ على ذلك.

وصلتُ المنزل، ونزلتُ من السيارة، وتابع فيوج طريقه إلى منزله، ولا يبدو أنه على ما يرام.

وقفتُ أمام الباب أنظر إلى يدي، أنظر إلى الخاتم، هل أستطيع فعلاً أن أدخل به على أحمد؟ لستُ أدري، بقيتُ واقفة فترة إلى أن نزعتُ الخاتم أخيراً، ودخلتُ المنزل بهدوء، وقد كان أحمد نائماً.

دخلتُ غرفتي، وخبّأتُ الخاتم، ما أزال غير قادرة على مواجهة أحمد بما فعلتُ، ربما يحتاج بعض التلميحات قبل المفاجأة. استبدلتُ ثيابي، ونمتُ بضع ساعات إلى أن سمعتُ طرقاً على الباب، فزعتُ في البداية فقد كان الوقت متأخراً، ولكنه كان أحمد، كان يريد أن يتحدث إليّ، كان يريد أن يراني، فقد مرّ زمن ولم نجلس إلى بعضنا. كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، حضّرتُ كوبين من العصير وجلستُ إلى جانبه لا أدري هل هو وقتٌ مناسب لإخباره بما جرى، أم أن عليّ أن أمهّد طويلاً لذلك.

بدأ حديثه عن رحلة يوم الجمعة المقبلة، ربما تكون فرصة جيدة لأخبره فيها، ولكن هل هناك فعلاً وقتٌ مناسب لخبر كهذا؟

■ الفصل الرابع والثلاثون | أحمد

اليوم نهضتُ نشيطاً للعمل، أخيراً رأيتُ هالة وقد كانت في صحّة جيدة، وقد اتفقنا على الرحلة القادمة، كم أترقب الجمعة بفارغ الصبر، كلّما مررتُ على متجر تذكّرتُ بعض الأدوات التي سنحتاجها وقمتُ بشرائها وتجهيزها، ووضعتُ كل الحاجيات في زاوية المنزل حتى لا أنسى إحداها، كم سيكون الجمعة ممتعاً.

مرّ العمل بشكل روتيني في المطعم، سمعتُ حديثاً جانبياً حول معتز ولكنني لم أشأ أن أعكَر صفو مزاجي، فلم أستمع لما يقولون، ولكنني لم أستطع فعل الشيء ذاته في المخزن، حيث كان المخزن ملكاً لمعتز، والعمّال فيه يتحدثون حول أخباره وأسراره بصوتٍ مسموع، فلم أستطع إلا أن أسمع.

خطب معتز، حمداً لله، أخيراً ابتعد عنّا ووجد من تناسبه من طبقته التافهة، خطب فتاة غير نبيلة، لا أحد يعلم عنها شيئاً، ما باله يبحث عن الفتيات البسيطات، ألهذه الدرجة يهرب من النبلاء، لم يستطع الحصول على هالة فخطب فتاة أخرى لا تعلم عنه شيئاً.

وكما قالتْ هالة من قبل، تمنّى الكثير من العمّال لو كانت خطيبة معتز أختهم، لكان حالهم قد تغير، وأصبحوا من الأغنياء،

تلك العائلة البسيطة قد فتح الله عليهم من دون الجميع، ولابد أن الجميع الآن باتوا يملكون عقارات وسيارات.

نعم كنتُ أعلم أنني أستطيع أن أكون ذاك الأخ الذي يملك العقارات والسيارات، ولكنني رفضتها من قبل وسأظل أرفضها إلى الأبد، ستتزوج هالة شاباً لطيفاً طيباً يفهمنا، وليس لنا بالمال حاجة، لطالما كنّا سعداء دون العقارات، فلماذا نبحث عن السعادة فيما لا نملك.

انقضى العمل، وسرتُ إلى المنزل في وقتٍ متأخر، مع ذلك وجدتُ من كان في انتظاري، إنه فيوج وإلى جانبه يجلس منسيّ.

تذكرتُ على الفور أنني رأيتُ منسيّاً وقد قتل رجلاً في الطريق، أشرتُ إليه بيدي وقلتُ على الفور: لقد كنتَ أنتَ.

نظر إليّ منسيَ يقول: كنتُ ماذا؟

قلتُ: لا تحاول أن تنكر، لقد قتلتَ رجلاً يسير في الطريق، لقد كنتَ ملثّماً ولكنني واثق أنه كان أنتَ.

قال ببساطة: كلا، لم أكن أنا، وهناك أمر مهم قد اجتمعنا من أجله اليوم.

نظرتُ إلى فيوج الذي لم يعرف من أين يبدأ، فسألتُ على الفور: هل حدث مكروه لهالة؟

ولكن فيوج قال على الفور: أنـا آسـف، آسـف جـداً، لم أسـتطع فعل شيء.

انفعلتُ: هل حدث مكروه لهالة؟

قال منسيّ وقـد أزعجتـه بدايـة فيـوج غـير الموفقـة: لا، لا، لم يحدث لهالة أي مكروه، ولكن هناك أمر يعلم بـه سـكان المدينـة كلـها وتجهله أنت.

أجهله أنا وحدي، ماذا يكون؟ قال فيـوج: لم أعـرف أن الأمـور ستسير هكـذا، لقـد كانـت حفلـة عيـد مـيلاد لـيس إلا، وقـد حضّـرنا الكعكة للمناسبة كالعادة، وذهبنا إلى هناك، و...

تنهّد منسيّ، حيث لم أفهـم شـيئاً ممـا يقولـه فيـوج، فأوضـح: البارحة كان عيـد مـيلاد معتـز، طُلـب إلى هالـة أن تصـنع كعكـة لـه، ففعلت، وذهبتْ إلى الحفل تقدّم له الكعكة، ولكن الأمور لم تقف عنـد ذلك الحد، حيث قدّم لها معتز خاتم خطوبة أمام الجميع، وقـد قبلتْـه هالة وارتدتْه.

ماذا يقول؟ هالة لم تخبرني شيئاً عن ذلك، ولم أر خاتمـاً أو أي شيء يدل على ذلك، قلتُ: لا يمكن أن تفعل هالة شيئاً كهذا، ودون أن تخبرني.

قال فيوج: لستُ أدري ما جرى، ربما خجلتْ من رفض الخـاتم أمام الجميع، ربما تنوي أن تعيده في الغد بهدوء.

قال منسيّ: أو ربما تريده.

لستُ أصدق ما أسمع، كيف أسمع أخباراً كهذه من خارج المنـزل، لقد تحدثتُ إلى هالة الليلة، ولم تذكر لي شيئاً على الإطلاق، لا يمكن أن يكون كل هذا مجرد ادّعاء، المدينة كلها تتحدث عن خطبة معتز.

قـال منسـيّ: كـان علـى فيـوج أن يخـبرك بـالأمر، فهـو يشـعر بالمسؤولية حيث كان هنـاك، ولكننـا الآن تركنـا الحكايـة لـك، الأمـر بينكما وحدكما.

قـال فيـوج: لا تفاجئهـا ولا توبّخهـا، ولا تخبرهـا أنـني مـن أخبرك رجاءً.

قلتُ: لستُ مضطراً لذلك، فقد سمعتُ الكثير من الناس اليوم.

وضعتُ يدي على رأسي، هل أصدق ذلك؟ هل أكذّب حتى فيـوج؟ يجب أن أسأل هالة، عليّ أن أستفسر منها، لربما أخذتْ الخاتم خجلاً كما قال فيوج، ولكن لتخبرني على الأقل.

أمسك منسيّ يد فيوج وسحبه قائلاً: هذا كل ما في الأمـر، نـراك لاحقاً.

■ الفصل الخامس والثلاثون | هالة

أمي... ابنتك ترتدي خاتماً ذهبياً جميلاً.

أمي... ابنتك باتت خطيبة شاب ثري.

أمي... ابنتك حققتْ ما تريد.

أمي... ابنتك لم تخبر أخاها بشيء، لم تستطع أن تفعل.

أمي... هل تشفعين لي عند أحمد؟

لم يستطع فيوج أن يصبر، سألني فور دخوله المتجر: هل أخبرتِ أحمد؟

تنهّدتُ، حيث كان القلق بادياً عليه، ربما يشعر بالمسؤولية حيث كان هناك، ولكن ما كان يستطيع فعل شيء، قلتُ: ليس بعد.

سأل: لماذا؟

أجبتُ ببساطة: لم تتسنّى لي الفرصة، سأفعل في أقرب وقت.

صمتَ فيوج، لا يبدو أنه راضٍ ولكن الأمر لا يعنيه.

تابعتُ العمل كالمعتاد، وحضر معتز بنفسه إلى المتجر، شعرتُ بفيوج يتشنّج لرؤيته، بينما كان قلبي يخفق سعادة بعودة المياه إلى مجاريها، بل أفضل.

جلب معه باقة من الورود الملوّنة، وكعادته كان لبقاً وأنيقاً،

وضعتُ الباقة جانباً وقدّمتُ له شراب الشوكولاتة الساخن وجلسنا لنتحدّث.

بدأ الحديث بشكل روتيني، أرجو ألا أكون قد حضرتُ في وقتٍ غير مناسب، أرجو ألا أكون قد عطّلتك عن العمل، كيف حال المتجر؟ كانت الكعكة رائعة بالأمس، لقد باتت حديث الجميع...

نعم نعم، ليس هذا ما حضرتَ من أجله، أرجو أن تكون جادّاً في ما حدث الأمس، أشعر أنه كان حلماً ليس إلا.

ابتسم وقد شعر أنني أفكر في أمر ما، قال: ما الأمر؟

قلتُ: ليس من عادتك ألا تعرف ما أفكر فيه.

قال: أنت تفكرين في الأمس.

لا أُجِيب، فقال: لقد كان أجمل يوم في حياتي، كان بالفعل يوم ميلاد جديد.

نظرتُ إلى الخاتم في يدي، وضعتُه قبل أن أخرج من المنزل، وأريده أن يظلّ في يدي، سأل معتز: ماذا قال أحمد؟

قلتُ: لم أخبره بعد.

ضحك وقال: ظننتُ أنني سأراه في أية لحظة يقطع طريقي ويصرخ في وجهي، بل ربما يهددني.

احتسى شيئاً من الشراب، لا يبدو جاداً في ما قـال، ولكـن ربمـا يكون ذلك صحيحاً، لن يسكت أحمد عن شيء كهذا، وربما يلوم معتزاً أكثر مني.

سأل: ألا تنوين إخباره؟

قلتُ: بالتأكيد، ولكنني أتحيّن الفرصة.

قال: أرجو ألا يطول ذلك أيضاً، فهو لن يقبل بأي شكل.

لا أريد ذلك، أريد لأحمد أن يقبل، أريده أن يكـون إلى جـانبي، هل أستطيع إقناعه؟

أنهى معتز شرابه، هذه المرة لم يعرض عليّ أن يدفع الحسـاب، فقد دخل منزله وخرج بكل بساطة.

أنهيـتُ العمـل، وعـدتُ إلى المنـزل في المسـاء، لم يكـن أحمـد في المنزل، فدوامه المسائي لن ينتهي قبل ثلاث ساعات.

نظّفـتُ المنـزل، واسـتحممتُ، وتمـددتُ في غـرفتي أحـدّق في الساعات إلى الخاتم، متى سيراه أحمد؟ هـل أخـبره الجمعـة القادمـة أثناء النزهة؟ هل سيكون ذلك مناسباً، أم قبل ذلك؟ أو ربما بعده؟

أوه، لم أعد أعرف ماذا أفعل، قضيتُ سنواتٍ مع أحمد وما أزال غير قادرة على زفّ خبر كبير إليه، ماذا أفعل؟

غفوتُ قليلاً دون أن أدري، واستيقظتُ على طرق للباب، إنه أحمد! ماذا يريد ثانية في منتصف الليل.

الساعة الواحدة، نهضتُ لأفتح الباب وكدتُ أنسى الخاتم في يدي، نزعته ووضعته في الدرج ثم فتحتُ الباب، سألتُه: ما الأمر؟

أجاب: فلنتحدث قليلاً.

سألتُ: بشأن ماذا؟

أجاب: هناك ما أريد إخبارك به.

يريد إخباري، أنا من تملك الخبر الكبير! حياة أحمد أبسط من أن يكون فيها أي أخبار.

جلستُ إليه في الصالة، كان هادئاً ولكنه لم يكن غاضباً، نظر إليّ وقال: لقد سمعتُ اليوم أخباراً عن معتز.

انقبض قلبي، هل علم؟ يا لي من مغفّلة، إنه يخالط الناس ذات الأفواه الكبيرة، كيف له أن لا يعرف! تابع قائلاً: لقد خطب.

لم أقل شيئاً، ما يزال حديثه مبهماً، سألني: هل يزعجك ذلك؟

ليس بعد، لا يبدو أنه يعرف، قلتُ: لستُ أدري.

قال: ألم تعودي متعلّقة به؟

قلتُ: ربما.

قال: أردتُ فقط أن أخبرك أنه قد تابع حياته ببساطة، ولم يعد يفكر في أمرك، رفضته في يوم وخلال أقل من شهر كان قد خطب أخرى، إن أمرك لا يهمه على الإطلاق.

سألتُ: وماذا كان عليه أن يفعل؟ لقد رفضتَه مباشرة، ألا يتزوج طول العمر؟

ابتسم أحمد ساخراً، ولكنه قال: أن يحاول ثانية على الأقل، أم أن كبرياءه لم يكن ليسمح له بذلك، أو أن يعتذر إليك مباشرة على خطبته من أخرى.

سألتُ: وإذا ما كان قد فعل ذلك، فهل كنتَ ستوافق عليه؟

سكتَ أحمد، وبعد صمت طويل قال: سمعتُ أنه كان يوم ميلاده، والجميع يتحدثون عن الكعكة المميزة التي لم يروا مثلها من قبل، خسارة أن المراسلون مُنعوا من دخول القصر، لكنّا رأيناها في الجرائد، لا بل لكنّا رأينا خطيبة معتز نفسها.

هل يسخر مني، حديثه لا يوحي أنه يجهل الكثير، هل أخبره الآن، لا يبدو غاضباً، ولكنني أشعر أنه مستاء، إلى متى سأظل أتحايل على الأمر.

قال: قيل لي أن خطيبته هي من قدّمتْ له الكعكة المميزة،

الشائعات تقول أنها هي من صنعتها.

هـذا يكفـي، علـيّ أن أمسـك زمـام الحـديث، قلـتُ: حسـناً، سأتحدث، نعم خطيبة معتز ليستْ نبيلة، وهي مـن صـنعتْ الكعكـة، وهي تعمل في خبز الكعك كل يوم، تخرج مـن الصـباح البـاكر لتحضّـر المكونات، وتعود في المساء منهكة مـن العمـل، وتسـتحق التقـدير علـى الأقل.

سكتَ أحمد ينتظر أن أتابع، ولكنني لم أعد أعرف مـا سـأقول، بدأتْ عيناي تدمعان رغماً عنّي، بدأت أحاول مسح دموعي التي كانـت تزداد غزارة، إنه ينتظر أن أتكلم، ماذا يريد أن يسمع؟ ماذا أقول؟

أخيراً قال: لِم فعلتِ ذلك؟

قلتُ: لأنني أردته، أردته كثيراً.

قال: أنتِ تستحقين أفضل منه.

قلتُ: في نظري هو الأفضل.

قال: لا أوافقك الرأي.

قلتُ: هذه كانت المشكلة من البداية.

قال: كيف تفعلين ذلك دون أن أعلـم؟ تصـوّرتك أعقـل مـن ذلـك بكثير.

قلتُ: لم تترك لي خياراً آخر.

ثم أخرجتُ من جيبي رسالة والدي، أخذها أحمد وقرأها، وقد احمرّ وجهه من الغضب، قال: ما هذا يا هالة؟

قلتُ: ما ترى.

قال: كيف علم بذلك؟

قلتُ: لقد ذهب معتز إليه.

قال: تخطّى حدوده كثيراً.

قلتُ: ولكن والدي إلى جانبي، إنه يحاول أن يساعدني، ما المشكلة في ذلك؟

قال أحمد في غضب شديد: والدك! ألا تذكرين أنه كان يريد تزويجك من بدر؟ ألا تذكرين لماذا رحلنا في الأساس؟ الآن تظنين أنه يحاول مساعدتك؟ لستُ أدري كم دفع له معتز.

صرختُ: كفى! لماذا لا تسير الأمور بسهولة، كان عليك أن توافق بكل بساطة يوم حضر إلى المنزل، لماذا تفعل بي ذلك؟

رمى أحمد رسالة والدي أرضاً وقال: أفعل بك ذلك لأن هذا هو الفرق بيني وبين والدي، إنه ينظر إلى المال بينما لا أفعل.

قلتُ: إلامَ تنظر إذاً؟

قال: إلى معادن الناس.

قلتُ: ولكنك حكمتَ عليه قبل أن تقابله، إنه نبيل ولذلك هو سيء.

تنهّد أحمد، يبدو أنه يئس من الجدال، نظر إليّ وقال: الخاتم معك.

قبضتُ يديّ أخشى أن يأخذه مني، ظلّ واقفاً ينتظر أن أعطيه الخاتم ولكنني لم أفعل، قال: ماذا ستفعلين؟

قلتُ: لن أتراجع.

قال: لن أوافق أبداً يا هالة.

قلتُ: لم تترك لي خياراً آخر.

قال: ستستخدمين الوصية؟

قلتُ: إن اضطررتُ لذلك.

قال: لن أحضر الزفاف ولن أعترف بالزواج ما حييتُ.

قلتُ: يؤسفني ذلك، ولكنه خيارك.

قال: هل هذا هو قرارك الأخير؟

بلعتُ ريقي، ثم قلتُ: نعم.

■ ■ ■

■ الفصل السادس والثلاثون | أحمد

مر زمن طويل ولم أسمع شيئاً عن والدي، ولستُ أدري إذا ما كان ما يزال على قيد الحياة، ولكنني لم أتصور أن أمسك رسالة منه وأتمنى لو لم أرها، لو لم أسمع به مجدداً، لو لم يعد إلى حياتنا بأي شكل.

أمور غريبة تحصل، وهالة تبتعد عني أكثر فأكثر، ولم أعد أستطيع أن أجاريها، ولم أعد أستطيع إيقافها، إنها كالنهر الجاري.

هل أدع الأمور لها، هل أستطيع أن أمنعها، بتّ أخشى ألا أكون على صواب، هل أوافق وأنهي الخلاف؟ ولكنني أكيد أن العديدين من طرف معتز يعارضون أكثر مني.

ما الذي تفعلينه يا هالة؟ ما الذي تفعلينه بي وبنفسك؟ عندما ظننتُ أننا أحسنّا تدبر أمرنا، أخيراً عندما ظننتُ أننا في خير عيش.

انتهى جدالنا العقيم بسرعة، ودخلتْ هالة غرفتها بينما تمددتُ على فراشي أتقلّب إلى الصباح، سمعتُ صوتَ الباب عندما غادرتْ إلى المتجر، بينما بقيتُ في المنزل، وتغيّبتُ عن المطعم وحتى المخزن، لم أعد أود الذهاب، كنتُ أعمل من أجل هالة، فلماذا أعمل الآن؟

رنّ هاتفي عدة مرات، لم أنظر إلى الأرقام، بقيتُ في الفراش إلى الساعة الواحدة ظهراً، وعاود الهاتف الرنين أكثر فأكثر بعد الساعة السادسة، حيث أعلم أن لا أحد يحرس المخزن اليوم سواي، ولكنني لم أجِب.

متى تعود هالة من المتجر؟ حتى هذه المعلومة البسيطة بتّ أجهلها، كيف يسير عملها، هل هي في رخاء أم شدّة؟ إنها لم تطلب مني نقوداً أبداً، هل عليّ أن أعطيها أم أنها تحصل على نقود أكثر مني؟

رأسي يؤلمني، أشعر بالوحدة، هل أخرج وأتمشى في الشارع قليلاً؟ هل أنفق قليلاً مما ادّخرتُ حتى أشعر بالارتياح؟ ولكن ليس هناك ما أريد، ليس هناك ما أفكر فيه سوى شخص واحد، وجهه المزعج وابتسامته المغرورة لا تفارقان رأسي، معتز، من أين دخلتَ حياتنا؟

رنّ جرس المنزل، نسيتُ نغمته، فليس من العادة أن يطرقه أحد، لدى هالة مفتاحها الخاص، وليس من زائر يحضر إلينا، ولا أظن أن العمارة تستهوي المسوقين.

نهضتُ من الفراش، ونظرتُ من عدسة الباب، إنه منسيّ!

يغطي رأسه بطاقية السترة كالعادة، ويضع يديه في جيبه، ويقف عابساً كعادته، كيف علم منزلي، أنا لم أصطحبه إلى هنا من قبل.

فتحتُ الباب، فقال: هل لي أن أدخل؟

قلتُ: كيف عرفتَ مكان منزلي؟ بل كيف عرفتَ أنني في المنزل؟

قال ببساطة: لو كنتَ في العمل لما فتحتَ لي الباب، أليس كذلك؟

لا أظن أنه كان يجرب حظّه، إنه يراقبني، بقيتُ واقفاً على العتبة فأحس أنني أمنعه من الدخول، قال: ألن أدخل؟

قلتُ: أختي في الداخل.

قال ببساطة: إنها في المتجر منذ الصباح.

قلتُ: ماذا تريد مني؟ لماذا تراقبنا؟

ابتسم ابتسامة باهتة فوق وجهه الجاد وقال: كانت هالة تظن أنها لا تملك ما يريده معتز، هل تظن أنك أيضاً لا تملك ما يريده أي أحد؟

قلتُ: هذه إجابة مريبة.

قال: دعني أدخل، تركي على العتبة تصرف غير مهذّب.

أدخلتُه، ليس لأن كلامه كان مقنعاً، بـل لأنـني أردتُ التحـدث إلى أي شخص.

جلس منسيّ على الأريكة، وكأنـه يعـرف المكـان مسبقاً، طلـب كوباً من الماء، لم أعد أفهم كيف يتصرف، قـدّمتُ لـه المـاء فقـال: لقـد خرج كل شيء من زمام السيطرة.

سألتُه: ماذا تعني؟

نظر إليّ وقال: ستتزوج هالة.

أشحتُ بوجهي، وكأنني ولو للحظة كنتُ أريد أن أنسى الأمـر، أو أن نتحدّث في أي موضوع آخر، لـماذا لم تكـن جملتـه الماضـية "الجـو جميل" "انخفضتْ أسعار الخبز" "أفلستْ شركة مشهورة" لماذا علـيّ أن أحوم وأحوم حول معتز وأتذكر دوماً أنني سأكون الخاسر الوحيد؟

قال منسيّ: ليس في اليد حيلة.

سألتُه: ماذا أفعل؟

قال: فات الأوان لأي شيء، معتز يحصل على كل ما يريد.

قلتُ: أكره أن أفكر في الأمر بهذا الشكل، هالة ليستْ ساذجة.

قال: إنها ليستْ كذلك، ولكنه عـرف كيـف يصـل إليهـا، إنـه يدرس درسه جيداً.

شرب من الماء، ثم سألتُه: وأنت، لماذا حضرتَ إلى هنا؟

وضع الكأس على الطاولة وقال ببساطة: لأنني لا أريدك أن تظل وحيداً.

هل هو جاد؟ لم أتخيل لحظة أنه يفكر في أمري، ربما استوقفني عدة مرات، ربما تحدث إليّ وتدخّل في أموري الخاصة، ولكن لماذا يفكر في أمري؟

قال: ماذا؟ أما زلتَ تظن أنك لا تملك ما يريده الآخرون؟

سألتُ: وماذا تريد مني؟

أخرج منسيّ من جيبه بطاقة صغيرة وألقاها على الطاولة أمامي، حملتها ونظرتُ إليها، إنها تحمل صورتي، وعليها اسمي! قال: هذه بطاقة شخصية، عليك أن تملك واحدة.

قلتُ: كيف أخذتَ صورتي؟

ابتسم منسيّ وقال: أسهل مما تظن.

ثم أخرج ظرفاً من جيبه الآخر، ووضعها على الطاولة وقال: وهذا كتاب توظيف في مركز حكومي براتب يساوي ضعف ما تحصل عليه في المطعم والمخزن سوياً.

نظرتُ إلى المظروف مندهشاً، فتابع منسي قائلاً: لا تقلق، إن

الوظيفـة لا تحتـاج إلى قـراءة أو كتابـة، شـيء مـن المراسـلة وتوزيـع الأوراق.

هذا كثير، نظرتُ إليه أسأله: لماذا تفعل ذلك؟

قال منسيّ: ستعرف في الوقت المناسب.

قلتُ: ولكنك تخيفني.

ضحك منسيّ وقال: إذن فأنت لستَ أول من يقول ذلك.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والثلاثون | هالة

أمي، لقد ارتديتُ الخاتم رغماً عن أحمد.

لا أحب ذلك صراحة، ولكنه أعند مما ظننتُ، ألا يستطيع أن يفهم أن هذا هو قراري، وأنني أريد حياة مختلفة، وأنني جاهزة لأكبر تغيير في حياتي؟

حضر معتز إلى المتجر يسأل عما جرى بيني وبين أحمد، أخبرته بما جرى بكل صراحة، ولم يستغرب كلمة واحدة، بل على العكس كان ذلك أبسط مما توقع، إنه لا يعرف أحمد، فهو لا يعرف أنه يعيش لأجلي، ولا يمكن أن يؤذيني بأي شكل.

فرح معتز أن النقاش مع أحمد قد انتهى، حتى لو انتهى بنهاية مسدودة، فهو يعرف أنه في كلى الحالتين ستسير الأمور إلى الأمام، وسنعيش معاً كما نريد.

عرض عليّ أن يحضر والدي الحفل، جفلتُ في البداية ثم سألتُه: ألا تكفي الوصاية من بعيد؟

أجاب: بلى.

قلتُ: هذا كاف.

حتى وإن استخدمتُ وصاية والدي، فهذا لا يعني أنني أسامحه

على ما جرى، على أيام نسي فيها والدتي ونظر إلى أخرى، ولن أنسى أبداً أنه كان السبب في رحيلنا.

أخيراً انتهى الجدل وبدأت التجهيزات، حددنا موعد الزفاف، وإحضار القاضي، وتكفّل معتز بالتفاصيل الصغيرة في القصر، ولم يكن عليّ سوى الانتظار.

عدتُ إلى المنزل في المساء، لم يكن أحمد هناك، جلستُ أنتظره، ربما انتهى نقاشنا نهاية مسدودة، ولكن هذا لا يعني ألا أحاول، أريده أن يرضى، أريده أن يكون إلى جانبي، أريده أن يكون سعيداً لي، أريده أن يعلم ذلك.

بقيتُ جالسة ساعة كاملة، شربتُ عصيراً وتمددتُ على الأريكة، لا أريد أن أنام، أريد أن أراه ساعة دخوله، أريد أن أكون واضحة، إن أحمد يحبني، ويعتني بي، أريده أن يعلم أن ما يفعله لي سيكون صواباً.

انتظرتُ طويلاً، يبدو أن لديه دواماً مسائياً، هل سيظل في الخارج إلى الصباح الباكر؟ لم أعد أعرف دوامه، بل لم أعد أعرف شيئاً عنه، هل لديه أصدقاء؟ هل يخرج مع أحدهم؟

أصبحت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ولم أعد قادرة على

إبقاء عيني مفتوحتين، أنا متعبة وعليّ أن أنام، كما أن لديّ عملاً في الغد، أين أنت يا أحمد؟

أخيراً سمعتُ المفتاح، إنه يدخل، وقفتُ أنتظره، دخل بهدوء وانتبه فوراً لوجودي، تفاجأ لذلك، ولكنه أغلق الباب خلفه بهدوء، وظلّ واقفاً ينتظر ما سأقول.

ماذا سأقول؟ مرّتْ ساعات على تحضيري للكلمات، شعرتُ أنها سنوات، لم أعد أذكر ما سأقول، وبدلاً من أن أفاتحه بكلمات رقيقة نظرتُ إليه وقلتُ: أين كنتَ إلى هذه الساعة؟

لم تكن بداية موفقة، ولكنه ابتسم وقال: في الخارج.

قلتُ: هل تعمل إلى هذه الساعة؟ هذا مرهق جداً.

لم يُجب، وألقى بنفسه على الأريكة، إنه متعب فعلاً، سألتُه: هل تناولتَ شيئاً؟

قال: لا.

سألتُه: هل تريد أن تأكل شيئاً؟

قال: لستُ أدري.

ولكنني ذهبتُ إلى المطبخ، وحضّرتُ له فطيرة من الجبن والزعتر، وكوباً من عصير التفاح، وجلبتُها إليه.

تناولها أحمد بهدوء، ولم أستطع أن أفتح فمي للحديث في أي موضوع، فقط بقيتُ أراقبه يتناول الفطيرة. لقد كبُر أحمد، لم أحدّق فيه هكذا منذ زمن، هناك شعر على وجهه، وبعض التجاعيد الجديدة، كما أن يداه خشنتان، وجسده بات أصلب، لماذا تخيلته ما يزال يهرب من مدينة إلى أخرى، يبحث عن مكان لينام ولقمة يأكلها، لقد انتهت هذه الأيام يا أحمد، نحن بخير.

أنهى طعامه ثم نظر إليّ وقال: هل رددته يا هالة؟

تنهّدتُ، ولكنه على الأقل اختصر عليّ الدخول في الموضوع، قلتُ: لا، أحاول مجدداً أن أغيّر رأيك.

قال: تعرفين رأيي.

قلتُ: أعرف أن رأيك كان دائماً أن أكون سعيدة، وأعدك أنني سأكون سعيدة.

قال: أنت لا تعرفين ما تفعلين.

قلتُ: بلى أعرف، ولا أحب الناس هناك، ولكن هذا لا يعني أنني لن أستطيع العيش بينهم.

ابتسم أحمد، ولكنني قلتُ: يهمني أنه ليس مثلهم.

قال: إنه أكبر مثالٍ عليهم.

قلتُ: إنك تظلمه.

قال: لا أظن ذلك.

قلتُ: لقد تحدد العرس يوم الخميس القادم.

شعرتُ بقشعريرة سارت في جسد أحمد عن بعد، ولكنني تابعتُ قائلة: لا أحب أن أفعل ذلك دون رضاك.

قال: إذن لا تفعلي.

قلتُ: لم تترك لي خياراً آخر.

قال: بلى، ألا تفعلي.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والثلاثون | أحمد

خرجتُ مع منسيّ إلى الوزارة، دخلتُ البناية بينما انتظرني منسيّ في الخارج.

كانت العمارة واسعة وطويلة، مليئة بالزجاج والانعكاسات، حتى أن الأرض تعكس ما فوقها بلمعان جميل.

فكرة العمل هنا كانت كالحلم، ولِم لا؟ بما أن العمل لا يتطلب القراءة والكتابة أو أي شهادة علمية فلِم لا أعمل هنا؟

كنتُ أكيداً أن وظيفتي لن تكون مرموقة، وأن غالبية العاملين هنا سيكونون أعلى مقاماً وراتباً مني، ولكن العمل هنا ينتهي في الساعة الرابعة كل يوم، وسأعود إلى المنزل لأرتاح، وسيكون راتبي أفضل من ذي قبل، لن أخسر شيئاً، عليّ أن أقدم.

سألتُ عن مكتب التوظيف، بعد عشر دقائق من البحث استطعتُ الوصول إليه، جلستُ إليه ووضعتُ أوراقي، كانت الأوراق الوزارية كاملة كما يطلبون، رغم أنني لم أفهم منها شيئاً.

رحّب بي المدير، وطلب إليّ أن أستكمل الفحص السريري والمخبري، ومباشرة العمل الشهر القادم، ربما تكون هذه الجمل سعيدة لدى أي شخص، ولكنني جفلتُ لفكرة الفحص، سألتُه: ما نوع

الفحص الذي تجرون؟

أجاب: فحص صغير للحالة الصحية، والأمراض المعدية، لا تقلق لن تتألم.

لم أتفوه بأي كلمة، أمسكتُ أوراقي وخرجتُ من المكتب، ثم من المبنى، وقفتُ على العتبة أعلم أنني لن أعود ثانية، وأن حياتي ستظل متأثرة بالماضي التعيس.

اقترب مني منسيّ وسألني: هل سارت الأمور على ما يرام؟

لم أُجب، وأحس في وجهي القلق، سألني ثانية: هل رُفض طلبك؟

قلتُ: لا، ولكنني لن أعود.

انزعج لجوابي الانهزامي، ولكنه أمسك يدي لنبتعد عن الطريق، دخلنا زقاقاً صغيراً، وهناك أصرّ عليّ أن أتكلم، ولكن أحدهم قاطع حديثنا.

لم نتوقع أن نجد أحداً في زقاق كهذا، وفوق ذلك كله لم أتوقع أن أقابل شخصاً يعرفني، قال على الفور: أحمد! أهذا أنت؟

أدار منسيّ وجهه وأخفاه بطاقية السترة بسرعة، بينما بقيتُ واقفاً أنظر إلى الرجل، لستُ أذكره، إنه يكبرني بعشرين عاماً على

الأقل، لا أظن أنه صديق.

قال: أنت أحمد، أيهم السجون.

نظر منسيّ إليّ في ريبة، بينما حاولتُ تحاشي الحوار مع الرجل، يبدو أنه كان سجيناً في نفس الفترة والمكان الذي كنتُ سجيناً فيه، أيام سيئة لا أريد تذكرها، لماذا يلاحقني الماضي هكذا؟

قال: أنت هو أليس كذلك؟ لا يمكن أن أنسى، رغم أنه كان وقتاً قصيراً إلا أنك بتّ علماً في السجن.

قلتُ: ربما أخطأتني بشخص آخر.

قال: أبداً، أحفظك أكثر من ابني، لقد كنتَ صغيراً وجريئاً، كيف حالك الآن؟ هل دخلتَ سجن هذه المدينة أيضاً؟

أجبتُ بسرعة: لا، أنا لم أدخل السجن، ولابد أنك أخطأتني بشخص آخر.

هذه المرة كنتُ أنا من يأخذ بيد منسيّ لنبتعد عن الرجل، لحسن الحظ أنه لم يلحقنا، ولكنه قد قال ما يكفي.

أوقفني منسيّ بعد أن قطعنا مسافة لا تقل عن النصف كيلومتر مبتعدين عن الناس، متجهين إلى أطراف المدينة، لم يستطع منسيّ أن يطرح أسئلة أثناء ركضنا، ولكنه اغتنم أول فرصة لذلك فور وقوفنا

وقبل أن نأخذ أنفاسنا: ما الذي جرى؟ ما بالك اليوم؟

أخذتُ نفساً عميقاً ثم جلستُ على الأرض، ماذا أقول؟ ولماذا يتوجب عليّ الإجابة، منسيّ هذا شخص لا أعرفه، ولا أعرف ما ينوي إليه، ولكنه لن يتركني وشأني، أخرجتُ الأوراق التي جهّزها لي، وبطاقتي الشخصية، وقدّمتُها إليه أعيدها، فليس فيها ما يهمني.

أغضب ذلك منسيّ أكثر، وقال: ماذا تفعل؟

قلتُ: لن أعود، لستُ بحاجة إليها.

قال: وما حاجتي لها؟ لماذا تعيدها إليّ؟

قلتُ: أنت جلبتها ولستُ أدري ما تريد.

جلس منسيّ أمامي يحدّق فيّ وقال: هل حدث شيء ما في الداخل؟

أجبتُ: أبداً.

قال: إذاً لماذا تتصرف بغرابة، لقد دخلتَ سعيداً وخرجتَ منكسراً.

قلتُ: لا أستطيع الحصول على تلك الوظيفة، هذا كل ما في الأمر.

سأل بإلحاح شديد: لماذا؟ ما الغريب في الوظيفة؟

ماذا عساي أن أقول؟ لم تكن المشكلة في الوظيفة، ولكن الفحص المخبري سيسبب لي المشاكل، لا أريد أن يكتشف أحدهم أنني مصاب بالإيدز، فهذا قد يدمّر كل ما بنيتُ. قلتُ: لا مشكلة في الوظيفة، سأعود إلى المنزل، وشكراً للمساعدة الغريبة.

أمسكني من ذراعي، وشدّني بقوة وكأنه يريد سحبي من عالمي إلى عالمه الخاص، قال: لن تتزحزح من هنا حتى تخبرني ما جرى.

سألتُه: ولماذا الإلحاح؟ ماذا تريد مني؟

قال: لابد أن شيئاً سيئاً قد حدث في الداخل، إن لم تخبرني فسأتحقق من ذلك بنفسي.

قلتُ: هذا شأنك، لن تجد شيئاً.

رفعتُ يده وبدأتُ أسير إلى المنزل، فقال منسيّ: أهكذا تعامل هالة؟

توقفتُ واستدرتُ أنظر إليه، قلتُ: ماذا تقصد؟

قال: أبهذه الانهزامية تقنع هالة، إنها لن تقتنع أبداً.

هل هذا صحيح؟ هل أصبحتُ شخصية ضعيفة إلى هذا الحد؟ هل هذا هو رأي هالة بي؟ هل هذا هو رأي الناس بي؟ ألهذا تسير هالة في اتجاه مختلف، وتبتعد كل يوم أكثر؟ هل أنا السبب في كل ذلك؟

قال: العرس يوم الخميس القادم.

اهتزّ بدني، لقد انتشر الخبر، بل ربما كنتُ آخر من يعلم، أبهذه السهولة هزمني معتز؟ أبهذه السهولة أخذ أختي مني؟ ألا تذكر هالة حياة الشقاء التي عشناها وما تكبدتُ من عناء لنصل إلى ما نحن عليه؟ ماذا فعل معتز لتقفي إلى جانبه ضدي؟

لم أرد، استدرتُ ثانية متجهاً إلى المنزل وسرتُ بخطوات بطيئة يائسة، ليس هناك ما أفعله.

لم يلحقني منسيّ، ودخلتُ المنزل، ووضعتُ رأسي على الفراش دون أن أتناول شيئاً، ونمتُ، نمتُ طويلاً، وكان ذلك أفضل شيء فعلته منذ أشهر.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع والثلاثون | هالة

أمي، بدأتْ تجهيزات الحفلة، رغم أنـني لا أعـرف مـا يجـري من تجهيزات كبيرة في القصر إلا أنني أشعر بالتوتر.

أمـي، بـدأتْ أمـور صـغيرة تـتغير في حيـاتي منـذ الآن، فمـثلاً غيّرتُ مصففة الشعر التي كنتُ أذهب إليها، وبـتّ أذهـب إلى المصـففة المعنية بالأميرات، صالتها جميلة وفاخرة، والمكان هادئ، وليس علـيّ أن أنتظر طويلاً، كما أنها كانت ماهرة وحذرة.

أمي، تغيّرت الأسواق الـتي أرتادهـا، الثيـاب الـتي أشـتريها، حتى الأحذية بات لها متاجر كبيرة خاصة.

أمي، غيّرتُ معظم ثيابي، وامتلأت خزانتي بالفساتين الجديـدة إضافة إلى الثياب التي وعدني معتز أن تكون جاهزة في غـرفتي قبـل أن أدخلها.

أمـي، اليـوم أجـد في خـزانتي إكسسـوارات برّاقـة مـن الـذهب والألماس، لم أحلم يوماً بلمسها، إنها هنـا لـي وحـدي، أرتـدي جـزءاً منها كل يوم، وأضع الجزء الآخر بحذر شديد في مكـان آمـن لا يعرفـه أحـد، ولكـن هـل أخشـى السـرقة فعـلاً؟ لـدى معتـز أكثـر مـن هـذه الإكسسوارات بكثير.

أمي، لقد تغيّرت حياتي، ويالها من حياة، لقد حصلتُ على كل ما أريد حتى قبل الحفل، كل شيء معدّ، كل شيء حاضر، كل ما أرغب فيه أحصل عليه في ثوان.

كم هي الحياة غريبة، فقبل أسبوع لم أكن أستطيع شراء نصف ما اشتريتُ اليوم، وحتى لو عمل متجري بأفضل حالاته، أما متجري فقد بتّ أعتمد على فيوج في كل شيء، أصل متأخرة وأغادر مبكرة، وغالباً ما يحضر معتز ليحتسي شراباً ساخناً ونتحدث معاً.

لا أعني أنني أريد أن أغلق المتجر، على العكس، أريده أن يصبح أفضل من ذي قبل، أريده أن يزدهر، وأن يحوي من الكعك ما لذّ وطاب، وأن يسعد الناس في كل المناسبات، ولكن هذه الأيام هي أيام راحتي التي لم أستطع الحصول عليها منذ سنين.

نوم طويل ومريح، ونهار سعيد، وخطيب مثير، هذه هي الحياة التي حلمتُ بها، ولكن ماذا بعد ذلك؟ ما الذي سيحققه الزواج الآن؟

كنتُ أسمع كثيراً أن أيام الخطبة هي الأجمل، وأن المسؤوليات والمشاكل تكثر بعد الزواج، من الواضح جداً أن عائلة معتز لن تتركني وشأني، وأنني سأتعرض للكثير من المواقف قبل أن يتقبلوا وجودي

بينهم، ولكن هل من مشاكل أخرى لم أحسب لها حساباً؟

لا أريد أن أفكر بالمشاكل، إنني الأسعد اليوم وأريد أن أعيش اليوم كما لو أنه العمر كله، لقد وصلتُ القمّة.

لم أتعرض لأحمد هذه الأيام، كنتُ حريصة على تجنّبه كما أنه لم يحاول التحدث إليّ، هل لديه بعض المشاكل التي تشغله أم أنه لا يريد التحدث إليّ؟ لستُ أدري، ولكنه ليس على طبيعته.

أحضر لي معتز هدية إلى المتجر، إنه فستان العرس، أبيض لؤلؤي، بعقائد من ألماس، وغطاء مورّد على الرأس، سيحضر الحفلة الكثير من الناس، ولن أعرف منهم أحداً.

عندما أفكر في الأمر، من الغريب أنني لم أعقد علاقات مع أي صديقة طول هذه السنين، ليس لدي من أعزمهم سوى رئيس المتجر السابق، وفيوج إذا كان سيقبل الدعوة، والباقين سيعزمهم معتز، وأعرف أن معظمهم هم أصحاب أعمال شخصية معه، سيكون الحفل رسمياً جداً.

كم أود لو يحضر أحمد، لا أريد أن أقف بين الناس بدونه.

■ ■ ■

■ الفصل الأربعون | أحمد

استيقظتُ في الصباح التالي، تجهزتُ للذهاب إلى المطعم، لا أستطيع أن أتغيب ليوم آخر.

وصلتُ المطعم ولم أجد استقبالاً مناسباً لشخص تغيب عنهم دون أن يعرفوا السبب، ألا يسألون إذا ما كنتُ مريضاً على الأقل؟

هناك خطب ما، معظم العاملين يشيحون بأنظارهم عني، ما الذي جرى؟ أخيراً خرج مدير المطعم لمقابلتي قبل أن أدخل غرفة العمل، استوقفني وأخذني إلى زاوية هادئة، قال: أنا آسف يا أحمد، ليس لديك عمل هنا.

قلتُ: أنا آسف على تغيبي، لن أكرر ذلك.

أشار المدير بالنفي وقال: الأمر ليس كذلك.

سألتُه: ماذا حدث إذن؟

فكر وتنهّد، ولم يجد بداً من الإجابة، فقال: الجميع يتحدث عنك، أنك كنتَ في السجن، لقد سرقتَ.

كيف عرف ذلك؟ لا أحد يعرف شيئاً عني، ولكنني تذكرتُ البارحة، ذاك الرجل تذكرني، هل يُعقل أنه نشر الخبر؟ ولماذا يفعل؟ قال المدير: آسف على ذلك يا أحمد، ولكن الجميع يتحدث عنك، ولا

أستطيع إبقاءك هنا.

قلتُ على الفور: لقد دخلتُ السجن فعلاً، ولكنني اتهمتُ بالسرقة دون أن أدري، لقد كنتُ طفلاً.

هزّ المدير رأسه ثانية وقال: لقد انتشر الخبر يا أحمد، أنا آسف.

تركني المدير وعاد إلى عمله، بعد أعوام من العمل المتواصل، بعد أعوام من المواظبة، بعد أعوام من الإخلاص لم يقضِ معي أكثر من دقيقة ليفصلني، أبهذه البساطة؟

استدرتُ وغادرتُ المطعم، ليس هناك فائدة من المحاولة، فأنظار الموظفين كانت أقسى من أنظار المدير نفسه.

سرتُ في الطريق ألفّ السوق، هل أستحق ذلك؟ لقد قضيتُ فترة في السجن بالفعل، ولكن الحكاية تطول، ألا أستحق منه دقيقة أخرى ليعرف الحكاية؟

وقفتُ تحت شجرة أفكر، لا يا أحمد، أنت تعرف سبباً أهم وأكبر يجعلك تترك العمل في المطعم ببساطة، أنت مريض، ومرضك معدٍ، ولو اكتشف صاحب المطعم ذلك لما انتهى الأمر بفصلك فحسب، بل بالمحكمة أيضاً، سيكون الوضع سيئاً إذا ما انتشر خبر مثل هذا عن المطعم.

ربما كان هذا وقتاً مناسباً لأترك العمل بنفسي، ما كـان علـيّ أن أعمل في مطعم، المخازن مناسبة أكثر.

ولكن النقود لا تكفي، فقد كان المطعم هو عملي الأساسي، بينمـا يساعدني عمل المخزن فحسـب، مـن الآن فصـاعداً علـيّ أن أعتمـد علـى نقود المخازن فقط.

هذا إذا لم يفصلني معتـز، وإذا لم يصـله الخـبر بـأنني كنـتُ في السجن، لا أظن أن الخبر يصله من هالة، ولكنه انتشـر في المطعـم ومـن المنطقي أنه وصل المخازن أيضاً، ربما أبيتُ اليوم دون عمل.

عدتُ إلى المنـزل، وتناولـتُ بعـض الفطـائر، وشـربتُ العصـير، واستلقيتُ إلى أن يحين موعد مناوبتي في المخزن، كانت الساعات تسـير ببطء شـديد، ولم أسـتطع النـوم، كانـت الأفكـار تأخـذني إلى البعيـد، هالة... ماذا تفعلين؟

أخيراً حلّ المساء، وحان وقـتُ العمـل –إذا مـا بقـي لـي عمـل– وذهبتُ إلى المخازن كأي يوم عادي، وتناسيتُ أنـني قـد تغيبـتُ عـنهم بالأمس، ودخلتُ كما كنتُ أفعل كل يوم، ليس هناك من جديد.

ربما نجحتْ هـذه الطريقـة، أو ربمـا لم يصـل خـبر السـجن إلى المخازن، فقد كان الاستقبال عادياً وكأنني كنتُ هنـا في الأمـس وسـأظل

إلى الأبد، استلمتُ العمل، وغادر الجميع، وبقيتُ وحدي مجدداً ولكـن في العمل على الأقل.

جلستُ على الكرسي أفكر، لماذا لم يفصلني معتـز؟ هـل يحـاول إرضاء هالة؟ ربما، ولكنني على يقين أنه يكرهني، هل من المعقـول أن أعمل لديه بعد كل هذا، ولكن أين لي أن أجد عمـلاً جديـداً؟ لم أسـتطع التقـديم علـى أي عمـل رسمـي، كمـا لم أسـتطع العمـل في الشـركات والمستشفيات بسبب الفحص الطبي، أما الآن فلا أستطيع العمل في أكثر من مجال بسبب الماضي التعيس، ليس لدي خيار آخر، أرجو أن يكون معتز قد نسي أمري لا أكثر.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والأربعون | هالة

أمي، لقد حان الوقت.

إنني عند المصفقة أتحضّر للزفاف، بقيت تسع ساعات على الحفلة وقد أقضي خمساً منها هنا بين ثوب ومكياج.

لستُ معتادة على ذلك، وأعترف أن الوقت الذي قضيتُ فيه كان طويلاً ومملاً جداً، ولكنني لا أستطيع التوقف عن التفكير، أنا خائفة، إنني أفعل ذلك وحدي، هل هو التصرف الصحيح؟

كلما تذكرتُ أنني خرجتُ بينما كان أحمد نائماً أشعر بالضيق، عليه أن يكون متوتراً مثلي، عليه أن يلف المدينة ذهاباً وإياباً، عليه أن يتأكد أن كل شيء معد، أليس هذا ما كنتُ أتصوره عن الزفاف؟

لا أظنه نسي الموعد، ولكنه لم يرد أن يراني، اليوم لن أعود إلى المنزل يا أحمد، اليوم سأنام على فراش آخر، لم يعد هذا منزلي، منزلي بات بعيداً عنك، ولستُ أدري إذا ما كنتَ ستدخله.

لماذا أنتَ عنيد هكذا؟

قاطعتْ مصففة الشعر أفكاري: ألا تبتسمين قليلاً، إنه يوم كبير.

نظرتُ إلى وجهي في المرآة، هذه ليستْ أنا، ظننتُ أنه تأثير

المكياج ولكنه لم يكن كذلك، لم أكن متوترة هكذا في حياتي، لم أكن منشغلة في التفكير إلى هذا الحد حتى في أصعب الظروف، لا أستطيع أن أبتسم، أشعر أنني سأبكي.

رنّ الهاتف، إنه معتز، رددتُ عليه وأعترف أنني هدأتُ لحظة سمعتُ صوته: هالة، يوم زفاف سعيد، هل كل شيء على ما يرام؟

أجبته: نعم، ما يزال هناك الكثير.

قال: هنا كذلك، لدينا عمل كثير ولكن كل شيء تحت السيطرة، أردتُ أن أطمئن عليك، هل أبعث لك أحداً يساعدك؟

أجبتُ: لا، أنا على ما يرام، سأكون جاهزة قبل الموعد.

قال: أنا واثق أنك ستكونين الأجمل، أراك قريباً.

أغلقتُ الهاتف، إنني لستُ وحدي، معتز معي.

لم أعد أشعر بالساعات، بدأتُ أشعر بالدوار عند المصففة، إلى أن سمعتُها تقول: لقد انتهينا، أنتِ جاهزة.

فتحتُ عيني أمام المرآة، لا أصدق أن هذه الفتاة هي أنا! ثوب لؤلؤي فاخر بشرائط تجرّ على الأرض، وطرحة تغطي كامل الرأس كحجاب، وقفازات تغطي ما أفسدته السنين، ومكياج أنيق، أبدو كالأميرات.

أمي، إنني جاهزة.

بعث معتز سيارة خاصة لتستقلني إلى القصر، وهناك كان حشد كبير من الناس في انتظاري، استطعتُ أن أميّز منهم القاضي، فقد كانت ثيابه مختلفة، بينما لم أعرف أحداً من الباقين، أين معتز؟

كان القاضي من اصطحبني إلى الداخل، وجلستُ إليه في غرفة الاستقبال في القصر الذي أدخله لأول مرة. كل شيء يلمع هنا، البلاط من الرخام، والأرائك من الخيزران، والنقوش على الجدران متقنة جداً، كما أن الإنارة باهرة بالثريات العديدة.

تحدث إليّ القاضي يسألني عن أحوال والدي، أجبتُه أنه بخير ولكنه لا يستطيع أن يحضر الحفل، فأخرج من جيبه توكيل الزواج، وأخبرني أنه من سيتكفل بالأمر، وسألني أخيراً عن رأيي قبل أن نخرج إلى الناس، سيكون من المحرج جداً أن أردّ معتزاً بعد هذا الجمع الخفير، أجبته أنني سأوافق، وأنني مقتنعة بما أفعل.

دخلتْ أم معتز الغرفة، لا تبدو سعيدة رغم أنها ترتدي أجمل الثياب، بل لم أرها بهذا الجمال من قبل، شعر ناعم وثياب زرقاء تناسبها تماماً، سألتْ إذا ما كان كل شيء معداً، وإذا ما كنتُ جاهزة، وإذا ما كان الشراب والحلوى في مكانها، وأشياء أخرى لم أفهم

مغزاها، إنها متوترة جداً.

نظرتْ إليّ بتمعّن من رأسي إلى أخمص قدمي، ثم همهمتْ قائلة: لا بأس.

تركتني، ما تزال غير راضية عن كل ما يجري، أين معتز؟ أريد أن أراه قبل أن يتملكني الندم، أشعر بالخوف هنا، أين أنت؟

هذا أكثر ما كان يعجبني في معتز، أنه يعرف ما يفعل، ومتى وأين يكون، فقد خرجتْ والدته من الحجرة ودخل بعدها مباشرة، نهضتُ أنظر إليه، وجهه لا يخلو من القلق أيضاً، هذه أول مرة أشعر أنه متوتر.

اقترب مني بسرعة، وقف أمامي وقال: هل كل شيء على ما يرام؟

أجبتُ: نعم.

ابتسم ليزيح التوتر عن وجهه، ثم قال: تبدين رائعة.

ابتسمتُ، بات معتز الشخص الوحيد الذي يساعدني على الابتسام، قال: سيكون كل شيء على ما يرام، لقد نجحنا.

نجحنا، لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة له أيضاً، أدعو الله من كل قلبي أن يكون قرارنا هو القرار الصحيح، وألا أندم عليه في المستقبل.

■ الفصل الثاني والأربعون | أحمد

أشرقتْ شمس صباح الخميس، اليوم المنتظر.

كانت هالة قد خرجتْ منذ الصباح الباكر، هذه المرة أعرف أنها لم تذهب إلى المتجر.

ليس لدي عمل صباحي، بقيتُ ألف الشقة الصغيرة جيئة وذهاباً، ماذا أفعل؟ كيف سأتصرف؟

رن الجرس، فتحتُ الباب فإذا به فيوج إلى جانبه يقف منسيّ، أدخلتُهما فجلسا في الصالة، قال فيوج بحذر: سيحتفلون اليوم.

قلتُ وفي حلقي غصّة لا أستطيع أن أخفيها: أعلم.

قال منسيّ بحدّة: ماذا ستفعل؟

هذا ما كنتُ أفكر فيه لأيام، قلتُ: ماذا أستطيع أن أفعل؟

قال منسيّ: لديك خياران، أن تذهب أو لا تذهب.

قلتُ: لستُ أدري.

قال: وإن ذهبتَ فلديك خياران، أن تقبل أو لا تقبل.

تبدو كل الخيارات مزعجة، أليس هناك خيار اسمه "فقدان الذاكرة" "لا مبالاة" "إلغاء اليوم" "مسح معتز من الوجود"، أريد أن أظل نائماً اليوم، بل الأسبوع، بل لأشهر، أريد أن أخرج من هذه الدنيا.

قاطع فيوج أفكاري: منسيّ يقترح أن أذهب إلى الحفل.

قال منسيّ على الفور: حتى وإن لم يذهب أحمد، فـلا يجـب أن نترك هالة وحدها.

أترك هالة وحدها، متى فعلتُ ذلك؟ لا إنها هي من يتركني.

قال فيوج: لا أحب ذلك، ولا أحب معتزاً، ولكنني سأذهب مـن أجلها.

سيذهب من أجلها، ألم أكن صاحب هذه العبارات من قبل، ماذا جرى؟

قال منسـيّ: لـديك الوقـت الكـافي لتفكـر، سمعـتُ أنـك تركـتَ المطعم.

تنهّدتُ وألقيتُ بجسدي على الأريكـة مستسـلماً، ولكـن منسـيّاً قال: أو أنك فُصلتَ.

قلتُ: لماذا يحدث كل شيء في آن واحد؟

قال: لأن الأمور متعلقة ببعضها.

نظرتُ إليه أسأله: ماذا تعني؟

اقترب منسيّ مـني وقـال: ألم تفكـر لـماذا يحـدث ذلـك في هـذه الأثناء، ألا تظن فعلاً أن معتزاً هو من دبّر لك كل ذلك؟

قلتُ: ولكنها الحقيقة، لقد ألقي القبض عليّ في الماضي بتهمة السرقة.

قال منسيّ: ولماذا يتذكرون ذلك الآن؟

قلتُ: بسبب الرجل الذي التقاني.

قال: ولماذا يحضر الآن؟

قلتُ: لستُ أدري.

قال: إنها ليستْ مصادفة يا أحمد، لا تكن ساذجاً.

قلتُ: إلامَ ترمي؟

وقف وبدأ يسرد فرضيته: بما أن معتزاً وصل إلى والدك فلا بد أنه قد حصل على معلومات كثيرة عنكما، ومن أهم المعلومات أنك قضيتَ فترة في السجن بتهمة السرقة، وهذه ورقة رابحة يستخدمها ضدك، ولكي لا تفسد الحفل رمى الورقة في الوقت والمكان المناسب، وبدلاً من أن يفصلك من المخزن أيضاً فضّل أن تبقى مديناً له.

يا إلهي، هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟ لا أصدق أن أحدهم يفكر بهذه الطريقة، وهالة ستتزوج منه! قلتُ: يجب أن أخبر هالة.

تحركتُ إلى الباب فأمسك فيوج يدي بقوة وقال: هل أنت أحمق؟ إلى أين تذهب؟

قلتُ: يجب أن تعلم هالة ما يفعله معتز.

قال: وهل ستصدقك؟

قلتُ: هالة دائماً تصدقني.

قال في أسىً: ليس اليوم يا أحمد، ليس اليوم.

ترك يدي، ثم قال: ستظن أنك تريد فقط أن تلغي الزفاف بكل ما أوتيتَ من قوة.

قلتُ: هذا صحيح.

قال: ليس لديك دليل، وهذا هو أسلوب معتز، لا أدلة ضده أبداً.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والأربعون | هالة

أمي، لقد حان الوقت، إنني أجلس هنا أنتظر الإشارة لأسير بين الناس إلى المنصة.

أمي، هناك يقف القاضي الموكل بأمري، كلمة واحدة وينتهي كل شيء.

أمي، أشعر بتوتر، لو كان أحمد إلى جانبي لكنتُ الأسعد في الدنيا، ولكنه عنيد جداً، ألا يعلم أنني سعيدة؟

قدمتْ إليّ الموظفة بسرعة، لقد حان الوقت، عليّ أن أسير بين الناس، ألا يفترض أن يسير أحدهم معي؟

سمعتُ أصواتاً في الغرفة المجاورة، ثم فتح الباب فإذا بها أم معتز، هناك من يدفعها لتدخل الغرفة! اعتدلتْ في وقفتها عندما رأتني أنظر إليها، فقالت الموظفة بسرعة: ليس هناك وقت، الجميع في الانتظار.

قالت السيدة ناهد في كبرياء: أنا جاهزة.

اقتربتْ مني، وقد كنتُ أظن أنها آخر شخص سيدخل إلى جانبي، ولكنها كانت الحقيقة.

ليس لدي أهل، أمي توفيت، والدي ليس في المدينة، أخي لا

يريد أن يحضر، عليهم أن يتدبروا الأمر، لابد أن معتزاً طلب إليها أن تدخل إلى جانبي، لستُ أدري إذا ما كان ذلك أمراً حسناً، ولكن على الأقل ستأخذ عني بعض الأنظار القادمة.

أمسكتْ بذراعي دون أن تقول أي كلمة، وفتح الباب إلى الصالة الكبيرة، وسرنا بين الجمع الغفير.

كان الحضور موزعاً بين يمين وشمال، يقف الجميع حول الطاولات استقبالاً لنا، نظراتهم موجهة إلينا بطريقة لا تحمل أي حنان أو محبة، ماذا يريدون؟ كلهم هنا يملكون كل شيء، فماذا يريدون مني؟

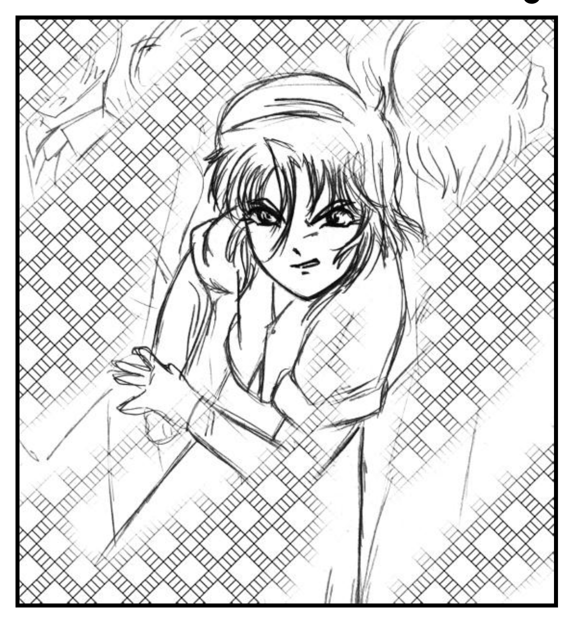
هناك على زاوية بعيدة يقف فيوج، أستطيع أن أراه من بعيد، لماذا لا يتقدم؟ لماذا لا يكون في الصفوف الأمامية؟ أنت الوحيد الذي حضر من أجلي، لماذا تجلس بعيداً؟

كانت تلك الخطوات الأطول في حياتي، كم شعرتُ أن معتزاً بعيد، وأنني أصل إليه ببطء وعناء، ولكنني سأصل، لقد قطعتُ الشوط الأصعب والآن أنا هنا، لأنهي ما بدأتُ وأفتح صفحة جديدة في حياتي، لأغلق صفحات الشقاء إلى الأبد وأفتح صفحات الهناء والراحة.

وصلنا أخيراً، ووقفتُ إلى جانب معتز وكان القاضي يقف أمامنا،

بدأتْ الرسميات، حديث قصير عن الخير في الزواج قدّمـه القاضـي، لم أسمع منه كلمة واحدة، كـل مـا أعرفـه أنـني أقـف أمـام معتـز، وأنـه يبتسم لـي، ثـم سـأله القاضـي إذا مـا كـان يقبـل الـزواج بـي، فأجـاب بالإيجاب بسرعة وبساطة، إنه واثق مما يفعل، وهذا يبعـث في نفسـي ثقة أكبر.

التفت إليّ القاضي، وسألني السؤال ذاته، بينما كنتُ أبلع ريقي لأنطق بالجواب سمعتُ فوضى في الصالة، نظـرتُ إلى النـاس فـإذا بـهـم ينظرون إلى مكان واحد، يفتحـون لـه طريقـاً ليمـر بيـنـهم، هنـاك مـن يقتحم الجموع، إنه أحمد!



لا أصدق مـا أرى، اقـترب أحمـد مـن المنصّـة، وصـعد بخطـوات جريئة إلينا، ونظر بحدّة إليّ، هل جئتَ تفسد الأمر يا أحمد؟

بدأتُ أشعر بحرارة، إنني أتعرّق، لا يبدو أحمد مسـروراً علـى الإطلاق، لا تحرجني أرجوك، هذا يومي.

حدّق أحمد فيّ فترة ثم في معتزّ وقال: أنا لا أحـب هـذا الرجـل، ولا أظنه مناسـباً لـكِ، ولسـتُ سـعيداً بهـذا الـزواج، ولكـن الأسـوأ أن تتزوجي رغماً عني.

نظر إليّ وقـال: أنـا موافـق علـى هـذا الـزواج، مـا دام هـذا مـا تريدينه.

نطق أحمد هذه الجمل بسرعة، وغادر القاعة كمـا دخلـها، هـل يتوجب عليّ أن أركض إليه، أن أجبره على البقـاء، أن أشـكره، لسـتُ أدري، لم أعد أفهم شيئاً.

لمحتُ فيوج يركض خلف أحمد، لقد غادر أيضاً، إنني وحدي.

سمعتُ صوت معتز يقول: هلاّ تابعنا.

اختفتْ الابتسامة عن وجه معتز، لم أعد أعرف أين أنـا، ومـاذا أفعل، وماذا ينبغي عليّ أن أفعل.

حاول القاضي تهدئة الموقف، وأعـاد سؤاله علـيّ كـأن شـيئاً لم

يكن، هل أقبل بمعتــز زوجــاً لــي، نظـرتُ إلى معتــز أنتظـر ابتسـامته المعهودة ولكنه لم يستطع إخفاء استيائه مما جـرى، بـل لم أعـد أدري إذا ما كان ما يزال يريد الزواج بي.

عمّ الهدوء، الجميع ينتظر إجابتي التي يبـدو أنـني تـأخرتُ في نطقها، قلتُ: لقد أجاب أخي للتو، أليس كذلك؟

قال معتز بصوتٍ لا يسمعه سواي: إجابتك هي الـتي تعـني كـل شيء.

نظرتُ إلى القاضي وقلتُ: نعم، أقبل.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والأربعون | أحمد

خرجتُ من الحفل غاضباً، لم أشعر بهذا الغضب في حياتي، شعرتُ بأحدهم يخرج خلفي، بل يحاول اللحاق بي، ولكنني كنتُ أسير بسرعة، سرعة لم أعهدها من قبل، سرعة لعلّها تنسيني ما يجري، سرعة لعلها تسبق الزمن وتعود بي إلى الماضي، لا أريد أن يصلني أحد، لا أريد أن أتحدث إلى أحد.

ركبتُ أول حافلة في طريقي، لستُ أدري أين تذهب، المهم أن أبتعد، سمعتُ أحدهم يسألني أين سأنزل، ولكنني أشرتُ له بالمسير، فقط المسير.

أشعر بنار تغلي في صدري، بطنين يرن في أذني، لستُ أشعر بما يشعر الناس، لقد فقدتُ الحواس المعهودة، لستُ أدري أين أنا، لستُ أرى الطريق، يداي تمسكان ببعضها فقط، أنا وحدي، وليس من شيء حولي.

لستُ أدري كم مضى من الوقت إلى أن ضاق بي السائق، أوقف الحافلة وطلب إليّ أن أنزل، وأن أدفع ضعف الأجرة، لستُ أدري لماذا.

أدخل يده في جيبي عنوة، وأخذ محفظتي، وبحث فيها عن النقود، لم يكن فيها الكثير ولكن يبدو أنه اكتفى، وألقى إلي

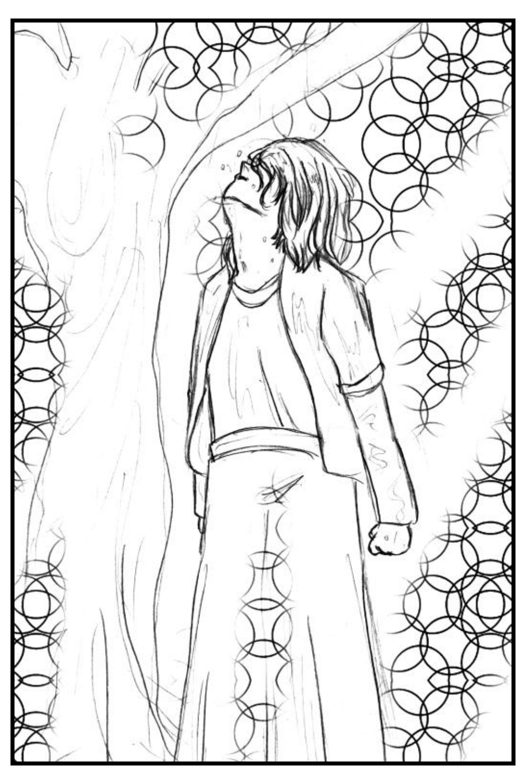
بالمحفظة فارغة، وألقى بي خارج الحافلة.

لستُ أدري أين أنا، وكيف سأعود، وهل هناك مكان أعود إليه؟ ماذا سأفعل في المنزل؟ ولماذا أعمل؟ لم يعد هناك سبب في حياتي.

شعرتُ بشيء سقط على وجنتي، إنه أول إحساس منذ ساعات، واحدة تلو الأخرى إلى أن هطل المطر، إنه يهطل بغزارة، لا أحد في الطريق سواي، وهناك شاطئ بأمواج عاتية، اتجهتُ إليه، إنه يضرب الصخور أمامه بعنف، وهناك شجرة كبيرة قريبة منه، اتجهتُ إليها أنظر إلى الأمواج.

أشعر أنني بدأتُ أحس بما حولي، بدأتُ أسمع العاصفة تضرب ما يواجهها، بدأتُ أحس بقطرات الماء على جسدي، ولكنني ما زلتُ أرى معتزاً يأخذ بيد هالة إلى عالمه الخاص.

كان المطر غزيراً، بلل كل جزء من جسدي، واختلط بدموعي التي لطالما حبستها من أجل هالة، دموع لفراق والدتي، دموع لتصرفات أبي، دموع لحياتنا القاسية باحثين عن لقمة الخبز، كلها انفجرتْ مرة واحدة، كلها لأن هالة باتت بعيدة.



بقيتُ وحدي أبكي، تنهمر دموعي كما ينهمر المطر مـن فـوقي، كيف أوقف تلك الدموع؟ وماذا أفعل بعد اليوم؟ ربما لا أقدر على رؤية هالة. وماذا عنها، هل تستطيع أن تعيش بعيداً بكل بساطة؟

جلستُ أضم جسدي، وأخفي رأسي على رجلي، لا أشعر بـالبرد رغم العواصف، بل أشعر بجسدي يغلي، لا أريد أن أعـود إلى البيـت، لا أريد أن أفعل شيئاً، لا أريد أن يطلـع نهـار جديـد، لا أريـد أن أرى أحداً.

شعرتُ بأحدهم يقترب، من خرج في هذا الطقس السيء غيري؟ رفعتُ رأسي قليلاً لأنظر إلى من يقف إلى جانبي، ولدهشتي كانت دلال، ترتدي ثوباً خمرياً قاتماً للحفلات، وتلف رقبتها بشال ذهبي، وشعرها الأشقر قد أفسد المطر تسريحته تماماً، بل إن ثيابها منتقعة بالماء.

كانت آخر من توقعتُ أن أرى، خاصة في طقس مثل هذا وبحالة كهذه، ولكنها قالتْ: لقد بحثتُ عنك في كل مكان.

ركعتْ إلى جانبي وقالتْ: أنت أخو هالة، أليس كذلك؟

قلتُ: ماذا تفعلين هنا؟

قالتْ: لقد خرجتَ من الحفل وكان الانزعاج بادياً عليك، لحقت بك ولكنك كنتَ تسير بسرعة كبيرة.

ولماذا تلحقين بي، كان السؤال التالي، ولكنني لم أنطقه، وفضلتُ البقاء صامتاً، ولكنها جلستْ إلى جانبي وقالتْ: هل تعلم، أنا من كان يفترض أن تكون زوجة معتز.

رفتُ رأسي بسرعة لهذه المفاجأة، ونظرتُ إليها ولكنها تابعتْ الحديث دون النظر إليّ، كانت تنظر فقط إلى الأمواج، ابتسمتْ وقالتْ: لا أخفي عليك أنني أشعر بشيء من السعادة، لطالما كنتُ مختلفة عن

معتـز، ولطالما كـان يظـنني غريبـة، لم يجمعنـا شـيء مـن قبـل، ولم نتحاور في شيء نحبه سوياً، كنتُ ابنة عمه والأقـرب إليـه مـن حيـث النسب والمال، هذا كل ما في الأمر.

تذكرتُ لوهلة حديثنا السابق، لقد قالـتْ أنهـا تعـرف معتـزاً، ولم تشأ أن تتحدث بسوء عنه مباشرة، الآن اتضح كل شيء. نظرتْ إليّ أخيراً وقالتْ: لماذا لم تشأ أن تتزوج أختـك هالـة منـه؟ سـيجعل منـك رجلاً سعيداً.

قلـتُ: ربمـا سـيجعل مـني رجـلاً ثريـاً، ولكنـه لا يسـتطيع أن يجعلني رجلاً سعيداً.

ابتسمتْ دلال أكثر، وهذه المرة شعرتُ أنني أنظـر عـن قـرب إلى فتاة فاتنة للمرة الأولى، أبعدتُ نظري عنها، ولم أعـرف أيـن أرسـله، فاستقر بين قدمي، قالتْ: ربما يجمعنا شيء ما.

سكتنا لفـترة، نظـرتُ إليهـا وقلـتُ: ثيابـك قـد تبللـت تمامـاً، ستصابين بالبرد.

قالتْ: أفعل كما تفعل أنتَ.

قلتُ: ليس عليكِ أن تفعلي ذلك، عودي قبل أن يقلقوا عليكِ.

سألتْ: وهل ستكون بخير؟

قلتُ: لا تقلقي عليّ.

نهضتْ وقالتْ: سنلتقي مجدداً، ولا تقلق على هالـة، إن معتـزاً يعتني بما يملك جيداً.

بما يملك...

غادرتْ دلال، وأعترف أنني قد هـدأتُ قلـيلاً، لقـد لحقـتْ بـي وبحثتْ عني طويلاً، إنـها فعلاً مختلفة.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والأربعون | هالة

أمـي، انقضـى الحفـل علـى خـير، ورضـي أحمـد بـالزواج علـى مضض، ولكن معتزاً لم يكـن سـعيداً، إنـه لا يحـب رؤيـة أحمـد علـى الإطلاق.

بعد مباركاتٍ طالتْ غادر الجميع، أستطيع أن أجـزم أن أغلبيـة الحاضـرين لا يحبوننـا، ولا يتمنـون لنـا الخـير، وقـد عـزمهم معتـز بعلاقة رسمية تـربطهم لا أكثـر، كيـف يستطيع أن يجامـل كـل هـذا الجمع؟

بعد إرهاق يوم حافل تعرّفتُ على عائلة معتز، إنـه ابـن وحيـد لوالديه، والده دائم الانشغال بالسفر، وقد حضر الحفل وغـادر سـريعاً إلى عمله في بلدان بعيدة، لسـتُ أدري إذا مـا كـان راضـياً عـن الـزواج، ولكن ما أنا أكيدة منه أن السيدة ناهد ليستْ كذلك.

أخـيراً دخلنـا زاويتنـا الخاصـة في القصـر، المكونـة مـن ثـلاث جلسات استقبال في صالة ضـخمة تحـيط بهـا النـوافير، وأربـع غـرف نوم، ومطبخان، وثلاث حمّامات، وغرفة طعام، ومكتبة.

يبدو كل شيء جديـداً، ولا أظـن أن أحـدهم كـان يعـيش في هـذه الزاوية، ربما يدخلها معتز للمرة الأولى كذلك!

لم يكن معتز راضياً، إنه منزعج مما جرى، ألقى بمعطفه على الأريكة يقول: هذه مهزلة، لم أر حفلة أسوأ من هذه في حياتي.

أريد أن أحاول تهدئته، ولكنني ما إن اقتربتُ منه حتى نظر إليّ وقال في انزعاج شديد: ماذا عنى بما فعل، أن يحضر أمام الجميع ليقول أنه لا يحبني، ولا يريد هذا الزواج، لقد أهانني أمام الجميع في ثوان.

لم أستطع الرد، أحمد أبسط من أن ينوي إهانة أحدهم علناً، لقد حضر من أجلي، ولكن معتزاً لن يفهم ذلك على الإطلاق، ماذا عليّ أن أفعل؟ أنا الآن زوجة معتز، ولكنها المرة الأولى التي أراه فيها منزعجاً هكذا، كيف يهدأ؟ ماذا أفعل؟

ألقى بجسده على الأريكة بكل انزعاج، وتأفف بصوت مسموع، لا أظن الكلمات كافية لتهدئته، تركته واتجهتُ إلى المرآة في الصالة أنظر إلى نفسي، إنني فعلاً أبدو جميلة بالثياب البيضاء، وبهذا المكياج الناعم، بدأتُ أنزع الطرحة من على رأسي، وأفك الحجاب للمرة الأولى في غرفة ليستْ غرفتي، أمام شخص ليس أحمد.

بهدوء انساب شعري الطويل على كتفي، ونزعتُ المعطف الأبيض، فكشف عن ذراعان ناعمتان، إذا ما كنتُ حريصة على أن

يستمر هذا الزواج فعليّ أن أكون ذكيّة.

ناديتُ بصوتٍ لطيف يسمعه من الصالة الأخرى: معتز عزيزي، هلاّ أتيتَ إلى هنا قليلاً.

سمعتُ ردّه: ما الأمر؟

قلتُ بصوتٍ لا يدعو إلى القلق: هناك شيء غريب في الصالة.

نهض ودخل الصالة، إنها المرة الأولى التي يراني فيها في حُلّة كاملة، أقف أمامه بثقة كبيرة لما أملك، ربما لستُ غنية، ربما لستُ نبيلة، ولكنني جميلة وذكية، لقد أراد ذلك وله ذلك.

وقف معتز عاجزاً عن التعبير، أستطيع أن أجزم أنه نسي ما كان منزعجاً من أجله، وما حصل في الحفل، وأحمد، والمعزومين، والعالم أجمع، إنني فقط من يرى ومن يسمع ومن يعي.

أخيراً ارتسمتْ على وجهه ابتسامة، واقترب مني، وأمسك يدي وقبّلها، ثم رفع يده ليلامس بشرتي، إنها المرة الأولى التي نتلامس فيها، إنه يجيد ما يفعل.

■ ■ ■

■ الفصل السادس والأربعون | أحمد

لستُ أدري كم كانت الساعة عنـدما وصـلتُ إلى المنـزل، ولكـنني وجدتُ فيوج مع منسيّ في انتظاري، إنهما يجلسان أمام الباب.

نهـض فيـوج سـريعاً عنـدما رآنـي، ركـض إلـيّ وقـال: أخـيراً حضرتَ، لقد قلقنا عليك، أين كنتَ ولماذا لا تجيب على الهاتف؟

قال منسيّ: لقد أخبرتك أنه سيعود بعد حين.

نظرتُ إليهما وسألتُهما: منذ متى وأنتما جالسان هنا؟

قال فيوج: بحثنا عنك مذ خرجـتَ مـن الحفـل ولكننـا لم نعثـر عليك، فقررنا أن ننتظرك.

كل هذا الوقت!

قال منسيّ: أين كنتَ؟

طأطأتُ رأسي، وفتحتُ بـاب الشـقة وأنـا أقـول: كنـتُ أريـد أن أكون وحدي.

دخلتُ الشقة ودخلا من بعدي، أمسك فيوج بمعطفي الـذي كـان مغموراً بمياه المطر، وبحث عن ثيـاب أسـتبدلها مـن الخزانـة، بينمـا أشعل منسيّ التدفئة في منتصف الصالة.

استبدلتُ ثيابي، واتجهتُ إلى المطبخ لأسكب العصـير لثلاثتنـا،

لم أكـن أشـتهي الأكـل، ولكـنني لم أُرد الحـديث إلى أي أحـد، حتـى إليهما، رغم أنني واثق أنهما ينويان المساعدة.

أخرجـتُ ثلاثـة كـؤوس مـن الخزانـة، ووضـعتُها علـى طـرف الطاولة، وما إن التففتُ حتى أمسك علبة العصير حتى ضـربتْ ذراعـي بالكؤوس، سقطتْ إحـداها علـى الأرض والأخـرى في حـوض المجلـى، بينما أمسكتُ الثالثة على الطاولة.

تبعثر زجاج الكأس على الأرض، بينما انشق الكأس في المجلـى قليلاً، حاولتُ الإمساك بـه فجـرحني، بـدأتْ يـدي تنـزف، أمسـكتُ المنشفة ولففتُ بها يدي بسرعة، بينما حضر فيوج ومنسيّ لمساعدتي.

بدأ فيوج يجمع الزجاج من على الأرض، بينما حـاول منسـيّ أن يطمئن على يـدي، حاولـتُ أن أثنيـه عـن ذلـك، وأبعـدتُ يـدي كـي لا يلمس دمي، لم أنـس لحظـة واحـدة في حيـاتي أن هـذا الـدم يحمـل في جعبتـه أسـوأ الميكروبـات في الـدنيا، واعتـدتُ أن أكـون حريصـاً علـى المحافظة على مسافة بيني وبين الآخرين فيما يخص هذا المرض.

عندما أبعدتُ يدي عن منسيّ حاول على الأقل تنظيـف المجلـى من الزجاج، ولكنني منعته من ذلك أيضاً، فقد كـان دمـي يلطـخ المكـان والزجاج، طلبتُ إليه أن يبتعد، بل طلبتُ إليهما أن يتركا كـل شـيء،

وأخيراً طلبتُ إليهما أن يغادرا المنزل.

قال منسيّ: ماذا بك؟ أنت تتصرف كالأطفال!

قلتُ: أنا لم أكن طفلاً في حياتي، أرجوكما اتركاني وحدي.

نظر فيوج إلى منسيّ الذي أصرّ على البقاء، لأنه يعلم أنني في حاجة إلى من يقف إلى جانبي اليوم أكثر من أي يوم آخر، وأنني لا أعني ما أقول فعلاً، ولكنني تركتُ المطبخ وجلستُ في الصالة ليبعدا اهتمامهما عن الزجاج المكسور، كشفتُ عن يدي التي كانت ما تزال تنزف.

بعد صمتٍ قصير طلب منسيّ من فيوج أن يغادر، وأن يتركه وحده إلى جانبي، لم يناقش فيوج الأمر أكثر، فلم أكن أنوي الحديث إلى أحدهم، اقترب مني وقال: سيكون كل شيء على ما يرام، لا تؤذِ نفسك.

غادر فيوج وتركني مع منسيّ وحدنا، جلس منسيّ إلى جانبي ينظر إلى يدي التي أشد عليها بالمنشفة، قال: ما نوع المرض الذي تخفيه؟

لا يُعقل أنه اكتشف الأمر بهذه السرعة، نظرتُ إليه أقول: عفواً؟

ولكنه قال: أنتَ لا تريدني أن ألمسك، ولا تريد أن تجري فحصاً للوظيفة، هناك ما تخفيه، أهو الملاريا، السلّ، التهابات في الكبد؟

طأطأتُ رأسي، إنه ليسَ صلباً واثقاً فحسب، إنه ذكي فعلاً، تابع يسأل: إيدز؟

لم أحرّك ساكناً، صمتنا فترة إلى أن نهض منسيّ ليعود إلى المطبخ وينظّف المكان، حاولتُ أن أظلّ صامتاً ولكن ما إن سمعتُ صوتَ الزجاج يتحرك في المجلى حتى قلتُ بصوتٍ يسمعه: إنه الإيدز.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والأربعون | هالة

إنها المرة الأولى التي لا أحلم فيها بأمي، كل ما رأيتُ كان أحمد يركض مبتعداً، إنه بعيد ولكنني واثقة أنه هو، يبتعد أكثر فأكثر...

فتحتُ عيني، إنني على فراش مختلف اليوم، في غرفة واسعة برّاقة، تزيّنها اللآلئ في كل زاوية، وتتدلّى من سقفها ثريّا كبيرة، وإلى زاوية الغرفة هناك نافورة صغيرة، أسمع صوتَ المياه فيها فيشعرني بالراحة والهدوء.

الأهم من ذلك أن معتزاً كان إلى جانبي، يغمض عينيه باستسلام لم أعاينه في وجهه من قبل، إنه ينام بهدوء، وجهه بات كالأطفال، هذا هو الرجل الذي يحصل على كل ما يريد، ولكنك نسيتَ شيئاً يا أحمد، أنا أيضاً أحصل على كل ما أريد.

أردتُ أن أسير في الشقة لأتعرف على مرافقها، ولكنني أيضاً لم أكن أريد أن يستيقظ معتز دون أن أكون إلى جانبه، يجب أن أكون أول ما يرى اليوم، أول ما ستقع عيناه عليه، أما الشقة فسيطول بقائي فيها، ولدي الوقتُ الكافي لمعرفة كل التفاصيل الصغيرة.

بقيتُ مستلقية أنتظر اللحظة التي يفتح فيها عينيه، ترى أين هو الآن، وبماذا يحلم؟ أي نوع من الأحلام تراوده؟ وهل يعلم أنني

أحلم بوالدتي كل يوم مذ توفيـت؟ وهـل عليـه أن يخمّـن أنـني حلمـتُ بأحمد اليوم دون كل الأيام؟

لن أخبره بذلك بكل تأكيد، ولكن الفضول يعتريني لأعلـم في أي جزء هو من العالم الآن، هل أنا هنـاك أيضـاً؟ هـل حجـزتُ جـزءاً مـن أحلامه؟ متى يستيقظ عادة؟ هـل علـيّ أن أحضّـر لـه شـيئاً مـا قبـل أن يستيقظ؟ هل هو معتاد على روتـين معـين؟ لـدي الوقـت الكـافي لمعرفـة التفاصيل الصغيرة، ولكنني أريد أن يكون اليوم مميزاً، لا بل كل أيامنا يجب أن تكون مميزة.

فجأة سمعتُ صوتاً يرن في الشقة، إنـه يـدق كمـا تـدق السـاعات الكـبيرة ولكـن صـوته ألطـف وأرق، نظـرتُ إلى السـاعة إنهـا الثامنـة صباحاً، وقد بدأ معتز يفتح عينيه.

نظر معتز إلى الساعة إلى جانبه بحركـة روتينيـة معهـودة، ثـم نظر إلى ناحيتي واستوقفه وجـودي إلى جانبـه للحظـة، ابتسـم وقـال: صباح الخير، منذ متى أنت مستيقظة؟

أجبتُ: نصف ساعة تقريباً، ما كان ذاك الصوت؟

رفع جسده بتثاقل وأجاب: إنه منبّه.

قلتُ: لقد رنّ في أنحاء المنزل كله!

قال: إنه منبه الساعة الثامنة للجميع، كلّنا نستيقظ في نفس الوقت، ونتناول الإفطار معاً.

إنه روتين محدد أكثر مما ظننت، قلتُ: مع من تتناول الإفطار؟

أجاب: ستكون والدتي هناك، إذا ما كان والدي في المنزل فسيكون معنا، وهذا مستبعد.

توقف لحظة وحدّق فيّ وقال: ومن اليوم ستتناول زوجتي الإفطار معنا.

ابتسمتُ، ولكنني أعترف أنني كنتُ أفضل أن نتناول الإفطار وحدنا.

نهض من الفراش على الفور ليستبدل ثيابه، فهمتُ على الفور أنه يتوجب عليّ أن أفعل الشيء ذاته وإلا تأخرتُ عن الإفطار.

خرجنا من جزئنا الخاص في المنزل إلى الصالة الرئيسية، هنا كان زفافنا، وهنا حضر أحمد، نظرتُ إلى معتز أرجو ألا يكون قد تذكر الأمس من جديد، ولكنه كان هادئاً يتجه إلى غرفة المائدة بشكل مستقيم.

دخلنا الغرفة، إنها المرة الأولى التي أدخلها فيها، كما في كل أرجاء المنزل كان البلاط برّاقاً، والثريا كبيرة، والمكان نظيفاً ومنظّماً

بعناية، كانت الطاولة كبيرة، يحوطها أربعة عشر كرسياً، على الطرف البعيد تجلس السيدة ناهد في انتظارنا، كانت ترتدي ثياباً جميلة ناعمة، أشبه بروب حريري أحمر، أما أنا فارتديتُ ما أشاره عليّ معتز، روب بنفسجي قطني، كان أنعم ما ارتديتُ في حياتي.

ألقى معتز التحية على والدته، وفعلتُ كما فعل، وجلسنا على المائدة، هو في الطرف المقابل للسيدة ناهد، بينما أجلس إلى يمينه.

كانت الأطباق مغطاة، والموظفات يقفن في انتظارنا، تحمل إحداهنّ إبريق العصير، اتجهتْ إلى ناهد وسكبتْ لها، ثم تجاوزتني وسكبتْ لمعتز، وتنحّتْ عن الطاولة دون أن تسكب لي، نظر معتز إليها وسأل: لماذا لا تسكبين لزوجتي؟

كنتُ أكيدة أن هذا التصرف لم يكن بمحض إرادتها، فقد كانت السيدة ناهد مبتسمة، قلتُ ببساطة: إنها تعرف أنني لا أحب عصير البرتقال، ولكنها نسيتْ أن تجلب عصير الكرز.

أشار معتز بإصبعه إلى موظفة أخرى، وطلب إليها أن تجلب عصير الكرز لي، ففعلتْ في ثوان.

أشارتْ السيدة ناهد إلى الموظفات أن يرفعن الأغطية عن الأطباق، ففعلن، وكم كان الطعام شهياً، رغم أنه الإفطار إلا أن التنوع في

السلطات والفطائر والمقبلات كان كبيراً، الآن فقط بدأتُ أشعر بجوع شديد.

تناولنا الطعام دون أن ينطق أحدنا بكلمة، هل التوتر والغضب كان السبب أم أن الروتين اليومي كان يقتضي ألا كلام على طعام؟ لستُ أدري، ولكنني لن أكون من يبدأ بالكلام.

أنهينا الإفطار، وأخيراً نطق معتز ليكسر صمتاً مزعجاً في القاعة: أمي، سنخرج أنا وهالة في رحلة إلى الجبال.

تفاجأتْ السيدة ناهد كما تفاجأتُ أنا، وقالتْ: ولكن الناس ستحضر لتبارك لكما الزفاف.

قال: لقد باركوا الزفاف البارحة، أريد أن يكون كل شيء جاهزاً للرحلة اليوم.

وقبل أن تنطق ناهد بكلمة أخرى أشار معتز إلى إحدى الموظفات لتجهز ما طلب، فانطلقتْ من فورها لتحضر الحقائب. نظرتْ السيدة ناهد إليّ في استياء شديد، يبدو أنها تظن أن فكرة الجبال كانت فكرتي، ولكنني كنتُ متفاجئة أكثر منها.

نهض معتز عن الطاولة وقال: عن إذنك يا أمي، هناك الكثير لنحضره.

نهضتُ وسرتُ مع معتز خارج الصالة، تاركين ناهد تعضّ أصابعها.

سألتُ معتز: متى خطرتْ لك فكرة الرحلة؟

أجاب: أحب أن نبتعد قليلاً، يجب أن نكون وحدنا بعض الوقت.

إنه منزعج لما يجري أكثر مني، هل عليّ أن أكون أكثر حزماً فيما يتعلق بالمنزل وبالسيدة ناهد؟ أعلم أنها تحاول أن تبعث إليّ بإشارات يومية أنها غير راضية بزواج ابنها مني، وأنني شخص غير مرغوب فيه، ولكنني أعلم ذلك منذ البداية.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والأربعون | أحمد

لستُ أدري كيف مضتْ الليلة، نمتُ فجأة واستيقظتُ في منتصف اليوم التالي، هل تناولتُ منوماً ما؟

فيوج كان هنا الليلة الماضية، أظنني طردته من المنزل، هل انزعج يا ترى؟

تذكرتُ أنني لم أعد أعمل في المطعم، وأن عليّ انتظار الليلة لحراسة المخازن، حاولتُ أن أحسب المبلغ الذي سأجنيه الشهر القادم، ربما يكون أقل من نصف مبلغ الشهر الماضي، ولكن هل يهم ذلك؟

بقيتُ في الفراش، ليس هناك ما أفعله، ليس هناك مكان أذهب إليه، ولا أريد أن أفكر بهالة وما تفعل، فكلما تذكرتُها أراني أنظر إلى معتز الذي يضحك علينا.

ربما نمتُ نصف ساعة أخرى، لستُ أدري، ولكن رأسي يؤلمني، نهضتُ وسكبتُ عصيراً كانت هالة قد أعدّته قبل مغادرتها، ترى هل ستعود إلى هذا المنزل للزيارة؟

كل شيء في هذا المنزل يتعلق بهالة، ترتيب الأثاث، المزهريات، الصور، حتى الطعام والحلويات، لقد كان منزلها.

شربتُ العصير بسرعة، كان بلا طعم، وكأنني شربتُ كأساً من

الماء ليس أكثر، أخذتُ قطعة خبز وأكلتُ نصفها، اعتدتُ دائماً أن أترك النصف الثاني لهالة، حتى وإن كان لدينا الكثير.

أخيراً وبما أن كل زاوية في المنزل ستحوطني بالذكريات قررتُ الخروج، ليس إلى مكان محدد، فقط عليّ أن أخرج من المنزل.

تمشيتُ في السوق، وقادتني قدماي إلى متجر هالة الذي لم أدخله من قبل، كان مغلقاً، أليس من المفترض أن يعمل فيوج فيه؟ حتى وإن غابت هالة عن المتجر فليس على فيوج أن يهمل عمله، إنه كل ما حلمتْ به.

هل أستطيع أن أعمل فيه؟ إنني حتى لا أملك المفتاح، هل أسأل فيوج عنه؟ هل ستوافق هالة؟

عدتُ أتمشى ثانية، جلستُ في حديقة في منتصف المدينة، نصف ساعة وكانت دلال قد وجدتني، اقتربت مني قائلة: أخيراً وجدتك، ظننتُ أنك لن تخرج من منزلك على الإطلاق.

نظرتُ إليها في استغراب وقلتُ: هل كنتِ تبحثين عني؟

قالت: لقد كنتَ في حالة سيئة البارحة، أردتُ أن أطمئن عليك، هل أنت بخير الآن؟

أجبتُ: لستُ أدري، لم يتغير شيء.

قالتْ: لم يتغير شيء في الخارج، ولكن هل تغير شيء في داخلك أنتَ؟

أشرتُ بالنفي، فقالتْ: ربما يشعرك ذلك بتحسن إذا ما علمتَ أن هالة سعيدة جداً.

قلتُ: إنه اليوم الأول، كيف لك أن تحكمي هكذا؟

ابتسمتْ وقالتْ: أسهل مما تظن، السيدة ناهد أم معتز تكاد تنفجر غيظاً من دفاع معتز عن هالة، ألا يكفي ذلك؟

لستُ أدري، ربما يكون معتز جاداً جداً فيما يتعلق بهالة، ولكنني لا أحبه، ولا أظن أنه شخص جيد.

جلستْ دلال على الكرسي المقابل، الآن فقط انتبهتُ أنني أجلس إلى أميرة فاتنة، ترتدي ثوباً برتقالي اللون تزينه الورود البيضاء، وشعرها الأشقر تزينه وردة ناعمة تعلّقها خلف أذنها، تحمل حقيبة أكبر مما نعتاد في النبيلات، أظن أنها تحمل كتباً أو دفتراً لتكتب فيه.

سألتُها: ألا زلتِ تكتبين؟

أجابتْ: بالطبع.

سألتُها: هل ستكتبين عن هالة؟

ضحكتْ ثم قالتْ: لا أظن ذلك، ليس في حكايتها شيء مميز.

قلتُ: إنها ليستْ نبيلة.

قالتْ: ولكنها ليستْ أول من يدخل القصور من غير النبلاء، ليس أمراً جديداً.

لم أكن أعرف ذلك، ولكن هذا لا يعني أيضاً أن الجميع يتقبل الوضع.

أخرجتْ دلال من حقيبتها الدفتر الذي تكتب فيه، إنه ذات الدفتر الذي رأيتُه معها من قبل، ماذا كانت القصة؟ نعم عن الحاكم الظالم، سألتُها: أما زلتِ تكتبين في حكاية الحاكم الظالم؟

أجابتْ: نعم، وما زلتُ أشعر بشيء غريب يتعلق بها.

شيء غريب، قالتْ: أشعر أنني لا أكتب أفكاري، معظم الصفحات قد شطبتْ أو نُزعتْ، لستُ أدري لماذا.

بدأتْ تقرأ في آخر سطور كتبتها وكأنها تقرأها للمرة الأولى، غريب أمر هذه الفتاة، إنها مختلفة بشكل غريب، ولكنها صادقة ولطيفة، رغم أنها نبيلة.

سألتُها: هل علاقتك حسنة مع السيدة ناهد، أعني أنك كنتِ من سيتزوج معتزاً.

أجابتْ دون أن ترفع عينها عن الكتاب: جيدة، غالباً أخفي

عنها الكثير من رحلاتي القصيرة، ليستْ هناك مشاكل بيننا.

أغلقتْ الكتاب ونظرتْ إليّ وقالتْ: ستكون هالة على ما يرام، إنها قويّة، ومعتز إلى جانبها.

هل عليّ أن أطمئن فعلاً؟ هل هذا كافٍ؟

نهضتْ وقالتْ: هل تحب أن تقرأ إحدى كتبي؟ هناك مكتبة قريبة، هل تأتي معي؟

ارتبكتُ، ليس لأنها تأخذني معها إلى حيث تشاء، ليس لأنني سأكون في صحبة نبيلة جميلة لطيفة أمام الجميع، بل لأنني سأقف أمام أكوام الكتب، وسيكون واضحاً جداً أنني لا أجيد القراءة جيداً.

لم تترك لي المجال للإجابة، فقد بدأتْ تسير إلى المكتبة وعليّ أن أتبعها فحسب، ماذا أفعل؟ هل أعتذر أم أسير خلفها وأترك الأمور تسير ببساطة؟ هل أتظاهر أنني أعرف ما أقرأ؟

دون إحساس مني رفعتني قدماي لأتبعها، ودخلنا المكتبة، شعرتُ بقشعريرة في جسدي، وخوف في دقات قلبي، كانت الرفوف ممتلئة من حولنا، لم أعرف أن هناك مكتبة كهذه في المدينة، لابد أن هالة كانت ترتادها يومياً.

مشتْ دلال بخطى مستقيمة ودون أن تسأل أو تستفسر عن أي

شيء، إنها تعرف أين تذهب، وتعرف أين يضعون كتبها، ولابد أنها قد حضرتْ إلى هنا مراراً.

سرنا بين الرفوف، وأخيراً توقفنا أمام رفّ طويل، مليء بالكتب الملوّنة، وهذا ما كنتُ أستطيع تمييزه في الكتب إلى الآن، صورة الغلاف وألوانه.

أمسكت دلال إحدى الكتب، وناولته لي وهي تقول: هذا أول كتاب نشرته، طرق البحث، إنه يتحدث عن مغامراتي البسيطة مع الناس في الشارع، وما قصّوه عليّ من أخبارهم في المدينة.

أمسكتُ الكتاب، كان الغلاف يحمل صورة حافلة قديمة، إنها تشبه الحافلات التي تستقلّها من حين لآخر، فتحتُ الصفحة الأولى، هناك الكثير من الكلمات، فتحتُ صفحتين أخريين، وبقيتُ أحدق فيها، علّها تظن أنني أقرأ فيها، ويبدو أنني نجحتُ، فقد قالتْ: هذا الإهداء إلى والدي رحمه الله.

كان الخط صغيراً والكلمات متراصّة، لماذا لا يكتبون بخط كبير واضح؟

حملتْ كتاباً آخر وناولتني إياه وهي تقول: هذا الكتاب كتبته قبل عامين، وقد كدتُ أقاضى عليه.

الكتاب يحمل صورة نقود وصكوك ذهبية، قلتُ: لماذا؟

قالتْ: يتحدث عن سرقات كبيرة في المدينة، رغم أنـني لم أذكـر فيه اسم أحدهم ولكن الأغنياء ليسوا كثاراً.

حملتْ كتاباً ثالثاً وقالتْ: أما هذا فهو يتحدث عن حكايـة فتـاة بسيطة دخلتْ قصر النبلاء.

لفتَ هذا الكتاب انتباهي دون الجميع، فيه صورة سـلالم تـؤدي إلى السماء، قالتْ: ليستْ حكاية حقيقية، إنه تصور فقط لما سيجري، أسميته صعود السلالم لكثرة السلالم في القصر.

ابتسمتُ وقلتُ: ظننتُ أنه تعبير مجازي عن الارتقاء.

ضحكتْ وقالتْ: طبعاً هو كذلك.

نظرتُ إليها، هل كانت تمازحني أم أنها تختبرني؟ قالتْ: هل تحب أن تستعير الكتاب؟

أستعيره؟ إذا ما استعرتُه فهذا يعـني أنـه علـيّ أن أقـرأه، هـذا أصعب عليّ من عمل ثلاثة أشهر دون انقطاع، فتحتُ الكتاب الأخـير، خطّه صغير أيضاً، وليس فيه صور توضيحية على الإطـلاق، كيـف لـي أن أقرأ شيئاً كهذا؟

بدأتُ أشعر بالقلق، إذا ما استعرتُه فإنها ستسألني عنه لاحقـاً،

وسنتحدث عن الأحداث فيه، ولابد أنها تفعل ذلك لتواسيني ولكن...

أمسكتْ دلال كتاب "صعود السلالم" من يدي، وقالتْ: ستأخذ هذا.



أعادتْ الكتب الأخرى إلى مكانها، بينما أخذتْ هذا الكتاب إلى مسؤولة المكتبة، وسجّلتْ اسم الكتاب، وأخذتْ ورقة صغيرة وضعتها فيه لا أدري ما كتب فيها، فلم أكن على دراية بأسلوب الاستعارة في المكتبة.

التفتتْ إليّ وقالتْ: لديك أسبوعان لتختمه.

■ الفصل التاسع والأربعون | هالة

أمي، هذه رحلة من العمر.

أنا ومعتز وحدنا، أمام أجمل المناظر، في أجمل الغرف، في أجمل أجواء.

نجلس في فندق على قمة الجبل، يطل على الجبال الأخرى والنقّالات بين الجبال، كما نستطيع مشاهدة الغيوم تسير من حولنا، إننا في القمّة.

في الصباح يُقدّم لنا الشراب الساخن، وكلما احتسى معتز منها شيئاً يذكر أن متجري كان يصنع أفضل من ذلك.

بعد الإفطار نخرج إلى النقّالات، ونذهب إلى الجبال المجاورة حيث النشاطات تقام هناك.

تزلج، قفز، طيران، تسوّق، كل ما أحلم به كان هنا، وإلى جانبي معتز.

قضينا أجمل الأوقات في أسبوعين رائعين، كدتُ أذرف دموعي وقت الرحيل، ولكن معتزاً وعدني برحلات أخرى أجمل في المستقبل.

أمي، إنني سعيدة، على خلاف ما كان يتخيل أحمد، لقد حصلتُ على ما أريد، ألا ترى يا أحمد أم أنك ما تزال تكابر؟

عدنا إلى الديار، إلى القصر الذي لم أعتد عليه بعـد، وقفنـا علـى الباب حيث يجتمع الموظفون لاستقبالنا، وكانت السيدة ناهـد تنتظرنـا في الداخل.

اعتنى الموظفون بأمور الحقائب، بينما دخلنا على السيدة ناهد، انحنى لهـا معتـز ففعلـتُ مثـل مـا يفعـل، نهضـتْ وقالـتْ: لـن أثقـل عليكما، أعلم أنكما متعبان، ولكن هناك ضيف انتظرك طويلاً يا هالة.

ضيف! هل هو أحمد؟

أشارتْ السيدة ناهد إلى باب في زاوية الغرفة، خـرج منـه رجـل في الخمسين، ذو شعر ولحية رمادية، يسير مرتكزاً على عصا قديمـة، ويرتدي ثياباً بسيطة، اقترب منّا ووقف أمامي إلى أن عرفتُ أخـيراً إلى من أنظر... إنه أبي...

■ ■ ■

■ الفصل الخمسون | أحمد

أسبوعان، كان عليّ أن أختم الكتاب في أسبوعين، أنا الذي يقضي خمس دقائق لقراءة عنوان متجر في الطريق عليّ أن أختم كتاباً من مئة صفحة في أسبوعين!

ظننتُ الأمر مستحيلاً في البداية، ولكن عندما نظرتُ إلى يومي اكتشفتُ أن لدي الوقت الكثير في المنزل، وحتى أثناء الحراسة، أستطيع أن آخذ الكتاب معي.

استغرقتْ مني الصفحة الأولى ثلاث ساعات، اكتشفتُ بعدها أنها صفحة الإهداء لا أكثر.

الصفحة الثانية استغرقتْ مني ساعتين رغم أن عدد كلماتها كان أكثر، وهكذا استغرقتْ الصفحة الثالثة ساعة، والرابعة نصف الساعة، إلى أن بدأتُ أعتاد على منظر الكلمات وحروف الجر بينها، وبدأتْ عيني تعتاد الأحرف، وبدأ عقلي يجمّع الجمل أسهل من ذي قبل، ولم أعد مضطراً لإعادة السطر عشرات المرّات حتى أفهم المغزى.

رافقني الكتاب ليل نهار، ولم أتوقف عن القراءة إلا عندما أغفو، وأصبح في عالم آخر ألقى فيه دلال تحييني وتبتسم لي.

بتّ في الصفحات الأخيرة، أعترف أنني لم أركز على زبدة

الحكاية حيث انشغلتُ بتكتيك القراءة، ولكنني فهمتُ علـى الأقـل أن الفتاة الفقيرة استطاعتْ جعل النبلاء يشعرن بالفقراء، وكـان التـبرع في ذلك العام أكثر منه في أي عام آخر.

ليس هذا ما أرجـوه، ولا يحتـاج الفقـراء النقـود مـن الأغنيـاء، فالمال ملك الله يوزعه حيث يشاء، المشكلة في التعالي على الناس، المـال لا يصنع النبلاء، كيف أستطيع أن أشرح ذلك؟

أغلقتُ الكتاب، وغرقـتُ في نـوم عميـق، غـداً أعيـد الكتـاب إلى المكتبة، هل ستكون دلال هناك؟

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والخمسون | هالة

ما الذي جاء بك إلى هنا؟

كانت أول جملة أستقبل بها والدي، أمسك معتزّ بيدي ينـبّهني إلى ما أفعل، ثم طلب إلى الجميع مغادرة الغرفـة، وغـادر هـو بصحبة أمه ناهد أيضاً ليتركنا وحدنا.

في ثـوان بتنـا وحـدنا، بينمـا كنـتُ أنظـر إليـه والـدم يغلـي في عروقي، كان يبتسم بهدوء إليّ سـعيداً بـرؤيتي، فـتح ذراعيـه يقـول: ابنتي هالة، كم أنا سعيد برؤيتك شابة جميلة ونبيلة.

تجاهلتُ كل كلمة جميلة تخرج من فمه، قلتُ: ماذا تفعل هنا؟

قال: أهكذا تستقبل البنت النبيلة أباها؟

قلتُ: أباها الذي كاد يزوجها عجوزاً خرفاً.

قال: أعترف أن اختيارك للزوج كان أفضل من اختياري، ولكـن لا أحد يستطيع تخمين النصيب.

قلتُ: ليس نصيباً، إنه المال يا أبـي، المـال الـذي جعلـك تقـرّب بدراً إلينا، والمال الذي جاء بك إلى هنا.

أشار بالنفي والحزن وقال: هالة، لا تحملي حقد البارحة، لقـد اختلف الكثير اليوم...

قلتُ أقطع حديثه: هل بعثتْكَ إلى هنا لتحصل على بعض النقود؟

قال: من؟

خرجتْ الكلمات من فمي بصعوبة: الأفعى.

سكتَ قليلاً ثم قال: زوجتي ماتت منذ عام يا هالة.

هذا خبر لا أعرفه، صمتّ قليلاً، هل أنا سعيدة؟ هل انزاح شيء عن نفسي كان عالقاً لسنوات دون أن أدري، هل كنتُ أتمنى لها ذلك أو أكثر؟ هل انتهى كل شيء؟

رغم أنها كانت بعيدة، ولم نكن نسمع عنها شيئاً، ولم تكن تؤذينا على الإطلاق بعد أن غادرنا، إلا أن وجودها في الدنيا كان كافياً ليؤرقني، كان وجودها عذاباً لي، هل ماتت حقاً؟ كنتُ أتخيل أنها ستعيش أكثر مني.

ابتسمتُ أخيراً، وبدأتُ أضحك بصوتٍ خفيف ساخرة من الأقدار، حتى الأفعى تموت في النهاية.

قال والدي: لا تضحكي يا هالة على موت الآخرين.

نظرتُ إليه وقلتُ: من يعيش في المنزل الآن؟

قال: أعيش وحدي أرعى الغنم، لقد تركتُ العمل في المدينة، فلم أعد قادراً على الوصول إلى هناك، كما أن التكاليف باتت باهظة،

اضطررتُ لبيع سيارتي، وبيع بعض الأراضي البعيدة عن المنزل، واكتفيتُ بالبيت وقطعتين قريبتين أزرعهما بين الحين والآخر، إضافة إلى القطيع الذي أرعاه قرب المنزل.

هل عليّ أن أشفق عليه؟ أليس ما يقوله محزناً أم أنني لم أعد أحس بصلة الدم بيني وبينه؟ هل أظن أنه يستحق ذلك؟

قلتُ: وماذا يتوجب عليّ فعله الآن؟

سكتْ، يبدو أنه تفاجأ من برودي، قال: ألا تستقبلين والدك المسكين في منزلك المتواضع؟

قلتُ في سخرية: منزلي ليس متواضعاً، إنه قصر من أكبر قصور المدينة، ووالدي لم يكن مسكيناً، لقد كان ظالماً.

قال: الله يغفر الذنوب يا هالة.

قلتُ: لستُ أدري إذا ما كنتُ بهذا الكرم، لربما لقيتَ استقبالاً أفضل من أحمد.

قال: أحمد، أليس هنا؟

شعرتُ بغصّة في حلقي، نعم كان يفترض به أن يكون هنا لولا عناده، قلتُ: لا، رفض حياة النعيم، وفضّل العيش في التسوّل.

سكتَ والدي، يبدو أنه لا يريد مغادرة القصر، ولا يهتم بأمر

أحمد، ولكنني ناديتُ الخدم، أمرتهم أن يخرجوه من القصر، فليبحث عن أحمد.

لم ألتفتْ إلى والدي، ولم أرد أن أشاهد الدهشة في وجهه لما أفعل، ماذا يعرف عن ابتنه؟ لستُ الطفلة التي كانت تلعب في الحقل إلى أن أدخلتَ الأفعى إلى حياتها، لستُ الطفلة التي كنتَ تفعل بها ما تشاء وتوجهها حيث تشاء، أنا الآن النبيلة هالة زوجة معتز، وليس لك مكان في حياتي.

دخلتُ زاويتي من القصر حيث كان ينتظرني معتز، كان يشرب عصيراً ويراقب والدي يغادر القصر من النافذة، التفتَ إليّ وقال: هل أنتِ أكيدة من هذا القرار؟

قلتُ: أكثر من أي وقتٍ آخر.

ناولني كأسي لأشرب العصير معه، وقال: لن أتدخل في الماضي يا هالة، ولكن هناك أناس لا نختارهم في حياتنا، ولا نستطيع تبديلهم، ولكننا نستطيع أن نراقب تأثيرهم في حياتنا.

وضع يده على شعري وقال: الخيار لك، أستطيع أن أصنع منه ملكاً، وأستطيع أن أركله خارج المنزل كلما حضر.

قلتُ: دع أمره لي وحدي.

■ الفصل الثاني والخمسون | أحمد

جلستُ على الكرسي أمام المكتبة أمسك بالكتـاب، نعـم أريـد أن أعيده إلى رفّه المخصص في المكتبة، ولكنني أيضـاً أريـد أن أقابـل دلال، علّها تتذكر الموعد.

لستُ أدري لماذا، ولكنني أشعر أنهـا ستحضـر، لابـد أن تنتظـر رأيي في الكتاب، أليس كتابها؟

انتظرتُ نصف ساعة، ألتفتُ يميناً وشمالاً، لستُ أدري من أيـن كانت تحطّ إليّ، كل ما أعرفه أنها كانت تحضـر في الوقـت المناسـب في المكان المناسب.

انتظـرتُ نصـف سـاعة أخـرى، نظـرتُ في البعيـد، هنـاك مـن يقترب، إنها ليستْ دلال بل رجل يتكئ على عكّاز، إنه ينظر تجاهي مباشرة، وهناك ابتسامة خفيفة وحـزن بـاد علـى وجهـه، لمـاذا أشـعر بقلبي ينقبض.

اقترب الرجل أكثر، ووقـف أمـامي، إنـني أذكـر هـذا الوجـه، أستطيع تخيله قبل تلك التجاعيد والشـعر الأبـيض والقامـة المعوجّـة، ولكن لوهلة لم أكن أصدق ما تؤكده لـي عينـاي، بقينـا نحـدّق ببعضـنا فترة إلى أن نطق ليكسر كل شك في نفسي: أحمد، ألا تستقبل والدك؟

نهضتُ من الكرسي وتراجعتُ إلى الوراء، وبدون وعي نطقتُ بأول كلمة خطرتْ على نفسي: ماذا تفعل هنا؟

قال: أنا لا أعض يا أحمد.

قلتُ: لم تجب عن سؤالي، ماذا تفعل هنا؟

تنهّد وقال: لطالما ظننتُ أنك الأعقل، لقد تغيرتْ الظروف يا أحمد، ولم أعد أملك شيئاً هناك.

قلتُ: بل إنك تملك كل شيء، عد إليها فأنت لا تستطيع العيش بدونها.

قال: لقد ماتت يا أحمد، فلتحترما الموتى على الأقل.

ماتت، لماذا أشك في ذلك، أمثالها لا يموتون قبل أن يعيثوا في الأرض أكبر الفساد، لستُ أدري ماذا فعلتْ بعد هروبنا، ولكنني أكيد أن ما يزال في جعبتها الكثير، لا أستطيع تخيلها وقد ماتت وانتهى كيدها.

قال ثانية: لقد انتهى كل شيء يا أحمد.

قلتُ: وماذا تفعل هنا؟

قال: لقد جئتُ أبحث عنكما.

قلتُ: لستَ صادقاً، أنا أعلم بأمر وصيتك لهالة، أنت تعرف

جيداً أين نحن، لقد بعثتك إلينا.

قال: إنها ميّتة يا أحمد.

كم مرة عليه أن يكررها حتى أصدق، ولكنه تنهد ثانية وكأنه يتحدث إلى طفل صغير وقال: لم تتغير يا أحمد، لقد عرفتك من بعيد.

قلتُ: كيف عرفتَ أنني هنا؟

قال: من يسأل لا يتوه.

نظر إلى الكتاب في يدي، فأخفيته خلف ظهري، قال: هل تخفي أسراراً عني؟

قلتُ: منذ متى كنتَ تعرف عنا شيئاً، لستُ مضطراً لأشاركك أي شيء.

قال: حتى اللقمة يا أحمد.

قلتُ: ماذا تريد؟

قال: المأكل والملبس والمأوى، هل ستبخل على والدك بشيء كهذا؟

ابتسمتُ ساخراً وقلتُ: لقد بخلتَ بهم علينا منذ سنين.

قال: أنت تعلم أنها كانت السبب.

قلتُ: عذر أقبح من ذنب.

قال: هل ستطردني كما فعلتْ هالة؟

لقد قابل هالة قبلي، قلتُ: هالة لا تستطيع نسيان العذاب، ولا أظنني أنساه أيضاً.

قال: الله يغفر الذنوب، وأنا أعترف أنني ملتُ إليها كثيراً وظلمتكما.

جلستُ على الكرسي، ما عادتْ قدماي تحتملان أكثر، ماذا كنتُ أريد أكثر من هذا؟ هل هناك ما أريده من والدي غير الاعتراف بالذنب؟ صحيح أنه لن يغير شيئاً من الماضي، ولكنني لا أستطيع أن أطلب المستحيل.

نظرتُ إليه وقلتُ: هل ستبقى هنا؟

قال: عليّ سداد بعض الديون، وشراء العلاج، فالصحة لم تعد كما كانت، وإذا ما نجحنا في ذلك نستطيع العودة إلى المنزل معاً، ألا تحب ذلك؟

العودة إلى المنزل، لقد مضى أكثر من ثمان سنوات، وهالة لن تعود إلى هناك أبداً، ماذا أفعل فيه وحدي؟

أشرتُ بالنفي وقلتُ: لن أعود، ولكن إذا ما جئتَ لتجمع النقود فسأسعى لك بعمل مناسب.

لا يبدو أنه فرح بذلك، ولكنه قال: حسناً، ولكنني اليوم متعب من الرحلة الطويلة، ألا آخذ قسطاً من الراحة؟

نهضتُ من الكرسي وقلتُ: بكل تأكيد، الشقة ستفي بالغرض.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والخمسون | هالة

سمعتُ صوت عزف جميل من القاعة، إنه صوت بيانو، نزلتُ الدرج لأجد معتزاً يعزف ببراعة، ليستْ لدي خبرة في الألحان الموسيقية، ولكن في صالة كهذه، وعلى أنغام رقيقة من يد أحبها، أشعر أنني أملك كل شيء.

اقتربتُ منه وراقبته إلى أن أنهى العزف، قلتُ: لم أعرف أنك بارع في العزف أيضاً.

قال: هل تجربين؟

قلتُ: هل تعلمني؟

أشار إلى الكرسي إلى جانبه، جلستُ عليه فبدأ يعلمني معزوفة مشتركة، كان مقطعي فيها بسيطاً، ولكن المشاركة كانت تعني كل شيء.

لم أشك يوماً في قدرتي السريعة على التعلم، ولم يكن البيانو من الأمور التي تستعصي عليّ، فبينما حفظتُ مقطعي الخاص من المرة الأولى، استطعتُ مراقبة يدي معتز تتحركان على المفاتيح، أظن أنني أستطيع فعل ذلك.

أنهينا العزف وكنتُ أنظر إلى يديه، سألني: أنتِ تنظرين إلى

ناحيتي، هل تجربينها؟

قلتُ: أجل.

تبادلنا الأماكن، فبينما بدأ معتز يدلني على أماكن الأصابع كنتُ حاضرة، وبدأتُ العزف ببطء، ذهل معتز، إنني أعزف المقطع دون مساعدته، ظل يراقب حركة يدي، لم أخطئ في مفتاح واحد، وعزفتُ المقطوعة إلى النهاية.

صفّق معتز وقال: لا أصدق أنها المرة الأولى التي تجلسين فيها على البيانو.

ابتسمتُ وقلتُ: لقد وهبني الله ذاكرة جيدة.

ابتسم وقال: "جيدة" هذا تواضع كبير.

نظر إلى الساعة، قال: عليّ المغادرة الآن، أظن أن العمل قد تراكم خلال هذه الفترة.

تذكرتُ متجري، نهضتُ أسأله: هل أستطيع أن أمرّ على متجري، أحب أن أرى ماذا يفعل فيوج هناك.

أشار بالإيجاب وقال: سأوصلك في طريقي.

استبدلتُ ثيابي، وركبتُ مع معتز في سيارته الخاصة، وأوصلنا السائق إلى المتجر.

الساعة كانت العاشرة صباحاً، والغريب أننا توقفنا أمام متجر مغلق! نزلتُ من السيارة أقف أمام الباب، لا أحد هناك، والأنوار مطفأة في الداخل، هرعتُ على الفور إلى هاتفي الجوّال، الذي كنتُ قد استبدلته بهاتف أثمن، وطلبتُ فيوج على الفور، ولكن هاتفه كان مغلقاً!

وضعتُ يدي على الزجاج، إنه ليس نظيفاً، نظرتُ في الداخل، لا يبدو أن أحداً دخل المتجر منذ أيام، الفوضى تعم المكان، وهناك آثار لبقع لم تمسح، ماذا كان يفعل فيوج طول هذه الفترة؟

وضع معتز يديه على ذراعي، قال: آسف لذلك، سأرسل من يعتني بالمتجر.

التفتُّ إليه وفي عيني دمعة، قلتُ: إنني حتى لم أحضر معي مفتاحي الخاص.

ضمّني بلطف وقال: سيكون أجمل مما كان عليه من قبل، لا تقلقي.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والخمسون | أحمد

فـتح كـل الأدراج، بحـث في كـل الخـزائن، أخـرج كـل مـا في الثلاجة، إنه يعتبر نفسه في منزله بشكل مزعج.

كان يسعل بشدة، ويشرب الماء بكثـرة، ويلقـي بالسيجارة تلـو الأخرى، لا أذكر أنه كان يدخن من قبـل، منـذ متـى بـدأ هـذه العـادة السيئة؟

لم نتحدث في أي موضوع، وأطول حديث بيننـا لم يسـتمر أكثـر من دقيقتين، بل إن كل ثانية يقضيها تؤكد لـي أنـه لم يحضـر إلى هنـا شوقاً إلينا، إنه يريد أن يحصل على كل شيء.

قال: لماذا لا يوجد طعام في الثلاجة؟

أجبتُ: يوجد طعام في الثلاجة.

قال باستياء شديد: وهل تسمي هذا طعاماً؟

قلتُ: وماذا تريد بالضبط؟

قال: ألا يطبخ أحد هنا؟

قلتُ: كانت هالة تطبخ من حين إلى حين، ولكنها الآن في عالمهـا الخاص.

قال: ولماذا لم تذهب معها، كنت ستعمل في أفضل منصب.

تنهدتُ، لماذا عليّ تكرار ذلك ملايين المرات: لا يهمني ذلك.

قال: إذن فليكن عندك ما يؤكل.

قلتُ: هذا ما آكله، وأنا راضٍ به جداً.

قال: أما أنا فلستُ كذلك، اذهب واشتر شيئاً نأكله.

سعل ثانية، وأخرج من جيبه علبة دواء، فتحها وأخرج منها آخر حبة، نظر إليّ وقال: وأحضر لي الدواء في طريقك.

قلتُ: ولماذا لا تفعل ذلك بنسفك؟

قال: لو كنتُ أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي لما بحثتُ عنكما.

وسعل ثانية، ثم أخرج من جيبه ورقة وناولني إياها، نظرتُ إليها فإذا بها أحرف لا أعرفها، وأنا الذي ظننتُ أنني بتّ أجيد القراءة، سألتُه: ما هذا؟

قال: أسماء العلاجات التي أحتاجها، اجلبها معك من الصيدلية.

سألتُ: وكم تكلّف هذه الأدوية.

قال: هل المال أغلى من حياة والدك؟

بم أجيب؟ إنه لم يترك لي المجال لأحبه للحظة، ولكنني ما كنتُ لأناقش في أمر العلاج.

اتجهتُ إلى سريري، تذكرتُ أنني أخفـي نقـودي بشـكل عفـوي تحت الفراش، وأظن أنه إذا ما عثـر عليهـا فإنـه سـيأخذها ويصـرفها على الفور، لذلك حملتُ كل ما أملك ووضعته في جـيبي حتـى لا يعثـر في المنزل على شيء يأخذه، وخرجتُ من المنزل هرباً منه.

لديّ مـا يكفـيني مـن المشـاكل، فلمـاذا حضـر الآن؟ رأسـي بـات يؤلمني، والجو بات بارداً وعليّ شراء معطف جديد، والآن هذه القائمة الطويلة من العلاجات، وطعام! لا أظن أنني سأشتري طعاماً كمـا طلـب مني، ولكنني سأدبر أمر العلاجات على الأقل.

ذهبتُ إلى أقرب صيدلية، ناولتها ورقة العلاجات فحضّرتْ لـي العلب، وعندما سـألتُها عـن أسـعارها تفاجـأتُ أنهـا جميعـاً علاجـات باهظة الثمن، شريط واحد من كـل دواء سـيكلفني أكثـر مـن نصـف مـا أحمل! سألتُها إذا مـا كـان باسـتطاعتي الاسـتغناء عـن أقلـها أهميـة، فأجابتني أن هذه العلاجات تؤخذ معاً في العادة، ولـيس منهـا مـا هـو أهم من الآخر. أخيراً سألتُها ما لم يكن عليّ كشفه: ولأي مرض تُعطـى مثل هذه العلاجات؟

ألا يفترض بي أن أسأل، ألستُ من يشتري الدواء، ألا يحـق لـي أن أطّلع على ملف والدي الصحي؟ ألا يحـق لـي أن أعـرف عـن والـدي

شيئاً مرة في العمر؟

سألتْ: لمن هذه العلاجات؟

قلتُ: لوالدي.

قالتْ: من الواضح أنه يعاني من السل.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والخمسون | هالة

عدتُ إلى القصر، وأغلقتُ حجرتي، وتابعتُ البكاء، أين ذهب فيوج؟ لماذا يترك المتجر هكذا؟

أخذ معتز مفتاح المتجر من القصر، ووعدني أن يتدبر الأمر بنفسه، وتركني ليتابع أعماله.

أمسكتُ الهاتف ثانية وثالثة ورننتُ على فيوج، ولكن الهاتف مغلق طول الوقت، هل حدث له مكروه؟

من أسأل، أحمد؟ لا أريد أن أفعل، كما أن والدي لابد أن يكون معه الآن، ترى ماذا فعل أحمد بشأنه؟

تمددتُ في الفراش، علّي أغرق في نوم عميق بعيداً عن كل هذا، ولكن الخادمة طرقت الباب تقول: سيدتي هالة، لقد حان وقت الغداء، السيدة ناهد في انتظارك مع صديقاتها.

يبدو أنني مضطرة لحضور شيء كهذا، أجبتها أنني سأحضر حالاً، واستبدلتُ ثيابي، وجهّزتُ نفسي، إنها المرة الأولى التي أجلس فيها إلى السيدة ناهد وصديقاتها دون معتز.

دخلتُ صالة الطعام، كانت السيدة ناهد جالسة في المقدمة وإلى جانبها تتوزع خمس سيدات متباينات الأعمار، ألقيتُ التحية ثم

اتجهتُ إلى مقعدي.

بدأت السيدة ناهد تعرّفني على السيدات، الأولى السيدة نادية، زوجة ثري يتاجر بالسيارات، وهي في زيارة قصيرة إلى المدينة، الثانية الآنسة دلال، ابنة عم معتز، كاتبة معروفة، والدها يعمل مع معتز في المصانع والتجارة، الثالثة السيدة كريمة، زوجها يعمل في استخراج المعادن الثمينة من المناجم، والرابعة السيدة زهرة، زوجها رجل سياسي معروف، والخامسة السيدة قمر، زوجها صاحب بنوك في مدن مختلفة.

نظرتُ إليهنّ ثانية، أستطيع تذكرهنّ من حفل الزفاف، نظرتُ إلى السيدة نادية وقلتُ: سيدة نادية، لقد سقط خاتمك أثناء الحفل وقضيت الحفل كله تبحثين عنه.

صمت الجميع، بينما تابعتُ: سيدة كريمة، لقد انسكب شيء قليل من الشراب على شالك، وبقيتي قلقة أن يلاحظه أحد طول الحفل.

سمعتُ صوت ضحكات خفيفة، تابعتُ: سيدة زهرة، كنتِ تناقشين بعض الأعمال أثناء الحفل، يبدو أن هناك صفقة كبيرة أنت في صدد تنفيذها بأسرع وقت. سيدة قمر، لقد كنتِ تراقبين أشخاصاً في الحفل ولم تنظري إلينا لحظة واحدة.

جفلتْ السيدة قمر خشية أن أكمل الحديث، فقد كانت تنظر إلى

رجل معين لا أظن أنه زوجها، تابعتُ: أما الآنسة دلال، فقد خرجتِ من الحفل فور... خروج أخي.

صمت الجميع لوهلة، ثم قالتْ قمر في انزعاج: هل تتجسسين علينا؟

ابتسمتُ وقلتُ: أبداً، لقد رأيتكم في الحفل.

نظرن إلى بعضهن في انزعاج، ولكن السيدة ناهد أشارت إلى العاملات حتى يبدأن بتقديم الطعام.

سار الوضع على المائدة على ما يرام، بعض الأحاديث الجانبية الصغيرة، سألنني كيف تعرفتُ على معتز، ومن أين حضرتُ، وكيف كان العمل في المتجر، كلها أسئلة سطحية للاشتراك في حديث يقضي الوقت، هذا إلى أن بدأ الحديث يأخذ منحىً مختلفاً، فقد بدأ الضحك يسود الطاولة، والنساء يتحدثن عن رجال أثرياء لا يجب أن ينتموا إلى الطبقات النبيلة، وما فعلوا وما ارتدوا في ظروف غير مناسبة.

قالتْ السيدة كريمة: سمعتُ أن أباك قد حضر.

كيف عرفتْ ذلك؟ أوه نسيتُ أن السيدة ناهد تعلم بالأمر، يبدو أنها من النوع الذي ينشر الأخبار بسرعة، قلتُ: حضر ليبارك لي الزواج ويعود.

كم تمنيتُ أن يكون ما قلته صحيحاً، ولكنني أعلم أنه ليس كذلك، قالتْ: سمعتُ أنك طردته من الباب.

قلتُ: بل يريد أن يذهب إلى أخي أحمد، لم يره منذ سنين.

قالتْ السيدة نادية: أحمد هذا الذي اقتحم الحفل وأفسد كل التحضيرات؟

قالتْ قمر: كنتُ سأميز ما يرتدي لو سار على بعد أميال منا.

قالتْ زهرة: لقد أفسد الحفلة كاملة، ظل الجميع يتحدث عنه لأيام، كان ذلك محرجاً لمعتز.

قالتْ قمر: هل تعلمن، لقد كان يعمل في مطعم الوجبات السريعة على زاوية الطريق المؤدية إلى الشاطئ.

قالتْ نادية: أوه، مطاعم الدرجة الدنيا، أظن أنني سأصاب بالتسمم بمجرد سماعي لاسمها.

قالتْ قمر: لقد أخبرني ابني أنه اشترى هو وزملاؤه بعض الشطائر من المطعم، أخبرني أن أحمد قد قدّم لهم العصير، وقد كان رديئاً فسكبوه عليه.

ضحك الجميع، فسألتْ نادية: وماذا فعل؟

قالتْ قمر: ماذا تتوقعين من نادل مطعم، لقد اعتذر واستبدل لهم العصير.

تجمّعتْ الدموع في عيني، لم يكن أحمد يخبرني شيئاً عن عمله، ولكنني لم أكن أعرف أنه كان يواجه كل هذا، أريد أن أرد، أريد أن أقول شيئاً، ولكن غصّة في حلقي تمنعني، حينها ردّتْ دلال تقول بحزم: على الأقل هو يعمل لقوت يومه، ولا يتحدث بسوء عن الآخرين.

سكتَ الجميع، فقالتْ زهرة: ماذا تعنين يا دلال؟ ألا يعمل أزواجنا لقوت يومنا؟

ردّتْ بجرأة: بل يسرقون لقوت يومكم.

قالتْ ناهد في حزم: دلال، كفي عن ذلك.

قالتْ دلال: سيدة قمر، متى كانت آخر مرة قامر فيها زوجك وخسر الألوف، البارحة، قبل البارحة، أو ربما الآن.

ثم نظرتْ إلى السيدة زهرة، وقالتْ: سيدة زهرة، أظنك تعرفين جيداً أن زوجك قد اشترك في مشروع وهمي، كسب منه مليوناً من أناس بسيطين يظنون أن الملايين ستعود إليهم.

ثم نظرتْ إلى السيدة نادية: وهل عليّ أن أذكر السيدة نادية بفضيحة ابنها السنة الماضية مع خادمته، وكيف اختفت الخادمة في ظروف غامضة.

أخيراً التفتت إلى السيدة كريمة وقالتْ: سيدة كريمة، لقد مُنعتِ من دخول حفل التبرعات الأخير، لأن زوجك قد اتهم بسرقة التبرعات السنة الماضية. كلكن تتخبأن خلف الثياب المبهرجة، ولكنكن تعلمن أن إنساناً بسيطاً نظيفاً مثل أحمد هو أفضل منكن مجتمعات.

نهضتْ ناهد غاضبة: دلال، أنت تفسدين الجلسة.

قالتْ دلال: لقد أفسدنها قبل أن أفعل.

بطريقة أو بأخرى انسحبن من الجلسة الواحدة تلو الأخرى، اعتذرن عن مواعيد لهن، ومسحن أيديهن وشفاههن بالمنشفة وغادرن الجلسة، وبقيتُ أنا وناهد ودلال فقط.

نظرتْ ناهد إلى دلال وفي عينيها غضب شديد، ولكن دلال كانت صلبة، تعلم ما تفعل ولا تخشى شيئاً، طبعاً فهي ابنة نبيل ولا يستطيع أحد أن يؤذيها، أما أنا... فليس لي أحد هنا، معتز... أين أنت؟

نهضتْ ناهد تقول: لقد أفسدتن المائدة، ليس لدي شهية للطعام بعد.

ألقت بالمنشفة على الطاولة وغادرتْ الغرفة.

بقيتُ ودلال على المائدة، نظرتْ إليّ فوجدتْ عيني تدمعان بشكل واضح، اقتربتْ مني تقول: لا عليك يا هالة، إنهنّ سخيفات لا يدركن ما يفعلن.

ولكنني لم أعد أتحمل، قفزتُ من الكرسي خارج الغرفة، تجاوزتُ الصالة جرياً إلى زاويتي في القصر، دخلتُها بسرعة وأغلقتُ الباب، واتجهتُ إلى غرفتي وألقيتُ نفسي على سريري لأبكي بحرقة، لم أستطع قول شيء، لم أستطع الدفاع عن أحمد، لقد دافع عنه أحد غيري، آسفة... آسفة يا أحمد.

■ ■ ■

■ الفصل السادس والخمسون | أحمد

اشتريتُ شريطاً من كل دواء، ولم يبق في حوزتي الكثير، وليس لدي عمل يدر عليّ المال الوفير.

عدتُ إلى المنزل، دخلتُ فإذا بوالدي ينام على فراشي وقد أطفأ إلى جانبه العديد من السجائر، ورائحة المنزل باتت لا تطاق.

لم أوقظه، وضعتُ إلى جانبه الأشرطة وخرجتُ لأذهب إلى المخازن أتساءل كم يوماً تكفيه هذه الأشرطة، ومتى يتوجب عليّ شراء الدواء ثانية، وهل من الحكمة أن ننام في منزل واحد وكلانا يعاني أمراضاً خطيرة؟

ذهبتُ إلى المخازن أفكر فيما سأفعل، يتوجب عليّ البحث عن عمل جديد، فلا أظن هالة ستساعد والدي على الإطلاق، وأعترف أن وجوده في منزلي مزعج جداً، ولكنني لستُ أدري ماذا أفعل، وليستْ لدي الجرأة ولا القوة لأطلب إليه المغادرة، ربما يكون صادقاً.

جلستُ في المخازن أفكر فيما أفعل، هل أطلب المعونة؟ هل سأحصل عليها بسهولة، لو كان فيوج هنا لكان ساعدني، ولكنني لم أره منذ زمن، أين هو يا ترى؟

هل أعود إلى المطعم؟ هل سيستقبلونني؟ لا أظن ذلك، ولكنني

كنتُ سعيداً في العمل هناك، ربما يستحق الأمر المحاولة.

فجأة رن هاتفي المحمول، من يتصل في مثل هـذا الوقـت؟ ربمـا يكون والدي، نظرتُ إلى الرقم فـإذا بـه رقـم أرضـي لا أعرفـه، فتحـتُ الخط ولكن لم يكن هناك من يجيب، مرحباً، هذا أحمـد، مـن المتصـل؟ ولكن لـيس هنـاك مـن يجيـب، رغـم أن الخـط مفتـوح، ولكـن لا أحـد يجيب، كان الأمر غريباً ولكنني أغلقتُ الهاتف في نهاية الأمر.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والخمسون | هالة

بكيتُ كثيراً، لماذا أحصل على كل شيء وما أزال أبكي؟

رفعتُ الهاتف الأرضي في غرفتي، وكبستُ الأرقام بسرعة دون أن أشعر، إنه هاتف أحمد، رن الهاتف قليلاً وأجاب على الفور، مرحباً، هذا أحمد، من المتصل؟

كان صوته عذباً، لم أسمعه منذ مدة طويلة، كنت معتادة على سماعه كل يوم، أرجو أن تكون بخير يا أحمد.

لم أستطع أن أنطق بأية كلمة، انتظر قليلاً ثم أغلق الهاتف، سمعتُ صوت الرنة من الجهة الأخرى فقلتُ: أنا آسفة.

بقيتُ في غرفتي فترة طويلة، لم أقابل أحداً ولم آكل شيئاً، بعد ما انتهى من عمله عاد معتز إلى المنزل، جلس إلى والدته قليلاً ثم اتجه إلى غرفتي حيث كنتُ أجلس أنظر في المرآة، أنظر إلى سيدة باتت نبيلة رغماً عن الجميع، جميلة وأنيقة، قوية وواثقة، هذه أنت يا هالة، هكذا أردتِ أن تكوني وهكذا أنتِ.

دخل معتز الغرفة ووجدني أنظر إلى المرآة، لم أستبدل ثيابي منذ الغداء، كانت أنيقة ولكن الجو كان بارداً، أو أنني انتبهتُ على ذلك عندما وضع معتز معطفاً على كتفي، وجلس إلى جانبي يقول:

كيف كان اليوم؟

بقيتُ أنظر إلى المعطف، بدأتُ أشعر بالدفء، ولكن شيئاً ما أخذني إلى الماضي، كم مرة وضع أحمد معطفه الخاص على كتفي حتى أشعر بالدفء؟ وضع معتز يده على كتفي فانتبهتُ إليه ثانية، فأجبتُه: جيد.

كذبتُ.

قال: هل حدث شيء في غيابي؟

لا أريده أن يتدخل في كل الأمور، فهذا يفقدني شخصيتي في المنزل، قلتُ: ليس ما لا أستطيع مجاراته.

ابتسم وقال: لقد افتتح المتجر، سيبدؤون العمل منذ الغد.

سألتُ: ألم يحضر فيوج؟

قال: هناك من يبحث عنه، لا يبدو أنه في المدينة.

قلتُ: لا تؤذه إذا ما وجدته، فهو عزيز علينا.

ابتسم وقال: ولماذا أؤذيه؟ أريده فقط أن يمثل أمامك لنرى ما حكايته.

أشرتُ بالإيجاب، ثم سألني: هل عاد والدك؟

أشرتُ بالنفي، فسأل: هل عاد إلى الريف؟

ابتسمتُ وقلتُ: لن يفعل قبل أن يحصل على بعض النقود، أظنه عند أحمد.

قال: لن يحصل على النقود من هناك.

قلتُ: بما أن زوجته قد ماتت ليس لديه خيارات كثيرة.

سكت معتز، لاحظتُ تغيراً في ملامح وجهه، يبدو أنه يفكر في أمر ما، سألتُه: هل هناك شيء ما؟

سكتَ قليلاً، وبعد أن فكّر في تبعات ما سيقول قال بحذر: هالة، إنها لم تمُتْ.

سألتُه: من؟

أجاب: زوجة والدك، لم تمُتْ.

قلتُ: كيف ذلك؟ لقد قال والدي أنها ماتت منذ عام!

سكتَ معتز، فقد انفعلتُ بشدة، ولكنه نهض وقال: لدي معارف هناك، وأعرف أخبارهم، ألستُ من أحضر الوصية للزواج؟

حدقتُ فيه وقلتُ: هل تعني فعلاً ما تقول؟

قال: إنها على قيد الحياة يا هالة، أنا واثق.

شعرتُ أن الدنيا أطبقتْ عليّ ثانية، شعرتُ أنني ابنة الثمان سنوات تتحكم بها الأفعى أينما ذهبت، شعرتُ أنني ابنة الثانية

عشرة تهرب من المنزل، بل إنني أشعر بها هنا تطوّقني، تخنقني، تلحق بي أينما ذهبتُ، لقد بعثتْ والدي إلينا ليمتص آخر قطرات دم في عروقنا، ويعود إليها، هي وحدها تملك كل شيء.



■ ■ ■

■ الفصل الثامن والخمسون | أحمد

عدتُ إلى المنزل في منتصف الليل، لم يكن والدي في المنـزل! هـل لديه نقود كافية ليسهر يا ترى، أم أنني من سيتكفل بكل ذلك أيضاً؟

عليّ أن أبحث عن عمل، ولكن أين؟ وكيف؟

وضعتُ رأسي على الوسـادة وغرقـتُ في نـوم عميـق إلى الصـباح، استيقظتُ فوجدتُ والدي نائماً على الأريكة، لا أريد أن أفكر فيما فعل في الليل، تركته نائماً وخرجتُ أبحث عن عمل.

قضيتُ نصـف النهـار أبحـث هنـا وهنـاك، لـيس هنـاك مـن عمـل، حاولتُ أن أبحث في المطاعم المجاورة، ولكن للأسف يبدو أن حكاية السجن كانت قد انتشرت، يبدو أنني مضطر للابتعاد قليلاً عن منتصف المدينة.

ربمـا أسـتطيع العمــل في المدينــة المجــاورة، تــذكرتُ دلال، والكتاب، إنه في المنزل، لم أعده إلى المكتبة بسبب والدي، هل يتوجب عليّ أن أعيده الآن؟ هل أذهب إلى المدينة المجاورة حيث تجلس دلال، هل ستكون هناك؟ ولماذا لم تحضر إلى المكتبة؟ أليسـتْ مصـادفة غريبـة أن يحضر والدي في الوقت والمكان المناسبين؟

قررتُ أن أذهب إلى المدينة المجاورة، سأبحث عن عمـل هنـاك، وعلّي أجد دلال.

ركبتُ الحافلة ووصلتُ إلى حيث الشجرة التي تجلس دلال تحتها، كان الطقس جميلاً وهادئاً، ولكنها لم تكن هناك، فقررتُ البحث عن عمل في الجوار قبل موعد المناوبة المسائية في المخازن.

تجولتُ بين الأسواق، سألتُ عن عمل ولكن الجميع كان مكتفياً بعدد عمّاله، ولا يبدو أن حكاية السجن قد وصلتْ إلى هنا، ربما تكون هناك فرصة.

تعبتُ من البحث، وأعادتني قدماي إلى حيث الشجرة رغماً عني، بل إن تفكيري كله كان معلقاً هناك، وقفتُ خلف الشجرة أنظر، هناك شخص يجلس تحت الشجرة، إنها هي.

اقتربتُ منها أكثر، كانت تجلس تقرأ في أوراقها، كانت مستغرقة في القراءة لدرجة أنها لم تشعر باقترابي منها، كانت ترفع شعرها، وترتدي فستاناً أزرق سماوي، ما زلتُ أتعجب كيف تسير بهذه الفساتين في الشوارع.

انتبهتْ إليّ أخيراً عندما بتَ على بعد خطوات منها، ابتسمتْ وقالتْ: هذا أنت، لقد بتَ تحضر إلى هنا مراراً.

أجبتُ بصراحة: توقعتُ أن أجدكِ هنا.

ابتسمتْ وسألتْ: هل قرأتَ الكتاب؟

أجبتُ: نعم، لقد أنهيتُه، لقد كان رائعاً.

سألتْ: هل أفادك؟

أجبتُ: بكل تأكيد.

في لحظة كهذه كنتُ أبعد ما أكون عن التفكير فيما أقول، وعن حكاية الكتاب ورأيي الصريح فيه، وعلاقته السطحية بهالة، ولكن هذه كانت إجابتي الوحيدة.

قالتْ: هل تحب أن تقرأ كتاباً آخر؟

قلتُ: بكل سرور، وهذا الكتاب الذي تكتبين، هل أستطيع أن أكون أول من يقرأه؟

ماذا جرى لي؟ لماذا أطلب طلباً ثقيلاً كهذا؟ ومن أنا لأكون أول من يقرأ من كاتبة معروفة؟ أنا الذي بدأتُ القراءة منذ أيام فقط! ولكنها نظرتْ إلى أوراقها باهتمام وتفكير عميق، ثم قالتْ: بصراحة هذا الكتاب مختلف، أشعر أنني لا أعرف ماذا أكتب! بل إنني أكتب عن أحداث لم أكن أعرف عنها شيئاً، وأجد نفسي أضع الدلائل أيضاً، لستُ أدري ماذا دهى لي.

لم أفهم ما تقصد، ولكنها غيّرتْ الموضوع في لحظات وسألتْ: هل قابلتَ والدك؟

كيف تعرف عن أمر والدي؟ قلتُ: أجل، ولكن كيف عرفتِ أنه حضر؟

أجابتْ ببساطة: لقد حضر إلى القصر ليقابل هالة، ثم أراد أن يقابلك فدللتُه أين يجدك.

وهكذا بدلاً من أن ألقى دلال قرب المكتبة، كان والدي! سالتْ: هل كل شيء على ما يرام؟

سكتّ، لا، لا شيء على ما يرام، ولكنني قلتُ: هل تستمعين إلى حكايتنا؟

قالتْ: بكل سرور، اجلس.

تحدّثتُ، وأطلتُ الحديث، قلتُ كل ما لديّ وكل ما جرى معنا، وامتصتْ كل ما قلتُ كإسفنجة ناعمة، هذه هي المرة الأولى التي أتحدث فيها بصراحة من كل قلبي عن كل الناس، عن كل الصعاب، كيف أفكر وكيف أتصرف، وكيف يؤذيني الجميع، أين نمتُ وماذا أكلتُ وكيف خفتُ، أفضيتُ بكل شيء.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع والخمسون | هالة

لم أستطع أن أنم، لم أستطع أن آكل، لم أفعل شيئاً سوى التفكير بها، إنها ما تزال هنا فوق هذه الأرض، بل إنها تعلم بأمري وتفكّر في استغلالي.

أغلقتُ على نفسي الأبواب، أشعر بالخوف، إنها قريبة جداً، لا أريد أن أعود إلى الوراء، لا أريد أن تقترب مني.

مضت ثلاثة أيام على هذه الحالة، وبدأ معتز يشعر بانزعاج: ليتني لم أخبركِ بالحقيقة.

قلتُ: كنتُ سأعلمها عاجلاً أم آجلاً.

قال: لا يجب أن تفعلي بنفسك هذا، لن يمسّ أحدهم شعرة من منك وأنا على قيد الحياة.

حاولتُ إقناع نفسي مراراً أنني لم أعد الطفلة الوحيدة البائسة، أنا الآن سيدة نبيلة في قصر كبير، ولن يتخلّى عني أحد، ولكنني لا أريد أن أتذكرها في مخيلتي.

قال: هل أحضر لك طبيباً؟

قلتُ: لا أريد رؤية أحد.

رنّ هاتف معتز، أجابه وقد بانت على وجهه علامات السعادة،

أغلق الهاتف ثم التفتَ إليّ وقال: يبدو أننا محظوظان بما سيخرجك من عزلتك هذه، هناك أخبار سارّة.

سألتُ: وماذا تكون يا ترى؟

قال: هناك من ينتظرك في الصالة في الأسفل، شخص ترغبين في لقائه.

لا أذكر أن هناك شخص بهذه المواصفات! سألتُ: من هو؟

أجاب: فيوج.

فعلاً ركضتُ إلى الصالة الرئيسية دون أن أشعر، لففتُ حجابي في الطريق، ونزلتُ الدرج لا أبالي إذا ما تعثرتُ، ووجدته في الصالة الرئيسية، يقف وقد أمسك به رجلان عن يمين وشمال، يشدون ذراعيه فوق أكتافهم حتى لا يأتي بأي حركة، أمرتهم أن يتركوه ولا يؤذوه على الفور، ففعلوا، ثم غادروا المكان.

وقفتُ أمام فيوج أنظر إليه، لقد تغيّر بعض الشيء، لستُ أرى ابتسامته المعهودة، إنه متعب وحزين، وثيابه بسيطة قد أتلفها الحرّاس، لقد طلبتُ إليهم ألا يؤذوه!

أخذتُ نفساً عميقاً ثم سألتُه: لماذا تركتَ المتجر؟

ولكنه لم يُجب، فقلتُ: على الأقل أخبرني أنك لن تفتحه كل

يوم، لكنتُ وظّفتُ أحداً بدلاً منك في تلك الفترة.

نطق فيوج أخيراً: يبدو أنني مدين لك باعتذار كبير.

سألتُه: فيوج، ما الذي جرى؟ هل حدث مكروه؟

طأطأ فيوج رأسه ثم قال: عفواً، هل كنتُ أعرفك عن قرب؟

لا! لقد عاد ثانية، هل يُعقل أن ينسانا في فترة قصيرة كهذه؟

قلتُ: فيوج، أنا هالة، لقد عملتَ في متجري فترة طويلة، لا بل لقد التقينا عدة مرات منذ سنوات، لقد ساعدتنا أنا وأحمد كثيراً حتى استطعنا تدبر أمرنا، أنتَ تعني لنا الكثير.

ابتسم فيوج وقال: إذن أنتِ هي هالة. حمداً لله أنني كنتُ مصدر خير لكما.

سألتُه: ألا تذكرني فعلاً يا فيوج؟

بقي واقفاً، لا يبدو أنه يرغب في الإجابة، ولكنها لم تكن المرة الأولى، بل ليستْ الثانية التي لا يذكرنا فيها فيوج، نظرتُ إلى يده حيث يلبس السوار، إنه فيوج بكل تأكيد، سألتُه: أين ذهبتَ؟ لماذا تركتنا فجأة؟

أجاب: لقد عدتُ إلى بلدي الأم، هذا كل ما في الأمر.

قلتُ: لماذا لم تخبرني؟

أجاب: حدث كل شيء بسرعة.

قلتُ: هل حدث مكروه، لا تبدو على ما يرام.

أجاب: شيء من هذا القبيل.

لماذا لا يتحدث، نحن وحدنا فلماذا لا ينطق؟ نظر إلى يدي، إلى الخواتم في يدي بالتحديد وقال: أنتِ متزوجة.

قلتُ: لقد حضرتَ حفل زفافي يا فيوج، قبل بضعة أسابيع.

ابتسم ابتسامة ساخرة لم أفهم معناها، ووضع يده على رأسه واعتذر، ثم قال: ماذا كنتُ أعمل لديك؟

قلتُ: لقد كنّا نعمل معاً في متجر الحلويات.

رفع يده عن رأسه وقال: حلويات! أنا لا أجيد صناعة الحلويات، بل لم أقم بذلك في حياتي.

قلتُ: بل كنتَ بارعاً فيها.

في هذه اللحظة دخل معتز يقول: ستعود إلى العمل في المتجر، وستكون رئيساً للطاقم فيه.

نظرتُ إلى معتز، إنه لا يفهم ما يجري، كما لا أفهمه أنا صدقاً، ولكن عندما يقول فيوج أنه لا يعرف شيئاً عن الحلويات فإنه صادق في ذلك، ولكن فيوج لم يجادل، تصرف بكل عقلانية وقال: هذا

شرف كبير لي يا سيدي، وأعتذر عن الفوضى التي سببتها لكما.

ارتسمتْ ابتسامة حزينة على وجه فيوج لن أنساها أبداً، أشعر أن هناك خطباً ما، لماذا لا يتحدث فيوج؟ لماذا لا يخبرني بما يجري معه؟

■ ■ ■

■ الفصل الستون | أحمد

عدتُ إلى المنزل بعد المناوبة المسائية، لم أعد أشعر أن هذه الشقة هي منزلي، فلم أعد أحب العودة إليها، أولاً كانت ذكريات هالة، أما اليوم فهو والدي.

أصبحتْ رائحة الشقة كريهة، مزيج من دخان وطعام وغبار، والفوضى تعم المكان، لا أحد ينظف، فليس لدي الوقت الكافي ولا الرغبة في قضاء الوقت في التنظيف، كما أن والدي لن يترك المكان نظيفاً دقيقة واحدة حتى بعد تنظيفه.

ناهيك عن مرضه ومرضي، لا أظن أنه يستحسن لي البقاء في المنزل طويلاً.

دخلتُ الشقة، وكلما ظننتُ أنني أعرف أنها غير نظيفة اكتشفتُ أنني أهوّن الأمر، لقد باتت أشبه بمكب النفايات، لم أتوقع أن أجد والدي فيها، ولكنه اليوم كان هنا، يستلقي على الأرض حوله مجموعة السجائر، وكؤوس لا أدري ماذا شرب فيها، يلفّ نفسه بلحاف خفيف، ولكنني لا أظنه نائماً.

اقتربتُ منه، فشعرتُ أنه ليس على ما يرام، إنه يتعرّق بشدة، ويلهث، حاولتُ إيقاظه ولكنه ليس على طبيعته، إنه منهك جداً،

ويبدو أن حرارته مرتفعة.

غسّلتُ وجهه بالماء، وحضّرتُ له حساء، ولكنه لم يستطع النهوض لتناوله، أخيراً شعرتُ أن الأمور باتت خارج السيطرة، إنه بحاجة إلى عناية طبية، وعليّ أن آخذه إلى أقرب مشفى.

اتصلتُ بسيارة الإسعاف، ونقلناه إلى أقرب مشفى، هناك أجريت بعض الفحوصات اللازمة، وتقرر أن يدخل العناية المركزة، ولكن من أين لي بالنقود؟

قمتُ بتسليم هويّتي على أن أحضر المبلغ المطلوب خلال أربع وعشرين ساعة، بينما يحظى والدي بالعناية الكاملة.

تركتُ والدي في المشفى، وهرعتُ إلى المصدر الأكيد للنقود، هالة...

كانت السماء تمطر، والهواء يعصف، ولستُ أملك النقود الكافية لركوب سيارة أجرة، ركضتُ على قدمي إلى القصر الذي لم أدخله بعد حفل الزفاف مطلقاً.

في مأزق كهذا نكون أنا وهالة مشتركان في المسؤولية، إنه ليس والدي وحدي، ولا أظنها تبخل عليّ بالنقود، حتى لو كانت تكرهه.

هذا كان ظنّي، وركضتُ على هذا الأمل، استغرقني الطريق ثلث

الساعة جرياً، ووقفتُ أمام البوابة، سألني الحارس ماذا أريد، طلبتُ إليه مقابلة هالة، السيدة هالة اليوم، إنني أخوها.

حدّق بي، أعرف أنني مغمور بالمياه، ولستُ في مظهر يليق بأخ السيدة، ولكنها الحقيقة، طلب إليّ دليلاً، وبما أنني تركتُ هويتي في المشفى فلم يكن لدي دليل، طلبتُ إليه فقط أن يُعلم هالة بقدومي، ولكنه أجاب ببساطة أن السيدة هالة ليستْ في القصر، في هذه اللحظة اقتربتْ سيارة فخمة من البوابة تعود إلى القصر، ولحسن حظي كانت هالة.

وقفتُ أمام السيارة فنزلتْ عندما رأتني: أحمد! ماذا تفعل هنا؟

قلتُ بينما ناولها السائق مظلة تحميها من المطر: والدنا في المشفى، إنه في خطر.

قالتْ: كنتُ أكيدة أن والدي هو سبب قدومك، هل صرف كل نقودك؟

الحقيقة أنه فعل، ولكنني قلتُ: هذا ليس الوقت المناسب يا هالة، إنه في خطر.

قالتْ: أوه، أولم نكن في خطر لسنين عدّة؟

قلتُ: هالة، إننا نتحدث عن والدنا، هذا ليس وقتاً مناسباً للحساب.

قالتْ: إنـه وقـتٌ مناسـب للاسـتعطاف، اتصـل بزوجتـه علّهـا تصرف له العلاج المناسب.

قلتُ: إنها ميّتة يا هالة.

قالتْ: أوَ كذب عليك هذه الكذبة أيضـاً، إنهـا ليسـتْ كـذلك يـا أحمد، هي من بعثته إلينا.

جفلتُ، أعترف أنني لم أتخيل ذلك، هل أنا ساذج حقاً؟ هل مـا تزال تلاحقنـا إلى الآن؟ هـززتُ رأسـي أحـاول طـرد تلـك الأفكـار مـن مخيلتي، فالآن لديّ ما هو أهم: هالة، إنه في المشفى، وهو بحاجـة إلى العلاج.

قالتْ: تعني أنه بحاجة إلى المال، وهو ما لا تستطيع تقديمه له.

قلتُ: لقد صـرف نقـودي، ولكنـه الآن في ماسّـة للعـلاج، أريـد بعض النقود لليلة واحدة.

سارتْ هالة إلى أن وقفتْ إلى جـانبي وقالـتْ: إذا مـا كـان أمـره يهمّها فلتبعث إليه بالنقود، إن أمره لا يهمني.

لقد كان هذا جواباً حاسماً، منذ متى باتتْ هالة قاسـية إلى هـذه الدرجة؟ أظن أنها لا تستطيع التفكير بشيء إلا بزوجة أبي، مـا يـزال طيفها يلوح في ذاكرتها.

سارتْ هالة مبتعدة عني، وصعدتْ الدرجات ودخلتْ البوابة وسارتْ في ممر داخليّ إلى القصر، بينما نزل معتز من السيارة ذاتها، وقد كنتُ قد نسيتُ أمره، وبغضي له، ولكنه خرج ومعه حقيبة، صعد الدرجات ثم التفتّ إليّ وقال ببرود: لا تستطيع توفير بعض النقود للعلاج.

ثم ألقى بالحقيبة لتتناثر النقود من داخلها وتطير مع الهواء والمطر وتستلقي تحت قدمي، نظرتُ إليها ثم وجهّتُ نظرة حانقة إليه، ابتسم ابتسامة ساخرة ودخل الممر الذي دخلتْهُ هالة قبله إلى القصر.

بقيتُ واقفاً تحت المطر أنظر إلى الحقيبة تحت قدمي وفيها من النقود ما يكفي لمبيت أربعة أو خمسة أيام في العناية المركزة، إنه مبلغ كبير، ولكنني ما كنتُ لأنحني، لقد طلبتُ النقود من هالة وليس من معتز.

تركتُ النقود مكانها وركضتُ بأقصى سرعتي تحت المطر أحاول تفريغ طاقة كانت تنفجر في داخلي، لستُ بحاجة إلى نقودك، ولن تهينني، وما زلتُ أؤمن أن النقود ليستْ كل شيء، وأنك لستَ شخصاً جيداً، أنا أكرهك.

ركضتُ بعيداً لستُ أدري أين أذهب، لستُ أدري ماذا أفعل، من أين لي بالنقود الآن، وفي هذه الساعة؟

تجوّلتُ كثيراً ثم عدتُ إلى المشفى خالي اليدين، لستُ أدري ماذا سأقول، ولكن كان عليّ أن أطمئن على والدي. وصلتُ مكتب الاستقبال، سألتُ عن سريره الحالي، وكنتُ أظن أنه في العناية المركزة، رفعتْ الموظفة الهاتف تعلم أحدهم أنني قد حضرتُ، يبدو أنه المحاسب، ماذا أفعل؟

بعد دقائق حضر رجل طويل يرتدي روباً أبيضاً ويضع سمّاعات حول رقبته، لا يمكن أن يكون المحاسب! وقف أمامي وسألني عمّن أكون، أجبته أنني ابن الرجل المخطر بالسل، أجلسني وجلس إلى جانبي يقول: لقد كان في حالة سيئة، ويبدو أن السل الذي كان يعاني منه من النوع المقاوم للعلاجات.

ما هذه المقدمات؟ ماذا يريد أن يقول؟

تابع: لقد دخل العناية المركزة.

قلتُ: أعلم ذلك، وقد حاولتُ أن أجلب النقود، ولكن...

قاطعني قائلاً: ولكنه لم يستطع أن يتحمّل أكثر.

سألتُه: ماذا تعني؟

قال: لقد وضع على جهـاز تنفسـي فـور وصـوله العنايـة، وبـدأ ضغطه يـنخفض، حاولنـا مسـاعدته بالسـوائل والعلاجـات الوريديـة، ولكن...

سألتُ: ولكن ماذا؟

أجاب: لقد توقف قلبه عن العمل، وقام فريق الإنعاش بمحاولة لمساعدته، ولكنهم لم يفلحوا.

جفلتُ، فقال بكل وضوح: لقد توفي.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والستون | هالة

لستُ أدري لماذا أشعر برغبة في البكاء، لم تستطع عيناي حبس الدموع، أين أنا من هذا العالم؟ لماذا يحدث ذلك معي؟ لماذا لا يتركونني وشأني؟ أريد فقط أن أكون سعيدة.

لم أستطع إخفاء الدموع عن معتز، الذي لم يسأل ويستفسر عن سببها بعد ما شهده الليلة من مسرحية ساخرة، عانقني ليحاول تهدئتي، وأنا شاكرة جداً أنه لم ينطق بأي كلمة إلى الصباح.

فتحتُ عيني في الصباح وقد كنتُ ما أزال بين ذراعي معتز الدافئتين، أشعر بألم وتورّم في عيني جرّاء الدموع التي ذرفتها طول الليل، كما أشعر بصداع في مؤخرة رأسي، يالها من ليلة سيئة.

استيقظ معتز على حركتي، استفسر عن حالي، أخبرته أنني على ما يرام، ولكنني أشعر بصداع خفيف، فطلب إلى الخدم تحضير عصير طبيعي علّي أهدأ قليلاً.

شربنا العصير معاً، بالكاد هدأتُ إلى أن استأذن موظف بالدخول، اقترب منّا وقال بصوتٍ وقور: سيدي معتز، سيدتي هالة، لديّ رسالة من السيد أحمد شقيق السيدة هالة.

لم أعد أستطيع التنفس، هناك خطب ما بكل تأكيد، قال معتز:

ما هي؟

أجاب الموظف بعد تردد: لقد توفي.

وضعتُ رأسي على الطاولة، لم أعد أقوى على الحركة، طلب معتز إلى الموظف المغادرة، وأحاطني بذراعيه، بكيتُ بشدة، لقد كان أحمد محقاً، لم يكن ليحضر إلى هنا إلا لشأن خطير، كان عليّ أن أخمّن ذلك، لقد بخلتُ عليه بأبسط ما أملك.

نظرتُ إلى معتز وعيوني ملأى بالدموع أقول: لقد بخلتُ عليه، كان عليّ أن أساعد، أنا السبب فيما جرى.

أشار معتز بالنفي وقال على الفور: لقد أعطيته النقود يا هالة.

تفاجأتُ بذلك، ولكنه قال: لقد علمتُ أنك ستندمين خاصة إذا ما حصل الأسوأ، لقد أعطيتُ أحمد النقود بعد أن دخلتِ، لستِ السبب فيما جرى، لقد انقضى أجله فحسب.

سألتُه: أفعلاً فعلتَ؟

أكّد لي: لم أكن لأتركك وحدك في ظروف كهذه.

أعترف أنني هدأتُ، وضعتُ رأسي على صدر معتز الشخص الوحيد الذي بات يفهمني، وانزاح شعور الندم في لحظات، بل بتّ أشعر أنني محظوظة، إنني في أفضل حال.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني والستون | أحمد

لقد عدتُ وحدي ثانية، لستُ أدّعي أن وجود والدي في الشقة كان أمراً جيداً، ولم نجلس إلى بعضنا جلسة الابن لأبيه، ولم أكن سعيداً معه، ولم يعجبني حاله، ولكنه كان على قيد الحياة.

لستُ أدري كيف استقبلتْ هالة الخبر، أو إذا ما أخبرها الحارس به أساساً، ربما لم تأبه بالأمر فهي لم تأبه به على الإطلاق.

عدتُ إلى الشقة التي كانت متسخة وتعمّها الفوضى، ليستْ لدي الرغبة في التنظيف، كل شيء هنا ليس إلا مخلّفات والدي.

نظرتُ إلى كتاب دلال، لم أعده بعد إلى المكتبة، حملتُه واتجهتُ إلى المكتبة لأعيده، علّي أجد دلال هناك.

دخلتُ المكتبة، ووضعتُ الكتاب على الطاولة أريد إعادته، سجّلت الموظفة المعلومات على الحاسوب، ثم نظرتْ إليّ وقالتْ: لقد تأخرتَ عن موعد التسليم، عليك أن تدفع غرامة عن كل يوم.

ماذا؟ غرامة! لستُ أملك نقوداً كافية للطعام، لماذا عليّ دفع ثمن كتاب لم أشتريه! سألتُها: عفواً، لماذا عليّ أن أدفع؟

أجابتْ بكل بساطة: هذا قانون المكتبات، الاستعارة محددة، إذا ما تأخر أحدهم عن إعادة الكتاب فإنه يدفع غرامة عن كل يوم، كما

إذا ما أعاده متلفاً عليه دفع ثمن الكتاب كاملاً.

لديهم قوانين صارمة هنا، سألتُها عن المبلغ المطلوب، فكان نصف ما أحمل في جيبي الآن، دفعتُه وخرجتُ من المكتبة لا أنوي أن أعود على الإطلاق.

كيف لي أن أتدبر شهري هذا دون نقود؟ إنني حتى لم أدفع للمشفى، ولم أستلم هويّتي، التي اعتدتُ العيش بدونها.

عدتُ إلى المنزل، وضعتُ رأسي على الفراش ونمتُ دون أن أحرّك قطعة واحدة من على الأرض، أو أمسح بقعة واحدة من على الطاولة، الرائحة كانت كريهة ولكنني نمتُ فحسب، لعلّ الشهر ينتهي بسرعة فأحصل على الراتب قبل أن أضطر لدفع مصاريف أخرى غير متوقعة.

استيقظتُ بعد ساعات، وقفزتُ من الفراش من فوري، سأتأخر عن المخزن، لا أريد أن أفقد مصدر رزقي الوحيد.

وصلتُ بعد الموعد بربع ساعة، لحسن حظي أن المناوب السابق كان نائماً، وإلا لأوقعني بمشكلة، تعمّدتُ أن أتركه نائماً فترة أطول، وادعيتُ أنني لم أشأ أن أوقظه، فقد كان يبدو عليه التعب، هكذا بعد نصف ساعة بتّ وحدي.

جلستُ والأفكار تحوم في رأسي، لقد مات والـدي منـذ أقـل مـن أربع وعشرين ساعة، وها أنا أعمل وكأن شيئاً لم يكـن. هـل سـنقيم لـه جنازة؟ ومن سيحضرها، ربما تتكفـل هالـة بـالأمر، فالمظـاهر البرّاقـة باتت جزءاً مهماً في حياتها.

قطع أفكاري صوتٌ من الزاويـة البعيـدة للمخـزن، لم تكـن المـرة الأولى التي أسمع فيها أصواتاً لا أساس لهـا خاصـة في منتصـف الليـل، ولكن هذه المرة كنـتُ واثقـاً أن هنـاك شخصـاً مـا! اتجهـتُ إلى البوابـة بحذر، خطوة بخطوة وصلتُ وفتحـتُ البـاب، لا أحـد هنـاك، أغلقـتُ الباب ولاحظتُ بعض الكراتين قد انزاحت من مكانها، لستُ أدري إذا ما كانت هذه من آثار الحراسة الماضية أم أنه كان الصوت الذي سمعتُ.

اقتربتُ من الكراتين، إنها ثقيلة، لا أظن أن أحدهم قد أزاحهـا بنفسه، ولكنني أرى بعض الأوراق تحت الكراتين، هنـاك الكـثير مـن الملفات أيضاً لا أستطيع أن أصل إليها، هل يُعقـل أن أحـدهم كـان يريـد الحصول عليها؟

لا تبدو أوراقاً مهمة، إنها كثيرة وقديمـة، يسـهل علـيّ إرجـاع الكراتين التي كانت إلى مكانها على أن أطّلع على الأوراق، فهي بعيـدة وكثيرة.

أحضـرتُ العربـة واسـتخدمتها في دفـع الصـناديق إلى مكانهـا، وهكذا لن يحاسبني أحدهم، وكأن شيئاً لم يكن.

عدتُ إلى مكاني، وتابعتُ حراستي دون أحداث تُذكر.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والستون | هالة

مضتْ أيام على وفاة والدي، وقد تخطيتُ الأمر، ولم أقابل أحمد، وفتحتُ عزاء شكلياً له في القصر، لم يكن أحدهم يعرفه، كما أنني لم أتحدث عنه مطلقاً.

لا أريد لشيء كهذا أن يثبطني، قررتُ أن أذهب إلى متجري لأكشف عن العمل هناك، وأقابل فيوج.

المتجر كان مفتوحاً ونظيفاً، بل كان هناك العديد من الزبائن، دخلتُ بابتهاج، ورحّبتُ بالعاملين، وكان فيوج يقدم الأطباق للزبائن.

نظر إليّ وابتسم، ولكن ابتسامته كانت حزينة، إنه ما يزال شارد الذهن. رحّب بي وسألني عن العصير الذي أريد، طلبتُ بعض المثلجات وجلسنا لنتحدث في أمور المتجر.

إنه لا يعرف عن المتجر الكثير، ويبدو أنه بدأ تعلم أصول الخبز من الصفر، عمّال المتجر لا يأبهون به ولا يستمعون إليه، إنه فقط يقدم الأطباق للزبائن لأنني أردته أن يعمل هنا.

عندما يقول فيوج أنه لا يعرف شيئاً ما فهو صادق، لستُ أدري ما يحدث له ولكنه دائماً إنسان خيّر، سألتُه: هل تريد أن تتابع العمل هنا؟

نظر إليّ وقال: هل اشتكى أحدهم مني؟

أجبتُ: لا، ولكنني لا أظنك سعيداً.

قال: إنه عمل صعب، لا أظن أنني سأتقنه.

قلتُ: ولكنك كنتَ تتقنه، لقد كنتَ تعمل هنا.

قال: أعرف.

قلتُ: أتذكر؟

قال: لا أذكر شيئاً، ولكنك أخبرتني، وأعلم أنك صادقة.

تنهّدتُ، أخيراً سألتُ السؤال المباشر: فيوج، ماذا يحدث بالضبط؟ إنها ليستْ المرة الأولى، كيف تنسى كل شيء؟

ابتسم وقال: كيف لي أن أعرف؟

قلتُ: ولكنك اليوم مختلف، تبدو مرهقاً، يبدو أنك تعلم شيئاً ما، أخبرني ماذا يجري؟

سأل: هل أنتِ سعيدة؟

لماذا يغير الموضوع؟ أجبتُ: الحمد لله، أنا سعيدة.

قال: هذا ما يهم.

قلتُ: وهل أنتَ سعيد؟

فكّر قليلاً ثم قال: بما أنكِ سعيدة فأنا سعيد.

قلتُ: ماذا عن نفسك، هـل حققـتَ مـا تصـبو إليـه؟ هـل بنيـتَ حياتك بالشكل الذي كنتَ تحلم به؟ هل فعلتَ كل ما كنتَ تريد فعله؟

ابتسم وقال: لقد فعلتُ، ولكن النتيجة لم تكن كما تخيّلتُ.

أخيراً بدأ يتحدث عن نفسه، حتى ولـو لم أفهـم شـيئاً، قلـتُ: وماذا كانت النتيجة؟

ضحك وقال: فيوج.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والستون | أحمد

عدتُ مرهقاً من المناوبة، إما أنها كانت متعبة أكثر من غيرها، أو أنني مرهق بسبب الأحداث المتتابعة.

نمتُ إلى ما بعد الظهيرة، واستيقظتُ على دقّة الجرس، من تراه يحضر إلى شقتي؟ فتحتُ الباب، مرّ زمن ولم يحضر إلى هنا، إنه منسيّ!

دخل الشقة بسرعة وقال: هل أحضرتَ شيئاً منها؟

كانت شقتي ما تزال مبعثرة، وبدأ يقلّب تحت الأشياء، سألتُه: ما هي؟

قال: الأوراق!

سألتُ: أي أوراق؟

تنهد وقال: لقد أعدتّها إلى مكانها، أليس كذلك؟

قلتُ: أنا لا أدري عمّ تتحدث.

فسّر: الأوراق التي وجدتها في المخازن، هل أخذتَ منها شيئاً؟

قلتُ: ولمّ أفعل؟ أنا حارس المخزن.

تنهّد وقال: هذا تصرف سانج.

انزعجتُ مما قال: لماذا تقول ذلك؟ أنا حارس المخزن، وقد

حضر أحدهم ليعبث في الأوراق، فأعدتها إلى مكانها، لا تقل لي أنك كنتَ العابث فيها!

قال: وماذا لو قلتُ نعم، أريد تلك الأوراق، أريدك أن تأخذها.

سألتُ: وماذا تريد منها؟

قال: هذا الحوار لن يفيد في شيء.

سألتُ: لماذا؟ لماذا دائماً عليّ ألا أفهم شيئاً؟

قال: ليس لأنك لن تفهمه، ولكنك لا تستطيع مساعدتي.

سألتُ: كيف تريد مني أن أساعدك وأنتَ لا تفصح لي عمّا يجول في خاطرك؟

رفع وسادة يبحث تحتها فقلتُ: لا توجد أوراق هنا! ألا تسمع؟

قال: إذن عليّ أن آخذها إلى غيرك، لا فائدة من الاعتماد عليك.

سار إلى حيث الباب، فأمسكتُ ذراعه بقوة وقلتُ: تدخل منزلي وتفتش فيه كما يحلو لك، ثم تسأل أسئلة لا أفهم محواها، وأخيراً تغادر بكل بساطة، من تكون أنت؟

دق جرس المنزل ثانية، لم يحدث أن دق الجرس مرتين خلال نصف ساعة منذ سنين، اقتربتُ من الباب وسألتُ: من هناك؟

أجاب صوتٌ رقيق: أنا دلال.

في لحظات غطّى منسيّ رأسه بقبعة معطفه، وركض إلى نافذة المطبخ، وقفز منها إلى سطح المنزل المجاور، ركض مبتعداً قبل أن أفهم منه أي شيء!

ليس لدي الآن وقتٌ لأفكر فيه، فلديّ ضيف مهم على الباب، أمسكتُ بمقبض الباب وقبل أن أفتح تذكّرتُ أنني قد استيقظتُ من النوم للتو، فركضتُ إلى المرآة، وصففتُ شعري بسرعة، ورتّبتُ مظهري، ولكنني نظرتُ في الشقة، إنها في أسوأ حال! عليّ أن أكون حذراً لألا تلمح شيئاً من الفوضى.

شققتُ الباب بحيث لا تلمح دلال شيئاً من الداخل، وابتسمتُ مرحباً بها: أهلاً، إنها مفاجأة جميلة.

ولكنها لم تكن مبتهجة كعادتها، كانت ترتدي ثياباً بنية داكنة، وقفازات من لون حنطي، وقبعة رسمية بشكل ملحوظ، تحمل في يدها كتاباً تشدّ عليه في ارتباك، قالتْ: ظننتُ أن أحداً لن يعزيك في فقدان والدك.

يبدو أنني بدأتُ أنسى أمر والدي بسرعة: أوه، لا عليك، لقد حدث ذلك بسرعة.

قالتْ: عظّم الله أجركم.

قلتُ: شكر الله سعيكم.

صمتنا قليلاً ثم قالتْ: ربما لا يكون ذلك وقتاً مناسباً، ولكنني أريد أن أهديك هذا الكتاب.

نظرتُ إليه، بتُّ قادراً على قراءة العناوين بسرعة "ما يزالون أحياء" إنه أيضاً من تأليفها، قالتْ: لطالما آمنتُ أن الكتب هي أكبر عزاء للإنسان، أرجو أن تشاركني هذا الرأي.

لم أكن أمسكتُ الكتب إلا مؤخراً، بل إنني قرأتُ كتاباً واحداً هو الذي أهدتني إياه في المرة الماضية، والذي اضطررتُ لدفع غرامة للتأخر في إعادته إلى المكتبة! ولكنني جاملتُ: بالتأكيد، شكراً جزيلاً لك، سأقرؤه بكل تأكيد.

أخذتُ الكتاب، ثم سألتُها: هل أعيده إلى المكتبة نفسها؟

كنتُ حريصاً هذه المرة على ألا أدفع نقوداً غير متوقعة، ولكنها قالتْ: لا، هذا الكتاب إهداء شخصي لك، احتفظ به.

شكرتها ثانية، وألقتْ التحية لتغادر المكان، لم تُطِل، ربما تظن أنني حزين، حزني لم يكن على والدي بقدر حزني على هالة التي لم أعد أفهم كيف تفكر، وماذا تفعل، هل تلوم اليوم نفسها على وفاة والدي أم أنها لا تبالي؟

أغلقتُ الباب، وقررتُ أخيراً أن أباشر قراءة الكتاب بعد تنظيف المكان، وإعداد وجبة خفيفة تسد الجوع.

هكذا بتَ أقضي يومي في القراءة، إلى أن يحين موعد المناوبة في المخزن، ولكن شيئاً ما كان يشدني إلى الأوراق التي وجدتُ، لماذا توجد ملفات كهذه في المخزن؟ لا أذكر أنني رأيتُ أي ورقة من قبل، ماذا كُتب فيها يا ترى؟

قررتُ أن أسأل، وهي من اللحظات التي أعترف فيها أنني كنتُ ساذجاً، سألتُ المسؤول عن المناوبة الصباحية، فقد كان أقدمنا في هذا العمل، سألتُه عن طبيعة البضاعة التي نحرس، وإذا ما كان هناك أوراق غير التي وجدتها، وما تكون، ولكنه أجابني دونما اكتراث، البضاعة عبارة عن أجهزة لا نعرف عنها شيئاً، وليس هناك أوراق في المخزن، إلا إذا كانت هناك بعض الأوراق بين الأجهزة لحماية الجهاز، هذا كل ما في الأمر.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والستون | هالة

أمر فيوج بات غريباً، وأمر أحمد بات مزعجاً، وأمر النبلاء بات مملاً، ليس لدي من أتعلّق به سوى معتز، الذي يغيب طويلاً في العمل.

بات لدي وقت فراغ طويل، ومعظم وقتي ينقضي في تسريح الشعر والتزيين، والوقت الباقي ما بين القراءة والطعام.

أخيراً قررتُ أن أدخل المطبخ، تفاجأ الجميع لحضوري، ولكنني طلبتُ إليهم عدة الحلويات، وبدأتُ أصنع الحلويات كما كنتُ أفعل في متجري، صنعتُ الكثير الكثير منها وسط ذهول الجميع، وجعلتُ الطهاة يتذوقون مما أصنع، وقد كان فاخراً.

طهوتُ وطهوتُ وطهوتُ، أريد أن يمرّ الوقت هنا، بين الحلويات، طلبتُ إليهم قطعاً من الشوكولاتة الجاهزة، فجلب لي أحد الطهاة علبة من الشوكولاتة الفاخرة، والتي تعرّفتُ عليها على الفور.

هذه العلبة جرّتنا إلى الكثير، هذا النوع بالتحديد جلب إلينا المتاعب، في المخبز، ثم في المتجر الكبير، لقد حلّ النحس علينا بسببها!

طلبتُ إلى الطاهي أن يجلب لي علبة أخرى من نوع مختلف،

وتعللـتُ أنــني لا أحـب هـذا النـوع علـى الكعـك، فأطـاعني دون أن يستفسر، لن آكل من هذه الحلوى ما حييتُ.

هكذا حضّرتُ الكثير من الحلويات والكعك، وأكل جميـع مـن في القصر ابتداء من معتز وانتهاء بالحـارس، كـان كـل شـيء شـهياً، ولم أفقد لمستي في الطهي حتى بعد أن تركتها فترة طويلة.

هذا كان اليوم، ولكن ماذا عن الغد؟ كيف سأقضيه؟

كنتُ أشغل نفسي بالتفكير كثيراً فيما أفعل، مـن الممـل جـداً أن أقضي اليوم في التجوال في القصر، وليس لدي صديقة هنا، وكل الأعمال معدة والمكان نظيف، حتى أنني بتّ أنام أطول من المعتاد.

استيقظتُ في اليـوم التـالي السـاعة الثانيـة عشرة ظهـراً، هـذا كثير، لقد بتّ كسولة، هذه المرة خرجتُ للتسوق، طلبتُ من السائق أن يصطحبني في جولة بين الأسواق، وكـان قـد أخـذني إلى الأسـواق الـتي ترتادهـا النبـيلات في العـادة، والـتي لم أدخلـها في حيـاتي، كانـت الأسعار باهظة جداً، لدرجـة لم أسـتطع فيهـا انتقـاء أي شـيء، لـيس لأنني لا أملك المال، فقـد بـتّ أملـك منـه الكـثير، ولكـن لأنـني لستُ معتادة لصرف كل هذه النقود على ما كنتُ أدفع القليل من أجله.

عدتُ إلى القصر بعد أربع ساعات من التجـول، ولم أشـتر سـوى

الشيء القليل من الأمور الضرورية التي كنتُ بحاجة إليها لا أكثر، ربما في المرة القادمة كان عليّ اصطحاب معتز.

كان يومي الفعلي يبدأ عند قدوم معتز، وينتهي عند غيابه، ولم يكن ذلك الوقت طويلاً، ولكنني كنتُ حريصة على استغلاله جيداً.

اليوم ذكر أحمد! أعلم أنه لا يحبه أبداً لذلك لا أحب أن أسمعه يتحدث عنه، رغم أنه اليوم حاول أن يكون لطيفاً: سمعتُ أن أحمد بدأ يتذمر من العمل في المخازن.

سألتُه وكنتُ حريصة على ألا أسأله عن أي شيء يتعلق بأحمد من قبل: وهل ما يزال يعمل في المخازن؟

قال: لم يبق لديه عمل غيره.

قلتُ: وماذا عن المطعم؟

قال: طرده.

لم أكن أعرف ذلك! لماذا؟ ابتسم معتز وقال: لا أعرف لماذا، ربما هو كساد العمل.

قلتُ: وما زلتَ توظفه في المخزن.

قال: أنا لا أحبه، ولكن إذا ما طردته من المخزن فإنه سيكون عاطلاً عن العمل، وسيطلب منك النقود.

لا أظنه سيفعل حتى لو مات من الجوع، ولكنه فعل من أجل والدي! لستُ أدري إلى أي مدى يتحمل، ولكن معتزاً قال: لا أريد أن تقلقي في شأنه، سيظل يعمل في مخزني، وسأظل أوصي به، رغم أن العمال الآخرين لا يحبونه.

لماذا أشعر أنه يبالغ، لم أناقش، لا أريد أن أسمعه يتحدث عن أحمد ثانية، فإذا كان لديه خبر عن أحمد فلدي قصص أرويها عن بطولته ووقوفه إلى جانبي، لا أظن أنه يحب سماعها.

قمتُ بتغيير الموضوع على الفور، واقترحتُ عليه الخروج إلى أحد المطاعم، والاستمتاع ببعض الأجواء الجميلة، وافق على الفور، وقضينا وقتاً جميلاً في أفخر مطعم في المدينة، وعدنا بعد منتصف الليل.

■ ■ ■

■ الفصل السادس والستون | أحمد

مناوبة الليلة الماضية كانت هادئة، ولكنني لم أستطع أن أبعد تفكيري عن الأوراق، لستُ أدري لماذا.

اتجهتُ إلى حيث وجدتها، كان العمال الآخرون قد أعادوا ترتيب الصناديق، ولم أعد أرى الأوراق، حاولتُ إزاحة الصناديق ولكنها كانت ثقيلة، رغم ذلك أحضرتُ الرافعة وأزحتُ الصناديق قليلاً إلى أن وصلتُ إلى حيث كانت الأوراق، ولكن بدلاً من الأوراق كانت هناك صناديق أخرى! أين الأوراق؟

من العبث أن أبحث عنها في مخزن كبير كهذا، لابد أن أحدهم قد أعاد ترتيبها، لماذا لم أقرأ ما فيها البارحة؟ لقد كانت بمتناول اليد، هل هي أوراق مهمة يا ترى؟

اليوم لدي مناوبة في منتصف الليل، قضيتُ معظم النهار في قراءة الكتاب، والنصف الآخر في النوم، فهما لا يكلّفان شيئاً.

كانت الساعة الثامنة مساء عندما دق جرس الشقة، دق مرة واثنتين وثلاثة إلى أن استيقظتُ وسرتُ إلى الباب لا أدري من يزور في هذه الساعة، فتحتُ الباب فإذا بها دلال!

كان القلق واضحاً على وجهها، وكانت تلهث، يبدو أنها قد

قدمت جرياً إلى هنا! ولسبب أجهله كانت تقبض يدها على الدفتر الذي تكتب فيه الرواية الجديدة، وترتدي أجمل الثياب كالعادة.

سألتُها: هل حدث مكروه؟

قالتْ: حمداً لله أنك هنا، أحمد... لدي رجاء لك.

قلتُ: وما هو؟

قالتْ: لا تذهب اليوم إلى المخزن.

غريب هذا الطلب! سألتُها: لماذا؟

قالتْ: أرجوك أن تثق بي، أشعر أن مشكلة كبيرة ستحصل.

ابتسمتُ لما قالتْ، تشعر! قلتُ بهدوء وتعقّل: يا آنستي العزيزة، هذا عملي الوحيد، ومصدر رزقي، لا أستطيع أن أترك مناوبة لي بهذه الطريقة دون سبب وجيه.

قالتْ: لم أقل لك أن تتهرب من العمل، فقط استبدل المناوبة الليلة، أرجوك.

يبدو أمراً خطيراً فعلاً، ولكنها قالتْ أنه إحساس فقط! قلتُ: هل هناك خطب ما؟

قالتْ: ليس بعد، أرجوك أن تفعل ما أقول لك، لا يجب أن تذهب الليلة إلى المخازن، استبدل المناوبة مع أي كان، وإذا لم يحصل

أي شيء فلن تخسر شيئاً، ستناوب مناوبة بدلاً منها ليس أكثر.

سألتُها: هل هو حلم سيء حلمتِ به الليلة؟

أشارتْ بالنفي، وقبضتْ يدها على الدفتر، وقالتْ: هو شيء أغرب من ذلك، أرجوك أن تستمع إليّ.

إنها تعلم أنني لم أقتنع، ولكنها نظرتْ إليّ بعيون حازمة وقالتْ: إذا ما حصل مكروه الليلة فأعدك أنني سأخبرك بكل شيء.

بقينا صامتين فترة، مناوبتي ستبدأ الليلة الساعة العاشرة، بقي ساعتان، رفعتُ هاتفي النقّال واخترتُ رقماً واتصلتُ به، ردّ الطرف الآخر فقلتُ: مرحباً سعد، أعتذر جداً للاتصال بهذا الوقت... أشعر بالإرهاق اليوم، أظنني قد أصبتُ بالتهاب معوي، هل لك أن تناوب الليلة على أن أناوب عنك في الغد؟... نعم... نعم... طبعاً... لا بأس... لا بأس... حسناً... شكراً جزيلاً لك.

أغلقتُ الهاتف، وكانت دلال تحدّق فيّ في انتظار ردّي، قلتُ: سيذهب بدلاً مني.

أخذتْ دلال نفساً عميقاً، واطمأنتْ بشكل غريب، وضمّت الدفتر إلى صدرها، إنها فعلاً واثقة من أن هناك خطباً ما سيحصل الليلة!

قلتُ: إذا ما حصل شيء ما الليلة فعليكِ أن تخبريني بالحقيقة.

فكّرتْ قليلاً ثم قالتْ: سأنظر في ذلك.

قلتُ: لقد وعدتني للتو!

قالتْ: المهم أن نتوخى الحذر، لا تقترب من المخزن الليلة، كـن في مكان آخر بين أشخاص آخرين، ولا تبقَ لوحدك في المنزل.

قلتُ: مهلاً مهلاً، لقد كثُرتْ الشروط هنا، من أين لي أن أذهـب إلى مكان آخر بين أشخاص آخرين، ليس لي من معارف هنا!

قالتْ: اذهب إلى مقهى، وتحدث إلى الناس، هذا كافٍ.

قلتُ: لماذا كل هذا؟

قالتْ: ألا تثق بي؟

ابتسمتُ وقلتُ: بلى، ولكنك تقولين شيئاً غريباً.

قالتْ: أنا أعرف تماماً ما أفعل، إنني أساعدك.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والستون | هالة

الليلة جلستُ إلى معتز نشاهد التلفاز، عندما تفرغ من الأشياء المهمة في الحياة يظل التلفاز هو الأسلوب الأشهر لإضاعة الوقت، ربما تكون هذه أول مرة أجلس فيها لأشاهد فيلماً طويلاً، في الحقيقة كان معتز من يتابع بانتباه، بينما كنتُ أتسلّى بما نضع على الطاولة من عصير ومكسرات.

كان معتز سعيداً، يبدو أنه فيلم يفضله، كان يسرد حكاية خيالية في الفضاء، ومعارك فضائية، لماذا يحب أن يشاهد شيئاً كهذا؟ المهم في النهاية أنه سعيد، يرفع صوته بين الحين والآخر في تعليق على الأحداث.

الساعة باتت الثانية عشرة من منتصف الليل، رنّ هاتف معتز ولكنه لم يأبه به، ثم رن ثانية وتركه، أخيراً دق أحدهم باب الغرفة، كانت الخادمة تستأذن أن هناك رجلاً يريد مقابلة السيد معتز لأمر مهم.

نهض معتز دون أن يكترث، لم تكن المرة الأولى التي يتهرّب فيها من العمل في الليل، فلم يكن هاتفه ليهدأ للحظة.

دقائق هي التي مرّت، ثم عاد بوجه مختلف، عاد راكضاً إلى

الهاتف ليجري اتصالاتٍ سريعة، يبدو أن أمراً سيئاً قد حصل.

سألتُه: هل حدث مكروه؟

أجاب بسرعة: لقد احترق المخزن.

سألتُه وكلّي رجاء أن يكون مخزناً غير الذي يحرسه أحمد: أي مخزن؟

ولكنه كان قد اتصل بأحدهم وبدأ يقول: كيف حصل ذلك؟ من كان هناك؟ من المسؤول عن هذا؟ ألا تعرف كم هي كلفة المعدات هناك؟ من سيدفع التعويضات؟... من؟... من كان هناك؟... أحمد!

شعرتُ بقلبي يقبض بشدة، وجلستُ على الأريكة دون أن أشعر بقدمي، لماذا تلاحقه المصائب في كل مكان؟ بل هل يُعقل أنه من قام بحرق المخزن عن قصد؟ إنه لا يحب معتزاً ولكنني لا أظن أنه يؤذيه، أحمد لا يمكن أن يفعل ذلك.

أغلق معتز الهاتف وبدأ يضرب كفّه على جبينه ليفكر، قال دون أن يوجه حديثه إليّ: إنها مليون ونصف المليون من المعدات الحديثة.

ثم تذكر شيئاً مهماً فجأة، وركض إلى غرفة النوم، تبعته فكان يفتّش في الأدراج بين الأوراق، قال ثانية محدثاً نفسه: التأمين! أوراق

التأمين كانت هنا، أين وضعتُها؟

فتح درجاً بعد الآخر، وبعثر الأوراق في كل مكان، كنتُ أعلم مكان كل ورقة منها، ولم يكن من ضمنها أي تأمين، ولكنني لم أشأ أن أقاطعه، خشيتُ أن ينتقل غضبه إليّ.

بعد ربع ساعة من التفتيش ألقى بنفسه على الفراش في انزعاج وإرهاق، لم يعثر على ما يريد، ولكنه نسي أمر التأمين وعاد يفكر في المخزن: مليون ونصف المليون! من الذي يفعل ذلك؟ ولماذا لم يسرق من المخزن، فما الفائدة من حرقه؟

صحيح ما يقول، إذا ما كان هناك من يريد ربحاً مادياً، كان عليه أن يسرق المعدات لا أن يحرقها، هذا عمل حاقد على معتز ليس إلا، ولا يهدف إلى الكسب المادي، يا إلهي، أدعوك من كل قلبي ألا يكون من فعل أحمد.

نهض معتز منزعجاً، وأمسك هاتفه ثانية، وعاود الاتصال بمسؤول المخزن: هل عرفتم المسؤول عن الحريق؟

ولكنني متأكدة أن السؤال عن ذلك كان مبكراً جداً، قال: ماذا تنتظرون، أمسكوا به قبل أن يهرب! أريد أن أسأله بنفسي.

أغلق معتز الهاتف بانزعاج، وعاد يضرب جبينه بيده من

التوتر، وقال لنفسه: علمتُ الآن لماذا فصلوه من العمل، إنـه فاشـل في كل شيء.

لا أريد أن أسأل، لا أريد أن أعـرف، لا أريـد أن يكـون أحمـد، ولكن معتزاً أمسك معطفه أخـيراً واتجـه نحـو البـاب ليخـرج، تبعتُـه وقلتُ: إلى أين في هذا الوقت؟

أجاب: إلى المخازن.

قلتُ: قد يكون الوضع خطيراً هناك!

قال: عليّ أن أجد أحمد.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والستون | أحمد

كانت ليلة غريبة ومضحكة، رغم أن الغموض لفّها في البداية إلا أنني عشتُ ليلة لم أعهدها من قبل.

ذهبتُ إلى مقهى ليلي، وجلستُ أحتسي الشاي، كان هناك رجل يخفي قطعة نقدية تحت الكؤوس، ويكسب بها بعض النقود، إنها لعبتي المفضلة، لم أستطع إلا أن أتدخل.

كان عليّ أن أضع بعض النقود، ولكنني لا أملك الكثير، ارتأيتُ أن أساعد المتسابقين دون أن ألعب أو أصرف قرشاً واحداً.

في البداية لم يستمع إليّ أحد، ولكن بعد محاولتين وثلاثة شعر الجميع أن الكأس الذي أشير إليه هو فعلاً الكأس الصحيح، لذلك حاول رجل أن يختار الكأس الذي أشير إليه فنجح، وابتهج الجميع، عندها طلب إليّ صاحب اللعبة التحدي، ولكنني لا أملك نقوداً فماذا أفعل، قررتُ أن أتحداه بطريقة مختلفة، طلبتُ كؤوساً ووضعتُ عملة تحت إحداها وطلبتُ إلى صاحب اللعبة أن يحزر مكان عملتي.

لاحظ الجميع مهارتي في اللعبة من الحركة الأولى، وظهر فارق المستوى بين ما أصنع وما كان صاحب اللعبة يصنعه، فلم يستطع هو ولا أي مِن مَن في القاعة إيجاد العملة.

الآن بدأت النقود توضع على الطاولة من جديد، ولكن هـذه المـرة كانت لي، وقد حصلتُ على مبلغ يعادل نصـف راتـبي في شـهر خـلال ساعات قليلة، هذا وقد كنتُ أخشى صرف أي مبلغ في هذه الأيام.

أصبحت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كنـتُ قـد اختلطـتُ بالحديث إلى الرجال عندما دخل أحدهم المقهـى يقـول: هنـاك حريـق كبير في المدينة!

هل هذا ما كانت دلال تخشاه؟ هل هذا ما أهرب منه؟ ولكـن مـا دخلي في الحريق؟

عندها دخل آخر يقول: حريق في المخازن، لم تصـل الـنيران أي منزل اطمئنوا.

المخازن! نهضتُ وكنتُ سأركض إلى هناك لولا أنني تـذكرتُ تحـذير دلال لي ألا أذهب إلى هنـاك ألـف مـرة، يبـدو أن مشـكلة كـبيرة ستحصـل جرّاء الحريق، بل يبدو أنه حريق مفتعل! ماذا تعرفين يا دلال؟

بقيتُ في المقهى إلى الفجر، ثم عدتُ إلى منزلي دون أن أمـر علـى المخازن، وهناك وعلى باب المنزل كان يجلس منسيّ، يبدو أن ثيابه قد لامستها النيران، وكان يضمّ إلى صدره مجموعة من الأوراق تكاد تكـون رماداً!

سألتُه: ماذا حدث؟

رفع رأسه إليّ فكان وجهه يعاني حروقاً لا تقل سوءاً عن الأوراق، فتحتُ الباب على الفور، وأدخلتُه ووضعتُ مياه باردة على وجهه، كان ذلك مؤلماً بلا شك، ولكنه كان ذا شخصية قوية حازمة، ولم يبدِ أي تأثر.



هذا ولم يزحزح الأوراق من على صدره، هل هي الأوراق التي كانت في المخزن؟ ماذا يحصل هناك؟

أجلستُه ليستريح، وسألتُه عمّا جرى، ومن فعل به ذلك؟ ولكنه ابتسم، وضمّ الأوراق إلى صدره أكثر، وأغمض عينيه في راحة لم أعهدها على وجهه من قبل.

تركته لينال قسطاً من الراحة، ربما نام لفترة وجيزة، نهض بعدها وبدأ يقلّب في الأوراق، سألتُه مباشرة: هل هذه الأوراق التي كانت في المخزن؟

أجاب دون أن يبعد عينيه عن الأوراق: نعم.

سألتُه: هل هي مهمة إلى هذه الدرجة؟

أجاب: نعم.

سألتُه: هل احترق المخزن من أجل هذه الأوراق؟

أخيراً نظر إليّ، يبدو أنني بدأتُ أتحدث في أمور خطيرة، قال: لا يجب أن يعلم أحد بأمر هذه الأوراق، ستكون في مشكلة.

قلتُ: وما دخلي أنا؟ أنتَ من يلاحق تلك الأوراق.

ابتسم وقال: ولكن معتزاً لا يظن ذلك.

معتز! لم أسمع اسمه منذ زمن! قلتُ: هل هذه الأوراق مهمة بالنسبة إلى معتز؟

أجاب: مهمة لدرجة يحرق فيها المخزن بأكمله.

سألتُه: ولماذا يتركها في المخزن؟ لِم لا يأخذها إلى قصره؟

أجاب: لأن حركاته مراقَبة هناك.

سألتُه: إذن لماذا لم يُتلفها منذ البداية؟

أجاب: لتكون دليلاً على تعاون آخرين معه، إن سقط يُسقطهم معه.

سألتُه: هل معتز هو من أحرق مخزنه بنفسه؟ ولماذا الآن؟

أجاب: يبدو أن هناك حركة مريبة في أمر الصفقة، فقرر أن يحرق الأوراق ليضرب عصفورين بحجر، الأوراق وأنت.

قلتُ: لقد حذّرني أحدهم من الذهاب إلى المخزن الليلة، كل شيء كان مدبراً.

قال: وكنتَ ستزج في السجن بكل سهولة.

كان التفكير في شيء كهذا مزعجاً جداً لي، ولكنني نظرتُ إلى الأوراق وقلتُ: هل لي أن أنظر فيها؟

قال: كانت لديك فرصة كبيرة ولكنك لم تفعل.

قلتُ: أريد أن أرى الأوراق التي كنتُ على وشك دخول السجن من أجلها.

نظر منسيّ إلى الأوراق، وفكّر قليلاً ثم قال: لقد عانيتَ ما فيه الكفاية، أظن أن الأوراق ستهم شخصاً آخر.

سألتُ: ماذا تعني؟

قال: من الأفضل أن تكون بريئاً من كل التهم، ومعتز يظن أن الأوراق احترقت، لستَ بحاجة إلى الأوراق.

قلتُ: أريد أن أعرف ما فيها!

نهض وقال: إنها دليل على معاملات فاسدة، بعضها كبير لدرجة لن تتخيلها، ولأكون صادقاً معك أظن أنك لن تفهم شيئاً منها حتى لو قرأتها.

لم يكن ذلك لطيفاً، قلتُ: هل سيدخل معتز السجن بسبب هذه الأوراق؟

قال: ربما أكثر من ذلك.

سألتُ: ماذا تعني بأكثر من ذلك؟

أجاب: ربما يعلن إفلاسه أيضاً.

أنا لا أحب معتزاً، ولكنني لا أريد أن أؤذي هالة، قلتُ: أعطني الأوراق، سأحتفظ أنا بها.

حدّق منسيّ في وجهي طويلاً، يبدو أنه قرأ ما في نفسي، قال:

لقد ظلم وسرق الكثير من الناس، هل تساعد شخصاً كهذا؟

قلتُ: أنا لا أساعده، ولن أفعل أبداً، فقط سأحتفظ بالأوراق عندي، ألم أكن المتهم الأول بالحريق.

قال: لستَ كذلك الآن، لقد أنقذتُك، ولكنني لن أسمح لك بإفساد ما أخطط له.

قلتُ: هل تنوي الإيقاع بمعتز؟

عندها دق الباب، اتجهتُ إليه أسأل: من هناك؟

أجاب صوت من الخارج: إنها الشرطة، جئنا لنحقق في أمر الحريق.

يبدو أنني المشتبه الأول، نظرتُ إلى منسي الذي كان قد خرج من النافذة وهرب بالأوراق، لا فائدة من اللحاق به، عليّ تدبر أمر الشرطة أولاً.

تم اصطحابي إلى مركز الشرطة، هناك سُئلتُ بعض الأسئلة عن علاقتي بمعتز، علاقتي بزملائي في العمل، عن أعمال أخرى عملتها، وطبعاً عن السبب الذي سُجنتُ من أجله في المرة السابقة، وأخيراً أين كنتُ وقتَ الحريق.

حمداً لله، ثم بفضل دلال كنتُ قادراً على إثبات وجودي في مكان

بعيد عن المخازن وقت الحريق، وتم إخراجي ببراءة في فترة وجيزة.

ولكن هذا لا يكفي، عليّ أن أجد دلال لأستفسر منها عمّا جرى، لقد وعدتْ أن تفصح لي بالسر.

ذهبتُ إلى الأماكن التي أجد فيها دلال في العادة، المكتبة، ثم المدينة المجاورة تحت الشجرة، ولكنها لم تكن هناك، عليّ الانتظار إلى يوم آخر، أو ربما تأتي إلى المنزل.

عدتُ إلى المنزل وبدأتُ أفكر من جديد، من أين لي بالنقود الآن؟ لقد ضاع عملي الوحيد.

■ ■ ■

■ الفصل التاسع والستون | هالة

كان خبر حريق المخازن مفزعاً، لم يهدأ معتز لحظة واحدة، بينما كنتُ أفكر في أحمد طول الوقت، هل يُعقل أن يفعل شيئاً كهذا، لقد فعل الكثير ضد معتز قبل أن نتزوج، ولكنه لم يواجهه بعد زواجي مطلقاً، إنه يعلم أن أذيته تؤذيني.

هل كان هناك شيء ما في المخازن يستدعي ما فعل؟ هل أوقع أحدهم به؟ إنه بسيط لدرجة ربما يخدعه أحدهم ويقنعه بفعل أمر كهذا.

لم أستطع التوقف عن التفكير، إن معتزاً واثق أن أحمد وراء الحريق، وهو غاضب جداً ولا فائدة من الحديث إليه، إذن إلى من سأتحدث؟

نظرتُ في النافذة، متى كانت آخر مرة تحدثتُ فيها إلى أحمد؟ هل أستطيع أن أواجهه الآن؟

استبدلتُ ثيابي وخرجتُ بالسيارة الخاصة إلى متجري، هناك قابلتُ فيوج الذي كان قد اعتاد على العمل وانسجم فيه، طلبتُ إليه النصيحة فيما حدث، فقال: أريد أن أذكرك بشيء صغير، ربما أكون قد تعاملتُ مع أحمد من قبل ولكنني لا أذكره الآن، ولا أعرف طبيعة

تصرفاته، ولكن إذا ما كنتِ تريدين الإجابة الشافية فهي بلا شك عند أحمد.

قلتُ: ولكننا لم نتحدث مذ تزوجتُ.

قال: إذن حان الوقت لإنهاء الخلاف.

طأطأتُ رأسي، فقال: هل تظنين فعلاً أنه قد أحرق المخزن؟

قلتُ: معتز واثق من ذلك بشدة، يقول أنه كان المناوب وقتها.

قال: سألتُك هل تظنين أنتِ أنه يفعل شيئاً كهذا؟

نظرتُ إليه وأجبتُ: لا.

قال: إذن اذهبي إليه.

■ ■ ■

■ الفصل السبعون | أحمد

خياراتي للعمل لم تكن كثيرة، ولكنني رجوتُ أن أعود إلى عملي في المطعم، فقد كان مناسباً لي، وكنتُ أحصل منه على نقود جيدة.

لم يكن الترحيب كما يجب، حتى زملائي أشاحوا برؤوسهم عني، ماذا فعلتُ لهم حتى يعاملوني بهذا الجفاء؟ طلبتُ إليهم أن ينادوا المسؤول، وبعد انتظار نصف ساعة خرج إليّ وفي وجهه إجابة جاهزة، نعتذر عن طلبك، لسنا بحاجة إلى عمّال.

دخل إلى مكتبه بينما بقيتُ واقفاً أفكر فيما أفعل، انتظرته نصف ساعة ولم يقض في محاورتي دقيقة واحدة! نظرتُ إلى الطاولات من حولي، كم كنتُ سعيداً في العمل هنا أقفز بين الطاولات أوزع الطعام للزبائن، رغم المواقف المحرجة التي تعرضتُ إليها في البداية إلا أنني اعتدتُ العمل والتعامل مع كل أصناف الناس، هذا العمل علّمني الكثير.

ترك الطاولة إلى جانبي أربعة أشخاص، هناك كؤوس وأطباق فارغة، كؤوس... ألا يذكرك ذلك بشيء يا أحمد؟

قفزتُ إلى الطاولة، وأخذتُ ثلاث كؤوس من عليها، ووضعتُ قرشاً تحت إحداها، وبدأتُ عرضي: سيداتي آنساتي سادتي! من منكم

يستطيع أن يحزر أين أضع القرش؟

تذكرتُ الأيام الماضية، عندما لم أكن أملك سوى الكؤوس وزر قميصي لألعب هذه اللعبة وأتحدّى الجميع، ليس هناك من يستطيع مجاراتي، أنا أجيد هذه اللعبة، بل أنا الأبرع فيها.

مرة واثنتان، وتجمّع الناس، كل الزبائن التفّوا حولي، وبدأت النقود توضع على الطاولة، لم يحزر أحد، وكيف لأحدهم أن يحزر وأنا أمارس هذه اللعبة منذ نعومة أظفاري، لا أحد يهزمني، أنا الأفضل.

ترك الموظفون الاستقبال، وطلب أحدهم مني أن أغادر المطعم برفق، ولكنني أجبته أنني سأغادر إذا ما حزر مكان القرش، وطبعاً لم يحزر.

جمّعتُ نقوداً تبلغ نصف راتبي الشهري في المطعم، وازدادت الحماسة، وارتفع مبلغ التحدي، من يحزر؟

تضاعف المبلغ، أكاد أحصل على راتب شهر في يوم! حرّكتُ الكؤوس بأسرع ما أستطيع، لا أحد يحزر، لا أحد يستطيع مجاراتي، أوقفتُ الكؤوس، أين القرش الآن؟

سمعتُ صوت فتاة من خلف الحضور تقول: إنها على يمينك.

ابتعد الجمع لأرى هالة تقف في الخلف، ترقب الكؤوس من

بعيد بعيونها الحادة ودقة ملاحظتها، من غيرها يحـزر؟ مـن غيرهـا يتفوق في كل شيء.

اقتربتْ من الطاولة وأمسكتْ الكأس ورفعتـه برقّـة بيـدها الـتي تغطيها بقفاز حريري ناعم، وكان القرش.

صفّق الجميع مبتهجاً، لقد فازتْ، لقد حصلتْ على النقود، لقـد غلبتْ الجميع.

وضعتْ الكأس على الطاولة بهدوء وقالتْ: ما زلتَ على ما أنـتَ عليه بشكل كبير.

قلتُ: أما أنتِ فقد تغيّرتِ كثيراً.

لقد كانت ترتـدي حجابـاً أصـفر، وثيابـاً مطـرّزة بـاللون الـبني والأصفر، مع حقيبة جلدية ذهبية، وحذاء ذهبيَ، إنها فعلاً مختلفة.

قالتْ: هل لي أن أكلمك في أمر؟

تفرّق الجميع، وجلستُ إلى هالـة علـى إحـدى طـاولات المطعـم، قالتْ: أنت تعلم لِمَ جئتُ.

قلتُ في صدق: ربما، ولكنني لا أدري ماذا ستقولين بالتحديد.

قالتْ: لماذا حرقتَ المخزن؟

انزعجتُ من اتهامها الصريح، قلتُ: لم أفعل.

قالتْ: لقد كنتَ هناك...

قاطعتُها قائلاً: لم أكن هناك، لقد استبدلتُ المناوبة.

سكتتْ، يبدو أنها لا تعلم ذلك، بل يبدو أنها تحصل على معلوماتها مباشرة من معتز الذي يحاول الإيقاع بي، قلتُ: لقد حققتْ معي الشرطة، ولدي كل دليل أنني لم أكن في المخزن لحظة اندلاع الحريق، أنا بريء.

قالتْ في قلق: هل هذه هي الحقيقة فعلاً؟

أكّدتُ لها: أنا لا أفعل ولن أفعل شيئاً كهذا.

تنهّدتْ في ارتياح، ونهضتْ لتغادر، ولكنني قلتُ: ألا تريدين أن تعرفي الفاعل الحقيقي؟

حدّقتْ بي لفترة ثم قالتْ: وهل تعرفه؟

أجبتُ: أظن ذلك.

قالتْ: تظن!

قلتُ: معتز خطط لها بنفسه.

انزعجتْ هالة لما قلتُ، وارتكزتْ على الطاولة تقول: هل تعرف كم كلّف هذا الحريق معتزاً، إنه قد خسر الملايين، كيف لك أن تتهمه بفعلة كهذه؟

قلتُ: ليس لدي دليل، ولكنه أخفى شيئاً احترق في المخزن، لقد أخفى كل دليل.

قالتْ: دليل على ماذا؟ ماذا تقول يا أحمد؟

قلتُ: قد لا أكون ذكياً، ولكنني أعرف أن خطباً كبيراً قد حصل في الآونة الأخيرة، وكان على معتز أن يتصرف.

غضبتْ هالة وقالتْ: أنت تهذي، كُف عن تصويب أصابع الاتهام إليه.

قلتُ: فلِم يصوّبها هو تجاهي؟

قالتْ: ألم تقل أن الشرطة قد أطلقتْ سراحك، ماذا تريد بعد؟

سكتُّ، أريد أن يعرف الجميع حقيقة معتز، أريد أن يكف عن التباهي والتبجّح أمام الناس، ولكنني لا أريد أن أراك حزينة، طأطأتُ رأسي وقلتُ: انسي الأمر.

قالت: لقد تمنيتُ أن يسير الحديث بشكل أفضل.

قلتُ: كأن أعترف بأني أحرقتُ المخزن وأني نادم على ذلك؟

قالتْ: لا، ولكن أن تعرف الفاعل الحقيقي وننهي الأمر بأسرع ما يكون.

اتجهتْ إلى سيارتها الفاخرة، وفتح السائق لها الباب الخلفي،

وركبتْ كالأميرات وغادرتْ، لقد حصلتْ على ما تريد، ولكن هل يناسبها ذلك؟

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والسبعون | هالة

يا إلهي، متـى سينتهي الخـلاف بـين أحمـد ومعتـز؟ كلاهمـا يعادي الآخر بشكل واضح، وأجلس أنا عاجزة عن فعل أي شيء!

حمداً لله أن أحمد قد خرج بريئاً من التهمة، وأؤمن أنـه لم يكـن الفاعل، ولكنني أرجو أيضاً ألا يحدث ذلك الحادث ضرراً كبيراً في عمل معتز.

أفكار كثيرة دارتْ في رأسي بعد حـديثي إلى أحمـد، جيـد أنـني استمعتُ إلى نصيحة فيوج، هـذا الأخ الغريـب الأطـوار، ولكنـه دائمـاً يساعدنا كلما وقعنا في مشكلة، يجب أن أعود إليه لأشكره.

فجأة طلبتُ من السـائق أن يتوقـف، نزلـتُ مـن السـيارة أشـاهد رسّاماً يرسم على زاوية الطريق، إنه يرسم وجوهاً جميلة، يبدو أنهـم أناس مرّوا في الطريق أمامه.

اقتربتُ من الرسّام، فكان يرسم وجهاً يشبه وجهه تمامـاً، إنـه يرسم بالألوان مباشرة، إنه فعلاً يتقن عمله.

لم ينظر إليّ، كان فقط يرسم ويرسم، يمزج لوناً تلو الآخر، إنـه منهمك، بعد لحظات توقف عن الرسم وقـال دون أن يرفـع عينيـه عـن الرسمة: هل من أحد هنا؟

قلتُ: عفواً، آسفة على الإزعاج، لقد رأيتـك ترسـم علـى زاويـة الطريق، فلم أستطع إلا أن أقف وأتفرج.

قال دون أن يحرك عينيـه عـن الرسمـة: سـيدة نبيلـة، ترتـدي حليّاً كثيرة.

أظنه يقصدني، لم يطل الوقت حتى أدركـتُ أنـه لا يبصـر، إنـه يخمّن ما يسمع، وما أكثر ما يسمع! قلتُ: رسمـك جميـل جـداً، أنـت مبدع.

قال: الناس مصدر إلهام كبير.

نظرتُ في الرسومات الأخرى، فإذا بها كلها وجوه وتعـابير دقيقـة لعابري الطريق، كيف له أن يرسم هكذا؟ سألتُه: والآن ترسم نفسك؟

قال: بل أرسم أخي.

جفلتُ، نظرتُ إلى الرسمة فإذا به وجهه تماماً، الفارق الوحيـد هو لون العينين، فأخوه بعيون عسلية، بينمـا هـو عيونـه زرقـاوتين! قلتُ: إنه يشبهك تماماً.

قال: بل أفضل مني بكثير.

تركتــه علــى الفـور، لسـبب ربمـا أجهلـه لم أرد الاسـتماع إلى حكايته، شعرتُ أنني سألوم نفسي كلما سمعتُ ما يتعلق بالأخوة.

■ الفصل الثاني والسبعون | أحمد

هكذا كان معتز يريد الإيقاع بي، والتفريق بيني وبين هالة، عليّ ألا أكون ساذجاً بعد اليوم، يجب أن أكون حذراً.

عليّ الحصول على عمل بأسرع وقت، هل أسأل صاحب المطعم ثانية؟

نظرتُ إلى الموظفين فكانوا مجتمعين حول شيء ما، اقتربتُ لأنظر وأفهم ما يجري، هناك شخص يتحدث إلى صاحب المطعم، ومن حوله يقف ثلاثة رجال يرتدون ثياب الشرطة، ماذا يجري؟ صاحب المتجر يبدو غاضباً.

اقتربتُ أكثر لأسمع "لقد كان هنا" "المئات من الناس كانوا هنا!" "ولكنه يصوّب أصابع الاتهام إلى هذا المطعم بالذات، ولا نستطيع أن نغفل عن الموضوع" "وماذا سيجري الآن؟" "فحص شامل للمطعم" "كم من الوقت سيستغرق ذلك؟" "شهر" "لا أستطيع أن أغلق المطعم شهراً كاملاً" "إذا ما ثبت أنه قد أصيب بالإيدز من هذا المطعم فإنه سيغلق إلى الأبد..."

تابعا الحديث، بينما وقفتُ أفكر فيما سمعتُ، كلما نطق أحدهم كلمة الإيدز أمامي أصبح شخصاً مختلفاً، أشعر بالخوف، بالضعف،

بالذنب، أريد أن أنعزل عن الجميع، أريد أن تنتهي حياتي بسرعة، ولكن في الظروف الاعتيادية أنسى تماماً موضوع الالتهاب والعدوى، هل تسببتُ في الضرر لأحدهم؟

انفضّ المكان، وأغلق المطعم رغماً عن الجميع، أمسكتُ بأحد الموظفين أرجوه أن يخبرني بما جرى، لقد سمعتُ أن أحدهم مصاب بالإيدز، وبعد توسل شديد أخبرني أن صبيّاً صغيراً قد تم تشخيصه بالإيدز مؤخراً، وقد ادّعى والده أن المطعم هنا كان ملوثاً، وأنه لابد قد أصيب به عندما جرح لثّته أثناء تناول الطعام، سيفحصون كل الأدوات.

لقد انتهى أمري، لقد آذيتُ طفلاً صغيراً، سألتُ: وأين هو ذلك الطفل الآن؟

أجاب: لابد أنه في المشفى، يبدو أن حالته خطيرة.

اسودّ كل شيء، كم كنتُ مستهتراً بالعمل في مجال كهذا وأنا أعلم ما أعاني، طفل يا أحمد، لقد آذيتَ طفلاً! ماذا ستفعل؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟

سرتُ أجرّ نفسي إلى المنزل، لستُ أدري كيف وصلتُ وكيف حملتني قدماي، كل ما أعرفه أنني ارتميتُ على الأرض على عتبة

المنزل، أشعر بغثيان، صداع، دوار، لا أريد أن أسمع شيئاً، لا أيد أن أعرف شيئاً، فليخبرني أحدهم أن هذا مجرد كابوس مزعج، فليخبرني أحدهم أن والد الطفل يهذي، فليخبرني أحدهم أن الطفل على ما يرام ولم يمسسه سوء، فليخبرني أحدهم أنني لستُ المذنب.

لزمتُ المنزل ليومين، لم آكل، لم أفعل شيئاً سوى النوم على الأريكة والاستسلام لأحلام مزعجة، لم أسمع الأخبار، ولم أقابل أحداً، ولم أستبدل ثيابي، إلى متى يا أحمد؟ إلى أن أجد حلاً، ولكن ما هو الحل؟

ربما لا يكون شيء من هذا صحيحاً، رفعتُ رأسي بصعوبة وقررتُ أن أعود إلى المطعم، لربما عادوا إلى العمل بعد أن تبين أن كل الحكاية لم يكن لها أساس من الصحة.

خرجتُ بالثياب نفسها، وسرتُ بتثاقل إلى المطعم، الذي كان ما يزال مغلقاً، جلستُ على إحدى طاولاته المهجورة أشعر أن رأسي سينفجر، يبدو أنني مكثتُ فترة أطول من اللازم حيث حضر إليّ أحد التجار من المحلات المجاورة يسأل: ما بالك يا أخي؟

رفعتُ رأسي وقلتُ: لا شيء، صداع فحسب.

قال: لا يفضل أن تجلس هنا، فهذا المطعم قد سبب صدى إعلامياً كبيراً.

نظرتُ إليه وسألتُه: إلى أي درجة؟

أخرج من قميصه جريدة اليوم وناولني إياها وقال: إن الأخبار في كل الجرائد والمجلات، طفل في عمر التاسعة يصاب بالإيدز، وهو الآن في العناية المركزة في حالة خطرة، الجميع يطالبون بالمسؤول عن ذلك.

لم يكن باستطاعتي قراءة أي حرف مما كتب على الجريدة، ولكن يكفيني أن أشاهد صورة الطفل الصغير وقد وضع على جهاز تنفس صناعي في العناية المركزة، يبدو أنه يصارع الموت...

لم تعد يدي قادرة على حمل الجريدة، سقطتْ من يدي كما سقط جسدي كله على الأرض.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والسبعون | هالة

عاد الهدوء إلى قلبي ثانية، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لمعتز، كان يصارع شركات التأمين، والشرطة، والمحكمة، وغالباً ما كان يصرخ للقبض على الفاعل، ولكن دون نتائج تذكر.

بالنسبة لي لم أكن لأتدخّل، المهم عندي أن أحمد بريء، والنقود كثيرة، أكثر من أن أقلق على مخزن محترق، ولكنني أفهم أن معتز قد تعب في كل قرش يحصده، وأن ما حدث في مخزن قد يحدث في آخر، خاصة إذا ما بقي الفاعل طليقاً.

لم يذكر شيئاً عن أحمد، بل ما عدنا نتحدث معاً كما كنا سابقاً، فغالباً ما كان يتأخر في العمل ويعود منهكاً ليغطّ في نوم عميق على الفور، بينما كنتُ أجلس وحدي ليل نهار.

قررتُ أخيراً أن أخرج، ليس إلى مكان محدد، وليس بالسيارة، ارتديتُ أبسط ثوب في خزانتي، ولم يكن رخيص الثمن، وسرتُ في شوارع المدينة، وذهبتُ إلى متجري لأنظر في العمل والحلوى، وطبعاً لأتحدث إلى فيوج قليلاً.

أخبرته أن أمور أحمد على ما يرام، وأنه بريء بشكل قاطع، تجنبتُ الحديث عن معتز فمعظم الموظفين هنا ينتظرون حكاية لتتردد

على ألسنتهم صبح مساء.

شربتُ قهوة وتناولتُ كعك العسل، كان لذيذاً رغم أنني كنتُ أصنعه بمكونات أدقّ من هذه، ولكنه جيد. سألني فيوج: هل سبق أن أوقع أحمد أحداً بأي أذى؟

أجبتُ بكل ثقة: أبداً، لم ولن يفعل ذلك مطلقاً.

سأل: هل سيدافع عن المظلوم؟

ابتسمتُ من بساطة سؤاله وأجبتُ: بكل تأكيد.

سأل: هل سيقول الحقيقة ولو كانت في غير مصلحته؟

لم أفكر طويلاً، أجبتُ: إنه كذلك.

سأل: هل سيكتم عن مخطئ إذا ما علم أنه نادم؟

أجبتُ وقد بدأتُ أشعر بشيء يود فيوج الوصول إليه: سيفعل.

سأل: هل سيضحي بنفسه من أجل شخص يحبه؟

أجبتُ: نعم.

سأل: هل سيكره من يتخلى عنه.

أجبتُ وقد بدأتُ أبلع ريقي بصعوبة: لا.

سأل: ألا يستحق أن يُضحى من أجله؟

أجبتُ بصوتٍ خافت: بلى.

سكتَ فيوج، وكنتُ أعلم السؤال التالي، وهو سؤال لا أستطيع الإجابة عليه "لماذا يتخلى الناس عنه؟" ولكنه لم يسأله، بل قال: أريد التعرف عليه، وألا أتركه أبداً.

لماذا يصر الجميع على أن أحس بالذنب؟ أنا لا أكره أحمد، ولكن...

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والسبعون | أحمد

كنتُ ما أزال عند المطعم عندما فتحتُ عيني، عرض عليّ الناس أن يأخذوني إلى المشفى، ولكنني أكّدتُ لهم أنني بخير، وسرتُ بتثاقل إلى المنزل.

لم تغب صورة الصبي عن ذهني، إنه يموت، وأنا السبب.

لستُ أدري كيف حملتني قدماي على صعود السلالم، وصلتُ المنزل وفتحتُ الباب لأرى ما لم أتوقعه أبداً، إنه منسيّ يجلس على الأريكة ممسكاً بذراعه، بينما تلطخت الأرض بالدماء! إنها ذراعه تنزف بشدّة!

ركضتُ إليه أسأله عمّا جرى، ولكنه فقط قبض على الأوراق التي في يده، إنها الأوراق ذاتها التي كانت في المخزن، قلتُ: هل حدث هذا بسبب الأوراق؟

أشار بالإيجاب ثم نهض، اتجه إلى المغسلة واستبدل المنشفة الملطخة بالدماء بأخرى، أرجو أن الوضع ليس خطيراً.

سألتُه: من فعل ذلك؟

ولكنه لم يُجب، فقط عاد إلى مكانه على الأريكة يضغط على جرحه، قلتُ: هل أحضر لك طبيباً؟

قال: سأكون بخير، لا داع للطبيب.

قلتُ: ولكنك تنزف بشدة!

قال: إنه يتوقف تدريجياً.

كررتُ سؤالي عليه بطريقة أخرى: هل معتز من فعل بك ذلك؟

ابتسم وقال: الغريب في الأمر أنه لم يكن معتزاً، يبدو أن أعدائي أكثر مما ظننتُ.

أعداء! سألتُه: ولماذا تخاطر بنفسك هكذا؟

أجاب: ألا يهمك أن تظهر الحقيقة ويزجّ اللصوص في السجن؟

صمتّ، لا أريد أن يزجّ معتز في السجن بعد أن تزوج هالة، ليته كان في السجن قبل أن يتزوجها، ابتسم منسي، يبدو أنه فهم ما أفكر فيه، قال: لهذا لا أستطيع الاعتماد عليك.

أزعجني ما سمعتُ، اقتربتُ منه وسألتُه: لماذا تفعل كل هذا؟ هل فعل لك معتز ما يؤذيك؟

نظر إليّ وقال: ليتَ الأمر كان بهذه البساطة.

سألتُه: فماذا إذن؟ لماذا تفعل كل هذا؟

أجاب بابتسامة ساخرة: لأننا كنّا نعمل معاً.

أنساني الحديث إلى منسيّ همومي الأخرى، ولكن ذلك لم يطل

كثيراً، فعندما توقفت ذراع منسيّ عن النزيف عادتْ صورة الصبي إلى ذاكرتي مجدداً، ماذا أفعل؟ لماذا تحوم المشاكل حولي؟

حضّرتُ عصيراً لمنسيّ، عليه أن يستعيد قوّته بعد أن نزف الكثير من الدماء، ناولتُه العصير رغم أنني كنتُ أخشى أن أؤذيه كما حصل للصبي، بات هاجس المرض لا يفارقني في كل حركة.

انتبه منسيّ لشرودي، لم يكن ينقصه الذكاء والحدّة ليلاحظ القلق في عيني، سألني: هل حدث شيء؟

تنهّدتُ ولم أستطع الإجابة، سألني: هل تخشى ألا تجد عملاً جديداً؟

أجبتُ: لا، رغم أنني لا أظن أنني سأجد عملاً.

سأل: هل حدث مكروه لهالة؟

أجبتُ: الحمد لله أنها بخير.

صمتنا، نهضتُ لكي لا أترك له المجال لسؤال آخر وقلتُ: ستنام على فراشي، وسأرتب المكان هنا...

قاطعني قائلاً: بل سأنام أنا هنا، لقد سببتُ لك ما يكفي من الإزعاج.

وضع الأوراق في جيب قميصه بعناية، ووضع رأسه على الأريكة

لينام، كان على حق، فقد سبب لي ما يكفي من الإزعاج، ولدي ما يكفي من المصائب.

تركته ودخلتُ غرفتي، لم أستطع النوم وصورة ضحيتي لا تفارق ذهني، نهضتُ من الفراش وغادرتُ الشقة دون أن أعرف إلى أين أذهب، كل ما أعرفه أنني لن أستطيع النوم.

الطريق مظلم وهادئ بشكل مخيف، لا أحد هنا غيري، كل المنازل مطفأة، كل المحلات مغلقة، إنها ليلة بلا قمر، والجو موحش.

دقائق هي حتى بدأتُ أشعر أن هذا الجو هو ما يناسبني، إنني أسير في الظلام منذ أشهر، ولا أحد ينير طريقي، لا أحد إلى جانبي، إنني وحيد في عالم مخيف، يُقذف بي من هنا إلى هناك دون أن أقاوم، ولِمَ المقاومة؟ ما الفائدة؟

جلستُ في الحديقة، في الظلام تتلاشى ألوان الأزهار، كل شيء مختلف، بل هذه هي حقيقة الأشياء من حولي، وكل ما أظن غير ذلك كذب.

أخيراً سرتُ إلى المشفى، إنه المكان الذي كنتُ أقصد منذ البداية، لا تنكر يا أحمد، هذا الصبي يجب أن يعيش، إذا حدث له مكروه فإن حياتك انتهتْ، وكل ما فعلتَ ذهب أدراج الرياح.

المشفى كان المبنى الوحيد المضيء في مثل هذه الساعة، الناس تعمل كما لو أنه الصباح، دخلتُ إلى الاستقبال وسألتُ عن الصبي، سألتني الممرضة إذا ما كنتُ من أقربائه، ولكنني أجبتُ أنني من معارفه فقط، كانت قلقة، هل عرفتْ أنني المذنب؟

لوهلة فكرتُ في الهرب، ولكن هذا سيسبب لي المتاعب، أمسكتُ نفسي، إلى متى ستهرب يا أحمد؟ واجه شيئاً من مخاوفك، تصرّف مرة واحدة في حياتك.

أشارتْ الممرضة إلى السلالم المؤدية إلى الطابق الثالث ثم إلى غرفة الصبي، بدأتُ أصعد الطابق الأول، ثم الثاني، بدأتُ أسمع أصواتاً تبكي، هناك جمع في الأعلى، توقفت قدماي عن المسير، ما عدتُ أقوى على الحراك، هل تريد أن ترى ما في الأعلى يا أحمد؟ هل تقوى على ذلك؟ ماذا جئتَ تعمل بالضبط؟ أن تعتذر من الأهل، أو أن تشفي الصبي؟ أنتَ لا تقوى على الأولى كما لا تقوى على الثانية.

أريد فقط أن أراه، سحبتُ قدماي زحفاً إلى الطابق الثالث، وهناك ارتفعتْ أصوات البكاء، ورأيتُ جمعاً من عشرين شخصاً يبكون أمام غرفة العناية المركزة.

أقنعتُ نفسي أن هناك العديد من المرضى في العناية المركزة، وأن

الصبي لابد أن يكـون بخـير، وهـؤلاء ليسـوا أقربـاءه، ولكـنني كنـتُ مخطئاً، ثوان هي وعلمتُ أن الصبي قد مات.

لا يجب أن أسقط أمـام العائلـة، علـيّ أن أتمالـك نفسـي، نزلـتُ السلالم بحذر حتى لا أتعثر، وغـادرتُ المشـفى في ظـلام الليـل، سـرتُ ثانية في العتمة، هـذه المـرة تمنيـتُ لـو أنـني أملـك سـلاحاً أو سـكيناً أتخلّص فيها من حياتي، أنسى بها ذنبي، وأنهي بها عذابي.

بات الظلام مناسباً جداً، بل إن النهار حرام عليّ، يجب أن أظل في الظلام، يجب أن أغوص إلى الأعماق، لا يُعقل ما حدث، لا أصدق!

وصلتُ الشقة زحفاً، أشعر بالجوع مع رغبة في التقيـؤ، أريـد أن أضع رأسي على الوسادة، أريد أي عالم غير العـالم الـذي أعـيش فيـه، أريد أي وقت غير الوقت الذي أسير فيه، أريد أن أهرب، ولكن من أي شيء أهرب غير نفسي؟

فتحتُ الباب وقد كنتُ نسيتُ أن لدي ضيفاً في الشقة، ينام علـى الأريكة نوماً عميقاً، لقد كان يومـه عصـيباً أيضـاً، وقـد توقـف نزيـف جرحه بصعوبة.

وقفتُ أمامه، إنه في عالم آخر، أعلم أن لديه الكثير من المشاكل، ولكن أي مشكلة هي أصغر من مشكلتي.

الأوراق ما تزال في جيبه، فكّرتُ أخيراً بما يتوجب عليّ فعلـه، أريد أن أرحل من هنا، يجب أن أهرب من المدينة وكل من فيها، بـات كل شيء هنا لا يُطاق، حتى أنني لم أعد أعيش مع هالة كما في السابق، وكل المدينة تكرهني، ولا ألومهم.

اقتربـتُ مـن منسـيّ، وأدخلـتُ يـدي في جيـب قميصـه دون أن يشعر، إنه مرهق جداً بعد الأمس، ظننتُ أنـه سيشـعر بيـدي تلامـس الأوراق على الفور، فهي أوراق مهمة جداً بالنسبة له.

ها هـي ذي الأوراق في يـدي، دخلـتُ الغرفـة وجهّـزتُ حقيبـة الرحيل بسرعة، لم أضع فيها الكثير، بعض الطعام والعصير مـن أجـل الرحلة، وثياب.

خرجتُ من الشقة أنظر إلى منسيّ، أنا آسف، عليّ أن أفعل ذلك.

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والسبعون | هالة

هدأ أمر المخزن، وما عدتُ أسمع عن أحمد شيئاً، بات فيوج أكثر شخص أقابل، ولكنه كذلك بدأ يسألني عن أحمد أكثر فأكثر.

أريد أن أتحدث إلى أحدهم، أشعر بالملل الشديد، لا أحد في القصر يعيش بعفوية، ولا أظن أن أحدهم يحبني، قررتُ بسرعة أن أذهب إلى متجري، وأن أتحدث إلى فيوج وأطلب إليه ألا يسألني الكثير عن أحمد.

في ساحة القصر رأيتُ دلال تدخل، إنها أفضل النبيلات، ولكننا لسنا صديقتين أيضاً، ألقينا التحية وتابعتْ كل منا طريقها.

اتجهتُ إلى المتجر، دخلتُ فلم أجد فيوج في الواجهة، سألتُ إذا ما بات يعمل في المطبخ، ولكنهم أجابوا أنه لم يحضر اليوم، أرجو ألا يكون قد حدث له مكروه.

جلستُ أتناول بعض الكعك، إحساس في داخلي يقول أن شيئاً سيئاً يحدث، لماذا تغيب فيوج؟ هل هو مريض؟ كيف لي أن أعرف، ليس لدي أي عنوان يوصلني إليه، وهو لا يجيب على الهاتف، إنه دائماً غامض.

نصف ساعة مرّت، واقترب الظهر، وازداد الزوار، إن المتجر

منتعش أكثر من ذي قبل رغم أن مستوى العمل كان أفضل في السابق، هل أستطيع أن أعمل ثانية؟ هل سيوافق معتز على مثل هذا الاقتراح؟

فجأة دخل المتجر زائر غير متوقع، كان يرتدي معطفاً بسيطاً وبنطالاً رخيصاً، رغم ذلك ذُهل الجميع وهم ينظرون إليه، وساد الصمتُ المكان. نهضتُ أحدّق فيه لا أصدق ما أرى، قلتُ: الملك!

كان يلهث، ولم يأبه لكل العيون المصوبة تجاهه، سأل على الفور: هل أحمد هنا؟

أحمد! لماذا يسأل عنه ملك البلاد؟ أجبتُ: لا، لم يحضر إلى هنا.

سأل: هل الأوراق معك؟

سألتُه: أية أوراق؟

عندها قال بإلحاح: عليكِ أن تأتي معي سريعاً، فأحمد في خطر.

كان هذا كافياً لأتبعه أينما ذهب، لم نركب سيارتي، بل سرنا في الطريق نبحث في الأماكن التي يتواجد فيها أحمد في العادة، رغم أنني لم أفهم شيئاً إلا أن قلبي يدق بشدة، هل حدث لأحمد مكروه؟

إنه ليس في المطعم، الذي اكتشفتُ للتو أنه أُغلق، وليس قرابة المخزن، أين يمكن أن يكون؟

حاولـتُ أن أسـأل عمّـا يجـري، ولكـن وجـه الملـك القلـق كـان يُسكتُني، لابد أن هناك أمراً كبيراً تدخّل أحمد فيه.

فجأة رأينا سيّارة تقترب منا، توقفتْ فجـأة، إنهـا دلال، يبـدو عليها القلق أيضاً، فتحتْ الباب تقول: إنه في المحطة.

ركبنـا إلى جانبهـا علـى الفـور، وبـدأتْ تشـرح حصّـتها مـن الحكاية: لقد سمعـتُ والـدي يـدبّر مكيـدة لـه في المحطـة، إنـه يـأمر الحرّاس أن يضعوا شيئاً في حقيبته أثناء التفتيش.

سأل الملك: ما هو؟

أجابتْ: لا أدري، ولكن يبدو أنه متورط في أمر كبير، فقـد كـان الموضوع مهماً وسريعاً، لقد كان والدي غاضباً جداً.

قلتُ وقد نفد صبري: هل لكما أن تشـرحا لـي مـا يجـري؟ أكـاد أموتُ من الخوف.

■ ■ ■

■ الفصل السادس والسبعون | أحمد

انتظرتُ إلى التاسعة، حين بدأت الأسواق بالانتعاش، وفتحت المكاتب، وظننتُ أن معتزاً يكون في مكتبه.

ذهبتُ إليه، ووقفتُ إلى السكرتيرة أطلب إليها أن أقابل السيد معتزاً، استفسرتْ عن الاسم وسبب الزيارة وإذا ما كان هناك موعد مسبق، أجبتها: أحمد، أخو زوجته هالة، لدي شيء يريده، وليس هناك موعد مسبق.

دخلتْ السكرتيرة لدقائق عند معتز، ثم خرجتْ تقول: إنه مشغول جداً، ويعتذر عن لقاء أي شخص ليس لديه موعد.

تنهّدتُ وقلتُ: أخبريه أن لدي أوراقاً من المخزن.

ترددتْ قليلاً ولكنها عاودتْ الكرّة ودخلتْ مكتب معتز، هذه المرة خرجتْ تقول: تفضّل.

دخلتُ مكتبه لأول مرة، هناك الكثير من المجسّمات، السجاد ناعم وفاخر، والأثاث مذهّب، هناك الكثير من الرفوف والأوراق، هل يراجعها كلّها؟

كان جالساً على مكتبه عندما دخلتُ، يبعد مكتبه عن الباب ما يقارب السبعة أمتار، نهض والتفّ حول مكتبه ليقترب مني وهو

يقول: تفضّل يا أحمد، هل تنوي أن تظلّ عند البـاب في أول زيـارة لـك لمكتبي؟

اقتربتُ قليلاً ثم قلتُ: لن أطيل عليك، جئتُ فقط لأعطيك هذا.

أخرجتُ الأوراق كلها مـن حقيـبتي، الـتي كانـت تحـوي أكثـر بكثير من مجرد أوراق، فقد كنتُ قررتُ مغـادرة الـبلاد، وحملـتُ مـا أحتاجه لرحلة سفر طويلة.

وضعتُ الأوراق على الطاولة، نظر إليهـا معتـز وتأكـد مـن أنهـا أوراق المخزن، كانت مهترئة في الأطـراف بسـبب الحريـق، ولكـن مـا كتـب فيهـا كـان واضـحاً، قـال: إذن فأنـت مـن كـان وراء الحريـق في المخزن.

أجبتُ: لا، لقد حصلتُ على الأوراق فحسب، ظننتها مهمة.

نظر إليها بتمعّن ثم سأل: وماذا تريد؟

أجبتُ: أن أعيدها لك فحسب.

لم يصدقني، فقلتُ: اعتنِ جيداً بهالة.

ضرب معتز الطاولة بأصابعه يفكر فيما أقول، ثم ترجم مـا فهـم إلى كلمات: أفهم ممـا تقـول أنـك تعلـم أن هـذه الأوراق سـيئة، وأنـك تعيدها إليّ لكي لا تحزن هالة.

أجبتُ: بالضبط.

سأل: وهل هناك أوراق أخرى؟

أجبتُ: لا، هذا كل ما استطعتُ الحصول عليه.

سأل: أي نسخ عنها؟

أجبتُ: ثق أنني لا أملك نقوداً لدفع تكلفة النسخ.

صمتَ معتز، ثم عاد إلى مقعده، ارتمى عليه يفكر ثم قال: هل ستغادر المدينة؟

أجبتُ: لم يعد لي فيها شيء.

بعد صمتٍ ابتسم وفتح درج مكتبه، أخرج منه رزمة من النقود، اقترب مني وقدّمها لي، ولكنني لم أمد يدي رغم أنني في أمس الحاجة لأي قرش، قال: أنتَ مسافر، ستحتاج النقود، هذا أقل ما أستطيع أن أفعل.

قلتُ: أنا لا آخذ النقود منك.

قال: اعتبرها من هالة.

قلتُ: ولا آخذ النقود من هالة أيضاً.

شددتُ حقيبتي إلى ظهري، وغادرتُ المكتب، قد تكون هذه آخر مرة أرى فيها معتزاً، وقد لا تسنح لي الفرصة لرؤية هالة ثانية.

أين أذهب الآن؟ عليّ البحث عن أرخص قطار للدولة المجاورة، اتجهتُ سيراً إلى محطة القطار، واخترتُ أرخص القطارات، كان أثرياً ما يزال يسير على الفحم المحترق، إنه بطيء ولكن تكلفته منخفضة، هكذا اخترتُ هدفي، هكذا اخترتُ الدولة التي سأذهب إليها.

دفعتُ ما تبقى لي من نقود، ثم وضعتُ حقيبتي للتفتيش، أخيراً ركبتُ القطار القديم وجلستُ إلى النافذة، هناك من بعيد لفتَ انتباهي شاب يحمل حقيبته، ويقرأ في ورقة صغيرة بتمعّن، يبدو أنه يرحل أيضاً، إنه فيوج!

■ ■ ■

■ الفصل السابع والسبعون | هالة

بات الأمر معقداً جداً، وما عدتُ أحتمل الخوف، يجب أن أرى أحمد، يجب أن يكون بخير.

هذا مجرد كابوس مزعج ليس له أساس من الصحة، إنني أجلس إلى جانب دلال و... ملك البلاد السابق!

هذا الملك الشاب كان في بداية حكمه، كان قوياً يهابه الجميع، وبعد ثلاث سنين من الحكم الحديدي اختفى في ليلة وضحاها، ولم يعرف عنه أحد شيئاً، ثم استلم الحكم من بعده قريب له بكل بساطة، بل لم يُحدث اختفاءه أي ضجة إعلامية أو إنسانية، فلا أحد يتحدث عنه، وليس هناك من يبحث عنه، غريب ما جرى.

الآن لدي الكثير لأفكر فيه، والأولوية تصبّ في نجاة أحمد، إذا ما كان في خطر حقيقي، فقد كانت دلال تؤكد أن مكيدة سيئة تحاك ضدّه، وغالباً ستكون أحداثها في المحطة.

سألتُ الملك: ما هي الأوراق التي تورّط أحمد فيها؟

أجاب: أوراق تدين الكثير من النبلاء، سرقات ورشوات ومؤامرات، وقعتْ تحت يده مصادفة، أو لنقل أنني كنتُ سبباً غير مباشر في ذلك.

سألتُه: من أين له بمثل تلك الأوراق؟

أجاب: من المخزن.

فجأة ارتبطتْ سلسلة الأحداث وباتت أكثر منطقية، المخازن كانت مهمة بسبب الأوراق، وأحمد متورط في ذلك، لذلك كان اسمه أول من تناقلته ألسنة الجميع يوم الحريق، قلتُ: وماذا فعل بها؟

أجاب: لستُ أدري، اليوم أخذها وخرج بها لوحده، أخشى أنه قد أعطاها لمعتز يداً بيد.

السؤال الذي كنتُ أخشى طرحه بات واضحاً، سألتُ: هل معتز متورط بأمور كبيرة؟

أجاب الملك بكل وضوح: كل ذلك في تلك الأوراق.

فكّرتُ، لو فكرتُ ماذا كان سيفعل أحمد، لديه أوراق مهمة جداً تدين معتزاً، ماذا سيفعل؟ إنه أحمد...

قلتُ لكليهما: لقد ذهب أحمد إلى معتز وأعطاه الأوراق.

نظرتْ إليّ دلال مندهشة، بينما قال الملك: كان عليّ أن أكون أكثر حرصاً على الأوراق، إنه في ورطة حقيقية.

قالتْ دلال: لقد اتصل معتز بوالدي، وأخبره عن الأوراق، ولكن إذا ما كان أحمد قد أعطاها لمعتز دون أن يهدده بها فإن أحمد ليس في خطر.

قال الملك: بل إن معتزاً لن يصدقه، ولن يكون مديناً لـه، إنـه في خطر أكبر.

رأسي يكاد ينفجر، يجب أن يثبت عكس ذلك، يا إلهي أرجوك أن يكون كل هذا مجرد كابوس مزعج.

وصلنا المحطـة، كـان هنـاك العديـد مـن القطـارات، أي واحـد سيستقل أحمد؟ هل هناك وجهة معينة ينوي الذهاب إليها؟

لم يكن لدينا الوقت الكافي للبحث هنا وهنـاك، علينـا أن نخمّـن إلى أين سيتجه، سألني الملك: هل كنتما ستذهبان إلى مدينة معينة؟

أبداً! سألتْ دلال: هل سيعود من حيث أتيتما؟

مستحيل! فكري يا هالة، كيف يفكر أحمد...

نظرتُ في القطارات، هناك العديد منها، أي واحـد، أي واحـد! أخيراً حزرتُ، بدأتُ أركض وأقـول لهمـا: سـيختار القطـار الأرخـص مهما كانت وجهته.

ركضنا بـين القطـارات، هنـاك قطـار قـديم في الزاويـة وقـد بـدأ بالتحرك، إنه هناك بلا شـك، بـدأنا نـركض تجـاه القطـار بينمـا بـدأ يسرع، حاولنا الركض بأسرع ما اسـتطعنا، ولكـن رغـم أن القطـار كـان قديماً إلا أنه كان يسير في حالة جيدة، وكان أسرع منا.

لا... لا يجب أن يفوت الأوان، يجب أن نلحق به، يجب أن يتوقف القطار، زاحمنا المسافرين واصطدمنا ببعضهم، وبات القطار أسرع وأسرع، بدأتُ أصرخ بأعلى صوتي: أحمد! أوقفوا القطار! أوقفوا القطار! أحمد في خطر!

صرخ ثلاثتنا، وأحدثنا ضجة في المحطة دون فائدة، فقد تابع القطار طريقه دون أن ينتبه إلينا، أخيراً أدركتُ أننا لن نصل، وأن القطار قد سبقنا، يا إلهي ساعدنا، أخيراً سقطتُ أرضاً أصرخ وأبكي: أحمد!

في هذه الأثناء كان هناك من يركض إلى سكة قطار أحمد، وقف عند المنعطف وأمام مسرى القطار مباشرة، إنه فيوج!



لستُ أدري ماذا يفعل هنا، ولكنه وقف بكل جرأة أمام القطار، واضطر قائد القطار أن ينزل المكابح فجأة، وأن يوقف القطار بكل تهوّر، لستُ أصدق أن القطار قد توقف! لقد أوقفه فيوج!

ركض الملك بسرعة إلى المقطورة، وتبعناه أنا ودلال، دخل يبحث عن أحمد بين الناس، وكان الجميع في حالة اضطراب مما جرى، وزاد دهشتهم رؤية الملك السابق يدخل مقطورتهم ويبحث عن أحدهم فيها، أخيراً وجد أحمد الذي كان في حالة ذهول شديدة لرؤية الملك، ولكن الملك سحب حقيبة أحمد من بين يديه بسرعة، وفتحها ليجد فيها قنبلة صغيرة تكاد تنفجر خلال ثوان.

ركض الملك بالحقيبة خارج القاطرة، وألقى بها أبعد ما يستطيع، وانفجرتْ مصدرة صوتاً قوياً وهواء مندفعاً كاد يقلب القاطرة بمن فيها.

هذا ما حدث، وقد كان أحمد في خطر حقيقي، وقد صدق حدس الجميع، وتحققتْ مخاوفي، كان أحمد بين الحياة والموت، ومعتز هو السبب.

دخلتُ القاطرة التي باتت في فوضى عارمة، كل الحقائب سقطتْ، وبعض الناس تعثر فوق الآخر، وحالة الذهول باتت أكثر من ذي قبل.

زاحمتُ الجميع إلى أن وصلتُ إلى أحمد، كـان ينظـر مـن النافـذة حيث انفجرتْ القنبلة مع حقيبته، كـان شـارداً لدرجـة أنـه لم ينتبـه لوجودي، عانقتُه بحرارة، أعلم أنه مندهش، كل شيء غريـب، ولكـن أهم ما في الأمر أن الحمد لله على سلامته.

■ ■ ■

■ الفصل الثامن والسبعون | أحمد

لستُ أدري ما حدث، هي ثـوان سـار القطـار فيهـا ثـم توقـف، ودخـل منسـيّ ليأخـذ حقيـبتي ويلقـي بهـا في الخـارج لتنفجـر أمـام الجميع، منذ متى كانت القنبلة في حقيبتي؟ ومن وضعها؟

فجأة أجد هالة تعانقني بحرارة، لقد كنتُ في خطر، وقد كانـت قلقة عليّ، كيف علمتْ ذلك ولم أعلمه أنا؟

نزلنا، وأُفرغ القطار من الركـاب، هنـاك وجـدتُ دلال تقـف إلى جانب منسيّ، كما وقف فيوج إلى جانبهمـا أيضـاً، وهالـة إلى جـانبي، هذا أغرب يوم، أشعر أنني لم أعد أفهم شيئاً على الإطلاق.

رغم دهشتي فقد كنتُ أشعر بالدفئ بين هذا الجمـع، إنهـم مـن أحبّ، ومن أتمنى أن أظلّ إلى جانبهم مدى الحياة.

كانت هالة أكثرهم قلقاً، وكانت الدموع تنهمر مـن عينيهـا دون توقف، حاولتُ أن أمسح الدموع ولكنها كانت مستمرة، أخيراً ابتمستْ ابتسامة عذبة مرّ زمن طويل على رؤيتها، وقالتْ: ماذا فعلـتَ لتجعـل ملكاً يركض إليك؟

ملك! نظرتُ حولي، ما من ملك هنـا! فأشـارتْ دلال إلى منسـيّ تقول: هذا هو الملك، الملك المنسيّ.

غطّى منسيّ وجهه بقبعة قميصه، هل تعني دلال ما تقول؟ منسيّ الذي كان يزورني في منزلي هو ملك البلاد!

ولكن منسيّ قال: الملك السابق، إنها حكاية طويلة.

قالتْ هالة في إصرار: نريد سماعها.

اتجهت الأنظار إلى منسيّ مباشرة، فتنهّد وقال: ربما ستنسون الحكاية كاملة، فما الفائدة من روايتها؟

رفعتْ دلال أوراق كتابها الجديد من حقيبتها وقالتْ: ستكون الحكاية في الكتاب، ولن ينساها أحد.

أخذ منسيّ نفساً عميقاً ثم بدأ حديثه: نعم كنتُ حاكم البلاد، وقد أمسكتُها بقبضة من حديد، ربما لأنني كنتُ صغيراً عندما تولّيتُ المنصب، وشعرتُ أنه كان عليّ أن أثبتَ للجميع قدرتي على تسيير جميع الأمور، كان الجميع يخشونني، ولم أتقبل أي خطأ أو تقصير، وكل شيء سار على ما يرام، إلى أن اكتشفتُ أنني لم أحسن التصرف مع الناس، ولم أكن محبوباً.

في إحدى المسيرات في احتفالات للدولة كان عليّ أن أسير بين الناس، وكان الحرس يحوطونني من جميع الجوانب، ولم أكن أحب هذا النوع من الاحتفال، ولماذا عليّ أن أسير بين الناس، رغم أن

أقربهم يبعد عني مسافة لا تقل عـن العشـرة أمتـار، في لحظـة خاطفـة اخترقتْ سيدة جموع الحراسة، ورفعـتْ إلـيّ ورقـة صـغيرة بطلباتـهـا البسيطة حتى أقرأها، ابتعدتُ عنهـا إلى أن أمسـكها الحـرّاس، مـدّتْ يدها في محاولة أخيرة لأحصل على الورقة، ولكنني قلتُ: احبسوها في السجن، واحبسوا الحرّاس الذين نفدت منهم.

هي لحظات لم أعرها أي اهتمام، ولم ألاحظ أيضاً أن المرأة كانـت حاملاً، وقد نفّـذ الحـرّاس الأوامـر حرفيـاً، ودخلـتْ السـجن، ودخـل خمسة من الحرّاس السجن أيضاً.

وانتهـــى أمـــر المـــرأة في الســجن لســنوات، ولم يُســمح لأحـــد بزيارتـها، ولم تخطر على بالي على الإطلاق، وولدتْ في السجن، ومات ابنها بسبب سوء الحال هناك، وبقيتْ تعاني.

خمس سنوات مرّت إلى أن حلمتُ بها، كانت تمسك طبق الطعام كطفل رضيع، وتعاني سكرات الموت، استيقظتُ أشـعر بانزعـاج، لمـاذا أتذكر امرأة سخيفة بعد كل تلك السنوات؟

نـهضـتُ مـن الفـراش وأمـرتُ الخـادم أن يحضـر لـي كوبـاً مـن العصير، غادر الغرفة وتأخر، ماذا جرى لـه؟ بعـد نصـف سـاعة عـاد دون العصير، سألتُه عن العصير فارتبـك واعتـذر وتحجـج أن أمـوراً في

طريقه قد أنسته أمـر العصـير، غضـبتُ وأمـرتُ الحـرس أن يزجّـوه في السجن على الفور.

بعد وجبة الإفطار في الصالة الرئيسية اتجهتُ إلى مكتبي لأصدر عـدة قـرارات عالقــة، أنهيــتُ توقيــع الأوراق واتجهــتُ إلى اللقــاء الصحفي، وقد كـان الصحفي يجـري لقـاء مـع رئـيس الـوزراء قبلـي، غضبتُ لذلك وأمرتُ بزجّ الصحفي في السجن.

وفي اليوم التالي لم يُعرض شيء مـن لقـائي الصـحفي، ولم تعمـم قراراتي، بل لم يُذكر اسمي على شاشة التلفاز على الإطلاق، لماذا أشعر أن الجميع يتجاهلني؟

دخل عليّ خادمي، إنه الخادم ذاته الذي أمرتُ بزجّه في السجن من أجل كوب العصير، لماذا لم ينفّذ أحدهم أمري؟ غضبتُ لرؤيته غضباً شديداً، وأمرتُ بزجّه في السجن ثانيــة، وزجّ الحـرس الـذين تجـاهلوا أوامري البارحة، ولكـنني رأيـتُ الخـادم والحـرس في وقـت الظهـيرة يحضّرون مائدة الغداء وكأن شيئاً لم يكن!

لا أحـد ينفـذ أوامـري، لا أحـد يـذكرني علـى لسـانه، الجميـع يتجاهلونني، هل هذه خطة مدبّرة ضدي؟ ومن يفعل ذلك؟

ثارتْ ثائرتي، وأمرتُ بإقصاء جميع الـوزراء، ولكـن شـيئاً مـن

قراري لم ينفذ، أمرتُ بإعدام الحرّاس، ولكن أحداً لم ينفذ، حتى عائلتي ما عادتْ تزورني أو تطلب إليّ أي شيء، أخيراً لاحظتُ أن القرارات بات يصدرها رئيس الوزراء، فغضبتُ غضباً شديداً، وذهبتُ إليه لأنهي أمر المؤامرة السخيفة، وأمرتُ بأن يُعدم أمامي، فنفّذ الحرّاس أوامري، وقاموا بقتله على الفور، وهنا ظننتُ أن المؤامرة انتهتْ، وأن المياه عادت إلى مجاريها، ولكنني كنتُ مخطئاً.

لم ينفّذ أحدهم أي قرار بعد، والتلفاز لا يذكرني، هناك خطب ما. ليس هناك من أثق به في القصر ليخبرني عمّا يجري، وفجأة باتت القرارات تصدر من وزير الداخلية بكل بساطة، ذهبتُ إليه على الفور، وقبل أن آمر بقتله سألتُه لماذا يتجاهل أوامري، ولكنه أجاب أنني لم أصدر أي أوامر منذ أكثر من شهر، وكان على أحدهم أن ينظم البلاد قبل أن تحل الفوضى.

أمرتُ بقتله أمام عيني، وتخلّصتُ منه علماً بأنني شعرتُ أنه كان صادقاً، وأن أوامري لم تعد تصل إلى الناس بطريقة أو بأخرى، عليّ أن أتخلّص من الخدم، وأن أستبدلهم أو أستغني عنهم.

قررتُ الاستغناء عن الخدم، وأمرتهم بألا يعودوا إلى القصر، ولا أريد لأحد أن يدخل غرفتي، ولا أن يساعدني في أي شيء، أريد

فقط أن أظلّ في القصر وحدي.

غادر الخدم الحجرة، ولكن أحداً منهم لم يغادر القصر، إنهم فقط يغادرون الحجرة التي أدخلها، ولكنهم موزعون في كل مكان.

بتّ أشعر بالخوف، تبدو مؤامرة محاكة بإحكام، تابعتُ الأحداث على شاشة التلفاز، لا أحد يذكر خبراً واحداً عني، أنا حاكم الدولة والشخصية الأولى فيها، من المسؤول عن الأخبار؟

اتصلتُ مباشرة بوزير الإعلام، وأمرته أن يعرض فيلماً كاملاً عن إنجازاتي، وأن يعرضه في جميع المحطات العامة والخاصة، وإلا فالإعدام بانتظاره.

رغم أن الخوف كان بادياً عليه في الهاتف، إلا أن شيئاً من برامج المحطات لم يتغير، وليس هناك ذكر لي على الإطلاق.

أمرتُ الحرس أن يعدموا وزير الإعلام، ولكن أوامري لم تنفّذ!

بات الأمر أكثر تعقيداً، أشعر أنني غير موجود، يبدو أنني أصبحتُ شفافاً لا يراني الناس. نزلتُ الأسواق، وسرتُ فيها أراقب التجار، كان الجميع مندهشاً لما أفعل، على الأقل كان من الواضح جداً أنهم يرونني، وأنهم يعرفون من أنا، وأنهم يخشون العقاب إذا ما ظهر غش أحدهم في السوق.

أصدرتُ العديد من الأوامر، وأغلقتُ عدة متاجر، ولكن كل شيء عاد إلى ما كان عليه في اليوم التالي، لا أحد ينفّذ أوامري.

بدأتُ أشعر بالإرهاق، أياً يكن الفاعل فقد أتقن اللعبة، لم أعد أحب الخروج، ولم أعد أقابل أحداً، بل لم يزرني أحد على الإطلاق.

ثم ثانية حلمتُ بالمرأة، تعاني سكرات الموت خلف القضبان، والحرّاس يعاملونها معاملة سيئة، كانت تكتب شيئاً على الأرض، لقد نسيني الملك، استيقظتُ أفكّر لماذا أراها في منامي؟ لماذا تلاحقني؟ ما قصة هذه المرأة؟

قررتُ الذهاب إلى السجن، وصلتُ إليها في سجن قذر تحت الأرض لا تدخله أشعة الشمس، كانت ملقاة في الزنزانة بلا حراك، دخلتُ الزنزانة وحاولتُ إيقاظها بلا فائدة، رفعتُ جسدها عن الأرض، إنها شاحبة، وأخيراً تأكدتُ أنها قد ماتت.

ألم أتوقع ذلك؟ هذه نتيجة طبيعية لمن يؤذي الملك، وضعتُها جانباً فلاحظتُ الكلمات على الأرض، لقد نسيني الملك، إنها الكلمات ذاتها التي رأيتُها في الحلم.

تدريجياً فهمتُ أن الناس ينسونني فور مغادرة الحجرة، إنني غير موجود في ذاكرة أحدهم، وقد محي اسمي من الكتب والمجلات

والتلفاز، لم أعد موجوداً، لقد نسيني الناس. لم أعد قادراً على إدارة شؤون البلاد، ولم يعد أحد من عائلتي يذكرني، حجرتي في القصر لم تعد أهم الغرف، ونزولي إلى الأسواق بات مصدر إزعاج لي وفوضى عارمة بين الناس، فلغزي –لغز الحاكم المنسيّ– أصعب من أين يُحلّ.

تدريجياً ما عدتُ حاكماً، ولا وريثاً لحاكم، ولا ابناً لعائلة، ولا سيداً لقصر، أصبحتُ أسير في الطرقات وحيداً دون أن يلحظني أحد، بل أصبحتُ أستقطب البسطاء الذين لا يعرفونني مسبقاً لأتحدث إليهم أو أعيش معهم قليلاً، ولكن المشكلة الحقيقية ما تزال قائمة.

أخيراً قررتُ أن أعوض ما فات، وأن أصلح بعضاً من أخطائي، لستُ أدري إذا ما كنتُ أطمح أن تزول هذه اللعنة عني، أم أنني أريد فقط أن أقابل الله بقلب طاهر، ولكنني رجوتُ الاثنين.

بدأتُ ألاحق العصابات، وتجّار المخدرات، واللصوص، والفاسدين، أريد أن أنظّف دولتي، وأن أحافظ عليها، فهي ما تزال في قلبي دولتي، وهذا الشعب شعبي حتى وإن نسيني، فأنا ما زلتُ هنا، وأستطيع أن أفعل الكثير.

ربما قد فات الأوان لأكون حاكماً صالحاً، ولكن لم يفت الأوان لأكون مواطناً صالحاً في دولتي.

■ الفصل التاسع والسبعون | هالة

صمتَ الحاكم، بهذه الجمل أنهى حكايته، أخرجتْ دلال قلمها لكي لا تفوّت عليها جملاً مما قال، بينما طلبتُ الأوراق التعيسة من أحمد، ولكنه قال: لقد أعطيتُها لمعتز.

كلّها؟ أجاب: كلّها.

لم أستطع أن أكتم انفعالي، ضربتُ بيدي على الأرض وقلتُ: ولماذا فعلتَ هذا؟ ألا تعلم أن هذا تصرّف أبله؟

قال: لم أشأ أن أؤذيك.

ضربتُ بيدي على صدر أحمد أقول: ولكنّه يؤذيك.

قال بهدوء: المهم ألا يؤذيكِ.

هل نسيتُه؟ هل نسيتُ من يكون أحمد؟ هل ابتعد قلبي وعقلي عنه إلى هذه الدرجة؟ ألا أتوقع ما يقول؟ ألا أتوقع ما يفعل؟

عانقتُه وبكيتُ بحرارة، أريد أن أعتذر، ولكن هناك الكثير لأعتذر لأجله، ولستُ أدري من أين أبدأ.

نظر أحمد إلى دلال تكتب في أوراقها، ابتسم وقال: هذه حكاية الملك المنسيّ إذن.

أجابتْ: كلّما اختفى الملك من ناظري نسيتُ أنه من يلقي عليّ

الحكاية، شعور غريب أن تجد نفسك تكتب دون أن تدري ما تكتب، وحتى اللحظة عندما نغادر فإن الجميع سينسى الملك.

رغم أننا جميعاً فهمنا ذلك، إلا أن صياغة الفكرة في كلمات كانت غريبة، عندما نفترق سننسى الملك، وسننسى كل ما فعل، وسنتابع حياتنا من دونه، لابد أنه عاش أوقاتاً عصيبة.

أخيراً نظرتُ إلى فيوج، الذي كان يحمل حقيبته، ويفكر لوحده، ماذا يفعل في المحطّة، وإلى أين يسافر؟ سألتُه: ماذا تفعل هنا يا فيوج؟

جفل عندما سمع اسمه، وتلفّت محاولاً التهرّب من السؤال، ولكن ثلاثتنا كنّا ننظر إليه، قال: لقد جئتُ لأعطي أحدهم بعض الحاجيات، هذا كل شيء.

قال أحمد: كل هذه الحقيبة؟

أجاب: إنه في المدينة المجاورة، وقد طلب إليّ المساعدة.

على كل حال كان فيوج وسيظلّ دائماً رجل الأوقات الصعبة، الفارس الذي يظهر في الوقت والمكان المناسبين، الحلّ دائماً عنده، وفرج الله دائماً على يديه، أنا سعيدة لرؤيته هنا.

غيّر الموضوع بسرعة قائلاً: ماذا ستفعلون الآن؟

بعد صمتٍ طويل قال الملك: سأبحث عن أدلّة أخرى.

قلتُ ببساطة: ستجد الكثير منها في المنزل.

نظر الجميع تجاهي، اليوم يتحوّل ولائي، وأعود إلى صوابي، وأقف إلى جانب المظلوم.

■ ■ ■

■ الفصل الثمانون | أحمد

لم يكن هذا ما خططتُ له، ولستُ أدري إذا ما كان أفضل أو أسوأ، ولكنه حصل على أية حال.

لا تعجبني فكرة أن حياتي ما تزال في خطر، ولكنني حذر، لا أستقبل أحداً لا أعرفه، ولا آخذ شيئاً من أحد، بقيتُ في المنزل مع منسيّ وفيوج بينما عادتْ هالة ودلال إلى القصر.

لم أحبّذ ذلك، فربما يعلم معتز الآن أن هالة قد أنقذتني من موت خططه لي، وربما يغضب من هالة إذا ما علم أنها ستبحث عن أدلّة تدينه، وستجدها عاجلاً أم آجلاً، ودلال أيضاً فتاة ذكية، قادرة على كشف الخبايا، معتز منذ الآن في عداد المذنبين.

ولكن ما أشار إليه الملك المنسيّ لم يخطر على بالي، لطالما ظننتُ أن معتز متهم بفساد تجاري، ولكنه الآن بات متهماً بتدبير قتل متعمّد، وإذا أثبت عليه فإنه لن ينجو من العقاب الشديد.

هل أنا سعيد؟ لا، لم أشأ أن يحصل كل هذا، ولستُ أدري كيف تفكر هالة الآن، أعلم أن الضغط النفسيّ كبير عليها، لم أرد أن أضعها في مثل هذا الموقف.

ليتَ الأمور سارت بسهولة، تعيش حياة تتمناها مع معتز،

وأغادر إلى مدينة أخرى، ولكن هل كان هذا أفضل خيار؟

كما أنني لم أنسَ السبب المباشر الذي جعلني أهرب من هذه المدينة، الصبي المسكين الذي لن أسامح نفسي على أذيّته، ولكن أي مكان في الدنيا سيجعلني أنسى؟

رأيتُ منسيّ يقرأ في الجريدة، يحاول أن يتابع أخبار دولته أولاً بأول، ترى أما زالت الجرائد تتحدث عن الصبي المسكين.

جلستُ إلى جانبه بينما كان فيوج يحضّر الطعام، أخذتُ جزءاً من الجريدة أبحث فيها عن خبر الصبي، والتحقيقات الجارية في أمر المطعم، وكان من السهل جداً أن أجد الخبر حيث وضعتْ صورة الصبي الصغير في حجم كبير في الصفحة.

انقبض قلبي، كم كان جميلاً، في مقتبل العمر، قرأتُ العنوان "تحقيقات ما تزال جارية حول مصدر الإيدز الذي أودى بحياة صبي صغير..."

فزعتُ عندما سمعتُ صوتَ منسيّ يقول: ماذا تقرأ؟

ألقيتُ الجريدة من يدي دون أن أشعر، فنظر إليّ باندهاش، قلتُ: لا شيء.

كان الكذب بادياً في صوتي وتصرفاتي، رفع منسيّ الجريدة،

ونظـر في الصـفحة الـتي كنـتُ أقـرأ فيهـا، في البدايـة لم يجـد خـبراً يخصّني، ولكنه بعد لحظات قطب حاجبيه ونظـر إلـيّ، هـل فهـم كـل شيء؟

قال: هذا هو المطعم الذي كنتَ تعمل فيه.

طأطأتُ رأسي، وجلستُ على الأريكة بتثاقل كبير، قلتُ: لـيس هناك من مهرب من ذنـب كهـذا، ظننـتُ أنـني إذا مـا غـادرتُ الـبلاد فإنني قد أنسى.

سكتَ منسيّ، وعاد يقـرأ الجريـدة مـن جديـد، يبـدو أنـه يقـرأ الخبر كاملاً، إنني مجرم، ولن أدافع عن نفسي أبداً.

أخيراً رفع منسيّ رأسه وقال: لماذا لا أشعر أن المقال مقنع، هـذا الأب يريد النقود.

انزعجتُ مما قال: لقد مات الولد! أليس في قلبك رحمة؟

نظر إليّ بهدوء وقال: ليس هناك من دليل على اتهامه، ولـيس هناك من دليل على المطعم.

قلتُ: ألا يكفيك أنني كنتُ أعمل هناك؟

قال: تركتَ منذ زمن، لا أظن أن للأمر علاقة بك.

كم هو بارد الحس، قلـتُ حتـى أشـعره بأهميـة الأمـر: لا أظـن

أنني أفضل من معتز.

بالفعل أدّتْ تلك الجملة مهمّتها، وطوى منسيّ الجريدة ليضعها جانباً ويتحدّث بجدّية، سأل: متى أصبتَ بالمرض؟

أجبتُ: مذ كنتُ صغيراً.

قال: ولم تحصل على أي علاج.

ابتسمتُ وقلتُ: ما كان لأحد أن يدفع لعلاجي.

سأل: كم مرة دخلتَ المشفى؟

أجبتُ: ليس كثيراً.

سأل: كيف كانت مناعتك حينها؟

أجبتُ: لم يقم أحدهم بفحص المناعة، كما أنني أرفض أن أفحص لأي شيء.

سأل بكل وضوح: من أين لك بالمرض في سن صغير؟

أجبتُ: لا أدري، ربما مثل ما حصل مع هذا الصبي.

فكّر قليلاً، ولا يبدو أنه اقتنع بكل الحكاية، قال: ولم تجرِ أي فحص بعدها منذ الصغر، ألم تتأكد على الأقل من دقة الفحص؟

فكّرتُ قليلاً: لا أذكر أنني أجريتُ أي فحص، لقد أخبرتني زوجة أبي أنني مصاب بالإيدز عندما كنتُ في حالة مرضية سيئة.

قال: لا تذكر أي فحص؟

قلتُ: لا، لقد أخبرها الطبيب بذلك.

جفل منسيّ، لم أر عينيه في حيرة مثل هذه من قبل، نهض بسرعة وقد قرر قراراً مفاجئاً، وأمسك يدي وسحبني خارج المنزل، سمعتُ فيوج يسأل: إلى أين؟ قد يكون الوضع خطيراً!

قال منسيّ: ليس أخطر من هذا.

إلى أين يأخذني، منسيّ يفعل دائماً ما يظن أنه صواب دون أن يستشير أحداً، لا عجب أنه كان حاكماً متسلطاً على البلاد! ولكن لا أظنه سيؤذيني.

هل يُعقل أنه شعر أخيراً أنني مذنب، وأن من واجبه أن يحقق العدالة لشعبه، وللصبي المسكين؟

إلى أين نتجه؟ إلى الشرطة؟ إلى السجن؟ إلى المحكمة؟ إلى أهل الصبي؟ لا أريد أن أراهم، حتى لو حُكم عليّ بالقتل المباشر، فهو أهون عليّ من أن أقف أمام والد الصبي.

قلتُ: إلى أين تأخذني؟

وقف منسيّ، إننا أمام مختبر طبيّ! سألتُه: ماذا تفعل؟

قال: سنقوم بفحص صغير.

قلتُ: لا أريد.

سأل: لماذا؟

قلتُ: لا أريد لأحد أن يعلم أنني مصاب.

نظر إليّ بعيون حادة، ثم قال: عليك أن تتأكد مما تقول، ألا يهمّك أن تعرف.

سألتُ: أعرف ماذا؟

قال: هل أنتَ مصاب أم لا.

قلتُ: إنني مصاب.

قال: لا يمكن أن تعلم دون فحص.

قلتُ: لابد أنهم فحصوا، لستُ أذكر ما جرى.

قال: بلى تذكر، زوجة والدك أخبرتك أنك مصاب، وهذا كل شيء.

قلتُ: ماذا تعني؟

شدّ يدي إلى المختبر، لا أريد أن أدخل، لا أريد أن أفحص، لا أريد أن أُدان.

جرّني رغماً عنّي إلى الداخل، وما إن رأى الموظفون الملك حتى جفلوا، ووقفوا مذهولين، طلب إليهم أن يمسكوا بي، وأجبروني على

سحب الدم بأوامر من الملك، وأخيراً سحبوا العيّنة، وها هو ذا دليل جريمتي بين أيديهم، إنني أستحق الموت على ما فعلتُ.

استعجلهم منسيّ بنتيجة الفحص، بينما بدأتُ أنهار، لم ينطق أحدنا بأي كلمة، كما لم يجرؤ أحد من الموظفين الحراك، كانت أطول فترة انتظار لي في حياتي.

انتهى الفحص، وظهرتْ النتيجة، ناولها الموظف إلى منسيّ الذي حدّق بها طويلاً، ماذا تراها تكون؟ هل هم قادرون على معرفة الجاني المحدد بفحص بسيط كهذا؟ هل انتهى أمري؟

ناولني منسيّ الفحص، كان قد كُتب عليه العديد من الكلمات، لستُ أدري من أين أبدأ! الاسم، الرقم، المركز... عندها أشار منسيّ إلى كلمة في وسط الورقة "سلبي" نظرتُ إليه أسأله: ماذا يعني هذا؟

قال بكل وضوح: يعني أنك لستَ مصاباً بالإيدز، ولم تكن يوماً مصاباً به.

لستُ أفهم! ومم كنتُ أعاني طيلة عمري؟ والصبي الصغير من أين له بالمرض؟

قال منسيّ: لقد كذبتْ عليك زوجة أبيك، أنتَ لستَ مريضاً، ولكنها أرادتْ أن تؤذيك.

أخيراً عادتْ بي الأيام إلى الطفولة، وتـذكرتُ كـم كانـت زوجـة أبي قاسية، وكـم آذتنـا، وكيـف سجنت الحـاج غـانم، وكيـف كانـت تضرب هالة، وكيف كانت تحرّض والدي علينا، وكيف أدخلـت بـدراً إلى حياتنا عنوة، تذكرتُ كم كانت سيئة، والآن فقط علمتُ أنها كانـت ما تزال ملتصقة بحياتنا إلى الآن، كانت تعذبنا إلى هـذه اللحظـة، لقـد تركتني حائراً تعباً طول عمري، لقـد كانـت هنـا طـول الوقـت، ظلّـت تعذّبنا طول الوقت!

بدأت عيناي تدمعان، أهي فرحة التخلص من الهاجس اليومي، أم هو الحزن على أيام طوال مضت في جهل مطقع؟ ربما الاثنتين معاً.

أمسك منسيّ يدي، وخرجنا من المركز، وجلسنا بعيداً عن أعـين الناس، مازلتُ في حيرة شديدة، الصبي لم يكن ذنبي، الصـبي لم يكـن ذنبي، الصبي لم يكن...

أغمضتُ عيني، ونزلتْ دمعتي، حمداً لله...

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والثمانون | هالة

أمي... متى كانت آخر مرة تحدثتُ فيها إليك؟ متى كانت آخر مرة ذكرتك فيها؟ هل نسيتك؟ هل نسيتُ كل من يحبني؟ أين كنتُ من هذا العالم؟ أين كنتُ من هذه الدنيا؟

أمي... أحمد بخير، وهذا أفضل خبر أقدّمه إليك اليوم، لقد نجا بعون الله من موت محقق.

أمي... بينما ينجو أحمد يسقط معتز، لستُ أدري ماذا أفعل، كم كنتُ أريد لكليهما حياة سعيدة مليئة بالتوفيق، ولكن لا يبدو أن أحدهما يستطيع أن يكون سعيداً بسعادة الآخر.

أمي... إنني اليوم أقف بين الأخ والزوج، بين العطف والعشق، بين الرحمة والمتعة، بين البساطة والفخامة، بين الهدوء والصخب.

أمي... اليوم أودّع حياة أحببتُها، وأعود إلى ما كنتُ عليه، لستُ جاحدة بما كنتُ أملك، ولكنني آمنتُ لفترة أنني أستطيع أن أحصل على كل ما أريد، وأن أكون الأعلى، ربما حصلتُ فعلاً على كل هذا، ولكن هل سألتُ نفسي عن المستقبل القادم؟

أمي... أحمد في أمان الآن مع فيوج، هما في انتظار ما سأفعل، ولكنني لستُ أدري إلى الآن ماذا أفعل، دلال أيضاً في الطرف الآخر

تبحث عن أدلة، ربما تكون أقدر مني على إنجاز مثل هذه المهام، فهي أعلم بشؤون النبلاء والقصور والأوراق الرسمية.

ما بالك يا هالة؟ ألا تستطيعين أن تكوني مثل دلال، تدافع عن أحمد وتساعده، رغم أن كل ذلك يصب ضد مصلحة عائلتها، ألا تستطيعين فعل ذلك؟

دخلتُ غرفتي، وكم كان غريباً أن أجد أوراقاً مبعثرة على السرير، اقتربتُ منها فإذا بها أوراق رسمية، جزء منها لامسته النيران، هذه ولا شك أوراق المخزن، وضعها معتز هنا!

ها هو الدليل بين يدي، التفتُ حولي فكان معتز واقفاً عند باب الغرفة حيث دخلتُ، هو من وضع الأوراق هنا، وكان يريدني أن أجدها.

قال: هل هذا ما تبحثين عنه؟

أجبتُ: في الواقع ظننتُ أنك قد تخلصتَ منها.

قال: ظننتُ أنك تريدينها.

قلتُ: ليست لدى أحمد أي أوراق أخرى، أؤكد لك.

قال: أعلم.

قلتُ: إنه لن يؤذيك مهما حدث.

قال: هالة، لا أحد يستطيع أن يؤذيني.

قلتُ: فلِم حاولتَ قتله؟

أجاب ببساطة: لم أفعل.

قلتُ: لقد كنتُ هناك، انفجرتْ قنبلة في حقيبته.

قال: سبق أن قلتُ لك أنني أعرف أنه لا يملك أوراقاً أخرى، فلماذا أقتله؟

تنهّدتُ، وقلّبتُ في الأوراق: أتعلم، أنا لستُ شهمة لأفكر في سعادة الناس، الناس لم يفكروا يوماً بسعادتي، ما يهمني هو أحمد، فقط أحمد.

دخل الغرفة ببطء، وأمسك بالأوراق من يدي، وقال: لا أحب أن أكون تحت رحمة أحد.

إذن فهذه هي الحقيقة، قلتُ: لقد غادر البلاد.

ضحك وقال: كاد أن يغادر.

معتز يعرف كل شيء بطرقه الخاصة، لا فائدة من المراوغة، قلتُ: أمازلت تنوي أن تؤذيه؟

قال: إنه أضعف من أن أفكر في أمره.

قلتُ: دعه وشأنه، لقد ترك لك كل شيء.

قال بابتسامة عريضة: هالة، أنا أملك كل شيء رغماً عن الجميع.

مرت أيام كنتُ أعجب فيها بمثل هذا الجواب، اليوم بتّ أشعر بالسم في كل كلمة يقولها، قال: هناك حفلة ستقام اليوم.

سألتُ: وما المناسبة؟

قال: عقد مع شركة جديدة، تجهّزي لها جيداً، سيحضر الكثير من الشخصيات المهمة.

وأخذ الأوراق معه وغادر.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني والثمانون | أحمد

عدنا إلى شقتي، كنتُ ما أزال أرجف، إنني سعيد، وفي الوقت نفسه أشعر أنني كنتُ تحت رحمة زوجة أبي طول تلك الفترة التي ظننا فيها أننا هربنا منها أنا وهالة!

كان فيوج ما يزال هناك في انتظارنا، حاول أن يستفسر عمّا فعلنا، ولكن منسيّ أخبره أنني أجريتُ فحصاً روتينياً من أجل التوظيف في الحكومة، لقد نسيتُ أمر الوظيفة، أستطيع أن أحصل على وظيفة ثابتة، لدي العقد!

بطريقة أو بأخرى بدأت الحياة بالانفراج، لم يتبق سوى معتز، مازلتُ لا أدري ماذا ستفعل هالة، وهل سارت أمورها على ما يرام، لقد أصرّتْ أن تبحث بنفسها عن الدليل الواضح ضد أعماله، هل سيتركها وشأنها؟

رنّ جرس الشقة، كنّا حذرين في شأن الزوار، اقترب منسيّ من الباب ونظر من خلال الشق، إنها دلال.

فتح منسيّ الباب فدخلتْ تقول: أخبار طيبة.

سأل فيوج: هل عثرتِ على دليل؟

أجابتْ: في الغد يوجد اجتماع مهم، ستجرى فيه العديد من

الصفقات، كما ستوضع الأوراق على الطاولة ليتم محاسبة التجار، أؤكد لكم أن العديد من هؤلاء التجار يحملون أوراقاً تدين فساداً كبيراً.

أوه، إنها فعلاً تعرف ما تفعل! سألها الملك: كيف تحققتِ من ذلك؟

أجابتْ ببساطة: والدي مدعوّ.

ساد الصمتُ المكان، دلال تعلم أنه إذا سقط معتز فإن والدها سيسقط معه، وربما يحدث الأسوأ، ربما يُسجن وتُحبس أمواله، وستتغير حياتها بشكل جذري، ربما لا تعود نبيلة.

قال الملك: معتز سيكون هناك.

قالتْ دلال: إنه أهم الحاضرين.

قال فيوج: لا نستطيع أن ندخل عليهم بأنفسنا، لن يحق لنا ذلك.

ولكن الملك حدّق في فيوج ليذكّره أن ملك البلاد قادر على فعل الكثير، ثم سأل: أين الاجتماع؟

أجابتْ: في قصر معتز.

لم يكن ذلك منطقياً ولكنها أوضحتْ: عدد المشاركين في هذه الصفقات سيكون كبيراً، ولكي لا يشعر أحدهم بالاجتماع قام معتز

بدعوة لحفل عام كبير، بـذلك لـن يشـك أحـد في اجتمـاع كبـار التجـار وأصحاب الأموال في يوم واحد.

معتز يخطط جيداً، إنه شخص لا يُستهان بـه، أشـعر بـالخوف لمجرد التفكير في خطة للوصول إلى هناك.

سألتُ: ماذا عن هالة؟

أجابتْ: لابد أنها ستكون في الحفل.

أوضحتُ سؤالي: هل اتصلتِ بها؟

أشارتْ بالنفي: لم أسمع منها أي شيء مذ افترقنا.

وقبل أن أفكر في العواقب الوخيمة قاطع منسيّ أفكاري وقال: لا تقلق على هالة، معتز لن يؤذيها مهما حدث، إنه يهتم بما يملك.

هل يفترض أن أشعر بالراحة لتعبير كهذا، ما يملك!

قالتْ دلال: ماذا ستفعلون؟

قال منسيّ: سنحضر الحفل.

قال فيوج: لن يدعونا.

قال منسيّ: لن ننتظر دعوة.

قالتْ دلال: إذا ما حضر الملك فـإن الجميـع سـيذهلون، إنهـم لم يقابلوه منذ زمن، لقد اختفى من الحياة ومن الذاكرة.

قال منسيّ: سنذهب أربعتنا.

جفلتُ، أذهب إلى حفل معتز؟ لن يدخلوني بكل تأكيد! ولكن منسيّ يعي ما يقول، وليس هناك مجال لمجادلته، يبدو أنه سيدخلنا جميعاً معه.

نظر منسيّ إلى دلال وقال: أعلمي هالة بما سنفعل.

■ ■ ■

■ الفصل الثالث والثمانون | هالة

حضرتْ دلال لزيارتي، وجلسنا لوحدنا نتحدث فيما سيحدث غداً، لم تدهشني فكرة الاجتماع المهم في يوم الاحتفال، فلدى معتز مخططات أكبر من ذلك بكل تأكيد، أما أن يحضر أحمد الاحتفال فهذا أمر لم يسبق أن حدث، ولا أظن أنه يستطيع أن يدخل.

هل أستطيع تدبر ذلك الأمر؟ وماذا سيفعل؟ لماذا عليه أن يكون هنا؟ ألا يشكل ذلك خطراً عليه؟

ربما يسهل دخول فيوج، فهو يعمل في متجري، ولكن كيف أُدخل أحمد؟

حصلتُ على لائحة المعزومين، وأضفتُ اسم فيوج بكل سهولة، أما أحمد فقد أضفتُ اسمه بعد أن عاين معتز أسماء جميع الحاضرين، فكان آخر اسم، أرجو أن تسير الأمور على ما يرام.

حان الموعد، وبدأ الحشد بالتجمع، وبدأت الألحان الموسيقية ترن في القصر، وارتديتُ أجمل الثياب، فستان أحمر تتحلق فيه الجواهر البيضاء، وحجاب فضي، وقفازات بيض، وحذاء فضي، واستقبلتُ الجميع، ولكن فيوج وأحمد لم يحضرا بعد.

حضرتْ دلال، ترتدي فستاناً أزرق برّاقاً، بجواهر سوداء،

ويسير إلى جانبها والدها النبيل، أهم معاوني معتز.

أعترف أن دلال قوية، فهي تعلم أن مساندتها لأحمد تعني الإيقاع بوالدها، وربما بكل الثروة التي يملكها، ومع ذلك فإنها تسير بخطى ثابتة، وتعلم ما تفعل.

ماذا عني أنا؟ هل أريد لمعتز الشر؟ هل ما زال لدي الأمل في أن تحلّ المشاكل بهدوء؟

حضر فيوج، يرتدي بذلة أنيقة، ودخل بسهولة، سألته عن أحمد على الفور، فقال أنه طَلب إليه أن يدخل أولاً، فهو يعلم أن الأمر سيكون أصعب عليه، ثم أضاف: تبدين جميلة.

احمر وجهي، انتابني شعور غريب بإطرائه، ولكنن كنت قلقة جداً، يا إلهي أشعر أن شيئاً كبيراً سيحدث الليلة.

سار كل شيء على ما يرام، إلى أن اختفى معتز عن الأنظار، لقد انسحب إلى قاعات الاجتماع دون أن يخبر أحداً، أظن أن العديد من الحاضرين لحقوه بهدوء الواحد تلو الآخر، هنا سيبدأ الاجتماع.

هل أتبعهم؟ هل أتصرف وحدي أم عليّ أن أُعلم الباقين؟ وهل أنا الوحيدة التي لاحظت غياب معتز؟

بحثتُ عن دلال، ولكنني لم أستطع أن أجدها، بينما كان فيوج

قريباً مـني، أخبرتـه عـن تغيـب العديـد مـن الحاضـرين، فطلـب إلـيّ التريّث، علينا ألا نتهوّر.

عدتُ أبحث عـن دلال، أرجـو ألا تكـون قـد تسـرّعت وتصـرّفت لوحدها، كما أن أحمد قد تأخر، أرجو أن يسير كل شيء على ما يرام.

■ ■ ■

■ الفصل الرابع والثمانون | أحمد

دخل فيوج الحفل بسهولة، فهو موظف معروف في متجر هالة، بينما بقيتُ أنا ومنسيّ ننتظر الفرصة السانحة.

لا أظن أنني أدخل الحفل بسهولة، ولدي شعور يخبرني أنني لن أضطر للدخول، فبعد دقائق من دخول فيوج رأينا دلال تركض في الباحة، لابد أنها قد لاحظتْ شيئاً مريباً.

انطلق منسيّ خلفها مباشرة، وتبعتهما إلى أن وصلنا قاعة خارجية صغيرة، هل سينعقد الاجتماع هنا؟

هناك حارسان يقفان على الباب، أما دلال فقد اختبأتْ خلف إحدى الأعمدة دون أن تلحظنا، إنها تراقب بجدية.

حضر أحد النبلاء، ودخل القاعة، إنه أحد الأعضاء بلا شك، هل علينا الانتظار حتى يكتمل العدد؟

لم أفكر طويلاً، وقف منسيّ وطلب إليّ الانتظار، واتجه إلى الباب، وجفل الحارسان عندما شاهدا الملك المنسيّ يقترب منهما، قال جملة واحدة: أنا عضو في الاجتماع.

أفسحا له الطريق على الفور، ودخل الاجتماع بسهولة بالغة، ولكن المشكلة الأكبر الآن تكمن بما في الداخل، وكيف نستطيع أن نعرف؟

بتّ لوحدي، ودلال على الطرف الآخر، تسللتُ إليها لأفهم منها بعضاً مما يجري، أخبرتني أنها اكتشفتْ مكان الاجتماع السري وحدها، وأن هالة ما تزال في الحفل لا تعرف شيئاً مما يجري، وأن والدها لابد أن يكون في الداخل منذ ربع ساعة، ومعتز أيضاً.

علينا أن نعرف ما يدور في الداخل، وأن نتصرف بحكمة، ولكن كيف؟

■ ■ ■

■ الفصل الخامس والثمانون | هالة

لم أجد دلال، اقتربتُ من فيوج أسأله إذا ما كان قد شاهدها، ولكنه أشار بالنفي، كل شيء ما يزال هادئاً.

قدّم الموظّف إلينا العصير، بدأتُ أحتسيه وأتذكر بهدوء ما جرى، قلتُ لفيوج: لقد كنتَ مغادراً.

لم يُجب، قلتُ: لماذا لا تودعني؟

ابتسم وشرب من عصيره دون أن يجيب، قلتُ: أنت تفعل ذلك دائماً، لماذا تهرب منّا؟

أشار بالنفي وقال: الأمر مختلف هذه المرة، آسف لما جرى.

قلتُ: أريد أن أفهم ما تفعل، لقد أحضرتك إلى هنا عُنوة، ومع ذلك تابعتَ العمل، والآن تريد أن تهرب دون أن تقول شيئاً! لماذا؟

أخرج فيوج ورقة من جيبه وناولني إياها، إنها ورقة صفراء صغيرة، كُتب فيها بخط اليد "فتاتي تترك الرحيق لتدور حول الأشواك، أتمنى ألا تصاب بسوء رغم أنني على يقين أنها لن تلاقي الخير، هل كانت لتحبني لو اعترفت لها بحبي؟ بل هل يستطيع شخص مثلي الحفاظ على حب ملاك؟ هالة... آسف لما آلت إليه أمورك، وآسف لما آل إليه أمري، ولكنني عاجز عن فعل أي شيء، كل

ما أتمناه الآن أن يحفظك الله من كل سوء"

نظرتُ إلى فيوج الذي ابتسم وقال: لقد كتبتُها بعد حفل زفافك.

لستُ أدري ما أقول، إنه يهرب مني، ولكنني قلتُ: ولماذا تمثل أنك لا تعرفنا؟

أشار بالنفي، وأخذ الورقة وقال: أنا لا أذكر أنني كتبتُ هذه الورقة، لقد وجدتها في جيبي بعد رحيلي، وهذا كل ما في الأمر.

لم أفهم شيئاً، كان ذلك واضحاً عليّ فقال: ربما يكون تفسير ذلك صعباً، ولكنني لا أذكر شيئاً مما تقولون، رغم أنني أصدقكم.

سألتُه: إذن هو فقدان للذاكرة؟

فكّر قليلاً ثم أشار إلى السوار على يده حيث نُقش اسمه عليه وقال: فيوج ليس اسمي، إنه مكتوب على السوار ليعلم أحدهم بالمرض الذي أعانيه، إنه فصام فيوج، من الأمراض النادرة التي تسبب فقداناً للذاكرة بين الحين والآخر.

لم أفهم شيئاً، تابع قائلاً: فصام فيوج مرض أصبتُ به بعد حادثة مؤلمة، بتّ أنسى من أكون، وأرحل عن المدينة، وأعمل فيما لم أكن أتقنه من قبل لفترة، تعود ذاكرتي بعدها وأعود إلى مدينتي لأدخل من جديد في فصام آخر، ورحلة أخرى، وعمل آخر، وكأنني شخص مختلف.

سألتُه: كيف يحصل شيء كهذا؟

تنهد وقال: انفصل والداي مذ كنتُ صغيراً، وأخذني والدي لأعيش معه، بينما ظلّت والدتي في مدينة أخرى، يحظر عليها دخول مدينتي لأسباب دولية.

حرمني والدي من رؤيتها، كما حرمها من رؤيتي، ورفض كل محاولة للسفر إليها، وبقيتُ على الأمل في أن ألاقيها عندما أبلغ الثامنة عشرة، وأحصل على جواز سفر خاص بي لأفاجئها بقدومي.

أخيراً حجزتُ الطائرة في عيد ميلادي الثامن عشر، ووصلتُ مدينة والدتي، وحصلتُ على عنوانها الخاص، وذهبتُ إلى منزلها حيث كانت تعيش مع خالتي، فتحتْ خالتي الباب ولم تعرفني، لا ألومها على ذلك فلم يكن هناك أي تواصل بيننا، ولكنها ذرفتْ دموعاً غزيرة عندما أدركتْ أنني ابن أختها.

بعد العناق ركضتْ إلى غرفة والدتي لتخبرها بقدومي، فتحت باب الغرفة فإذا بوالدتي قد قامت بشنق نفسها في غرفتها قبل دقائق من دخولي.

شعرتُ باستياء شديد لما سمعتُ، ولكنه تابع قائلاً: لقد عانت من اكتئاب طويل، وقد تأخرتُ عليها لبضع دقائق، ورأيتُها لأول مرة

وآخر مرة في أسوأ حال، منذ تلك اللحظة وأنا أغادر إلى مدن مختلفة دون أن أدري ما أفعل، وأصبتُ بفصام فيوج، وبحث عني والدي طويلاً إلى أن وجدني أعمل في حياكة الثياب في مدينة بعيدة، أعادني إلى المنزل ولكن أقل من شهر مضى حتى خرجتُ ثانية إلى مدينة أخرى أعمل فيها بالزراعة.

بعد شهرين وجدني والدي، وأعادني إلى المنزل، واستشار الأطباء في أمري إلى أن توصلوا إلى التشخيص "فصام فيوج" وكان الحل الوحيد هو أن يظل هذا التشخيص واضحاً للجميع عندما أنساه، فألبسني سواراً يحمل اسم "فيوج" حتى يعلم الجميع ما يجري، ولكن المرض لم يكن مشهوراً ليحزره الناس، وكنتُ كلما قرأتُ الكلمة على السوار ظننتُ أنه اسمي.

هذا هو السوار إذن، إنه على رسغه طول الوقت. تابع قائلاً: أنا لا أذكر شيئاً عنكم يا هالة، رغم أن ما تقولونه في أمري حسن إلا أنني لا أذكره، جميل أن أكون قد ساعدتكم في مرحلة صعبة من حياتكم، ولكنني نسيتُ كل ما جرى، وربما أنسى ثانية في القريب العاجل.

غريب هذا الأمر، إنه فعلاً لا يذكرنا، ولكنه ما يزال فيوج الذي أعرف، طيب رقيق شفاف، يريد لنا السعادة، سألتُه: فلماذا

كنتَ تغادر هذه المرة؟

أشار إلى الورقة في يده وقال: في آخر مرة كنتُ فيها هنا، كتبتُ هذه الورقة، ونسيتُ كل شيء، ولم أجد دليلاً على ما فعلتُ إلا هذه الورقة في جيبي، ولم أكن أعرف من هي هالة. وبعد أن أمسك رجالك بي، وعلمتُ أنك أنت هالة، أردتُ أن أفهم شيئاً مما نسيتُ، فقررتُ أن أظل قليلاً وأن أتعرف على الحياة التي عشتُها لفترة، وعلى الفتاة التي نالتْ إعجابي، ولكنني وجدتك وقد تزوجتِ، وكانت الأمور على ما هي عليه من الفوضى، ولم يكن باستطاعتي المساعدة، فقررتُ المغادرة وترك الماضي.

يهرب مني، وضعتُ يدي على رأسي أشعر بأفكار كثيرة تدور فيه، فابتسم فيوج على الفور وقال: لا تفكري في الأمر، أنا لا أذكر شيئاً مما يحدث، وليس لك أي ذنب.

هل يخفف ذلك عني؟ هل أريده أن ينساني فعلاً؟

■ ■ ■

■ الفصل السادس والثمانون | أحمد

مرّت ربع ساعة ونحن نراقب القاعة، ليس من حركة تذكر، ما عدتُ أدري ما نفعل، هل علينا أن ندخل؟ ماذا ننتظر؟ هل ننادي هالة وفيوج؟

كان القلق بادياً على دلال، إن والدها في الداخل، هل تستطيع أن تواجهه؟ هل ستقف ضد ما يفعل؟

قلتُ لها: دلال، يجب ألا نبقى وحدنا، ارجعي إلى القاعة وأخبري هالة وفيوج ما نفعل، وسأظل هنا أراقب المكان.

فكّرتْ دلال قليلاً ثم أشارتْ بالإيجاب، وتحرّكتْ ببطء دون أن تثير أي حركة أو شكوك حولنا، وعادتْ إلى القاعات، بينما بقيتُ أراقب بصبر ما يجري.

مرّت ربع ساعة أخرى، وليس هناك من جديد، الهدوء مخيف، ماذا يفعلون في الداخل؟ ليستْ لدي أية فكرة، كيف يجتمع النبلاء وأي قرارات يتخذونها هنا.

حضرتْ دلال مع هالة وفيوج، اختبؤوا بهدوء، وراقبوا الاجتماع لخمس دقائق أخرى، ليس هناك من أي تحركات.

قالتْ هالة: أظن أنه يتوجب علينا أن ندخل.

قال فيوج: وماذا ستفعلين في الداخل؟

قالتْ دلال: لن يسمح لك الحرس بالدخول حتى لو كنتِ زوجة معتز.

في تلك اللحظة سمعنا أصواتاً تصدر من الداخل، هناك شيء من الفوضى! دخل أحد الحارسين إلى الداخل بسرعة، بينما بقي واحد يحرس من الخارج.

استغلّ فيوج الموقف، وركض إلى الحارس وأمسك به، بينما دخلنا أنا وهالة ودلال القاعة بسرعة.

هناك في المنتصف طاولة كبيرة، وضع عليها الكثير من الحواسيب والأوراق، يجلس عليها ما يقارب العشرة أشخاص، على يميننا يقف معتز، يصوّب مسدساً في الاتجاه الآخر، إنه يصوّبه على منسيّ!

ركضتْ هالة لتقف أمام منسيّ لتحميه من الرصاص، جفلتُ لذلك، إنها في مرمى الطلقات مباشرة!

صرخ معتز: ماذا تفعلين يا هالة؟

أجابتْ: هذا يكفي! لن أسمح لك أن تفعل أكثر من ذلك.

قال منسيّ لهالة: ابتعدي يا هالة، لا تجرّبي حظك هنا.

أشارتْ بالنفي وقالتْ: لن أسمح لشيء كهذا أن يحدث، هذا يكفي، لقد تعبتُ، لماذا لا تسير الأمور ببساطة.

قال معتز: البساطة في الأرياف يا هالة، هل تريدين العودة إلى الريف؟

ابتسمتْ هالة ابتسامة حزينة وقالتْ: ربما، علي أن أجد السعادة هناك.

صرخ معتز: ابتعدي يا هالة! هذا الملك ليس بأفضل مني، ولكنه يريد أن يفسد عليّ ما بنيتُ، إنه يريد أن يفسد حياتي كما أفسد حياته، لن يذكره أحد إن مات هنا، سينتهي أمره بكل بساطة.

هذا صحيح، لقد نسي الجميع أمر الملك، وسينسى الجميع ما يجري هنا أيضاً مهما حدث، يا إلهي، إنه يعي فعلاً ما يفعل.

صرختْ هالة: كلا! لن أسمح بذلك!

صرخ معتز: هالة! لن أتردد في سحب الزناد.

حرّك معتز إصبعه ليطلق الطلقة، ركضتُ إلى معتز أمنعه من ذلك، بينما دفع منسيّ هالة ليبعدها عن مرمى الطلقة... ولكنّ الطلقة كانت قد أطلقتْ، ولم أستطع صدّه، واستقرّتْ في صدر منسيّ مباشرة، الذي هوى على الأرض من فوره.

حاولتُ أخذ المسدس من معتز، ولكنه قاومني بشدّة، لكمني ولكمتُه، دفعني ودفعتُه، إلى أن دخل فيوج فزعاً من صوت النار، وركض إليّ ليساعدني، بينما ركض جميع النبلاء هرباً من القاعة.

أمسك فيوج معتزاً، وأخذتُ المسدس، ونظرتُ إلى منسيّ الذي كان يلفظ آخر أنفاسه أمام هالة ودلال، لم نستطع أن نحميه، بل قد حمى هالة بجسده.

■ ■ ■

■ الفصل السابع والثمانون | هالة

تماسك أرجوك! تماسك أرجوك! لماذا فعلتَ ذلك؟ أنا من كـان في مرمى الرصاص، لماذا دفعتني؟

أيها الملك! أيها الملك! افتح عينيك، أجبني! أيها الملك!

أوه، دماء كثيرة تنزف، ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟

فتح الملك عينيه بصعوبة، إنه يتعرّق بشدّة، قلتُ: أيهـا الملـك، تماسك، سيكون كل شيء على ما يرام، تماسك.

ابتسم ابتسامة باهتة، إنه يعرف أنه ليس على ما يُـرام، قلـتُ بانزعاج: لماذا دفعتني؟ لماذا فعلتَ ذلك؟

باتت ابتسامته أوضح من ذي قبل، ركّز نظره عليّ وقـال بصـعوبة: كنتُ أظن أنكِ لا تستحقين العناء... ولكن أخاك جعلك كذلك...

قلتُ: أيها الملك، اصمد، هناك الكـثير لتقـوم بـه، شـعبك هنـا بحاجة إليك.

قال ساخراً: شعبي نسيني كما نسيتُه من قبل، واليوم ستنسـون كل ما جرى، لن يحزن أحد عليّ.

أشرتُ بالنفي، وأكّدتُ عليه: لا يمكن أن ننسى! لا يمكن!

هدأتْ ابتسامته وقال: هـذه أول مـرة أشـعر فيهـا بالسـعادة أن

أحدهم سينسى ما جرى، لقد فعلتُ ما أريد، والدلائل في الأوراق الكثيرة هنا، وأمسكتُ بالمفسدين، وساعدتُ الناس، أما أنتم فتابعوا حياتكم الجميلة، وانسوا كل الأحزان، وتابعوا الابتسام...

أغمض منسيّ عينه ببطء، ونطق الشهادة بهدوء، وغاب...

ذرفتُ دموعاً غزيرة، لماذا؟ لِم يتوجب عليّ رؤية شيء كهذا؟ لا أصدق أنني أنسى ملكاً عظيماً، لا أصدق أن كل شيء ينتهي هنا والآن!

ركض أحمد إليّ، عانقني ووضع رأس الملك بهدوء على الأرض، بكيتُ بحُرقة على كتف أحمد، لقد انتهى كل شيء، لقد مات الملك، وخسرتُ زوجي، وتخلّيتُ عن أخي، وأهملتُ من يحبني، كيف كنتُ أفكّر؟

بينما جلستْ دلال إلى جانب الملك، ووضعتْ حقيبتها إلى جانبه وبدأتْ تذرف الدموع وهي تقول: سأتابع الحكاية، أعدك أنني سأنشر الكتاب، ولن ينساك أحد.

فتحت الحقيبة وأخذت ورقة وقلماً وكتبت فيه ما جرى قبل أن تنسى، يا له من كتاب هذا الذي تكتب!

دخل الشرطة المكان، وأمسكوا بمعتز، وكانت تلك آخر لحظة أراه فيها، كان ينظر إليّ بعيون غاضبة، نعم لقد دمّرتُ حياته،

ودمّرتُ حياتي قبله، الوداع...

خرجتُ مع أحمد من الصالة، ولكنني وقفتُ عند الباب عندما قالتْ دلال: لا يجب أن نبتعد، وإلا فإننا سننسى الملك.

إلى متى؟ وإلى أي مدى علينا البقاء إلى جانب الملك حتى لا ننساه؟ أنا ما أزال لا أصدق ما يجري.

تابعتْ دلال الكتابة بسرعة كبيرة، وحضر رجال شرطة ومحققون، وقاموا برفع منسيّ، وحمله إلى المشفى، رغم أننا كنا على يقين أنه قد فات الأوان.

دلال لم تتوقف، ظلّتْ تكتب إلى جانبه، جلستْ في سيارة الإسعاف إلى جانب سريره أيضاً، وظلّتْ تكتب...

في الخارج رأيتُ أم معتز السيدة ناهد تركض تجاهي، يبدو أنها علمتْ أن الشرطة قد أمسكتْ بابنها، كانت منفعلة جداً وغاضبة، قالتْ: ماذا جرى؟ ماذا فعلتِ بابني؟ لماذا جلبتِ النحس إلى العائلة!

خلعتُ قفازاتي لتكشف عن يد عاملة تعبة، تحمل من معاناة الدهر والسنين الصعاب الكثير، وألقيتُ بها على الأرض أمام السيدة ناهد وقلتُ: أرد لكم كل ما حصلتُ عليه، ليس لي حاجة إلى مجتمع النبلاء بعد اليوم.

■ الفصل الثامن والثمانون | أحمد

ها هي الشرطة تأخذ منسيّ بعيداً، تسير دلال إلى جانبه دون أن تتوقف عن الكتابة، إنه يبتعد أكثر فأكثر، وأنا أعلم تماماً أننا سننساه، إنه يغيب عن ناظرنا...

تركنا أم معتز تندب حظّها وتصرخ بكلمات مثل "من أين جئتَ لنا بهذه المصيبة!" "أخبرتك أنها لا تناسبك!" "لقد حطّت لتفسد حياتنا!" والكثير من هذا القبيل.

ابتعدنا عنها ولم نرد على كلامها اللاذع لأننا لم نعد نملك الطاقة الكافية لذلك، فقد كنتُ أشعر بإرهاق شديد، وكذلك هالة.

عدنا إلى شقتي، ودخلتها هالة تنظر حولها وتتفحص المكان، ابتسمتْ وقالتْ: إنها كما هي تماماً، تنقصها بعض التنظيفات فقط.

ابتسمتُ، لم يكن لدي الوقت لتنظيف أي شيء، فلم تكن الأيام التي قضيتُها وحيداً جيدة.

سرعان ما نمنا، واستغرقنا في النوم، لستُ أدري كم ساعة مضتْ قبل أن أفتح عيني، ولكن الوقت كان منتصف الليل، وقد كنتُ متأكداً أنني أسمع صوت بكاء هالة من الغرفة المجاورة.

لم يكن شيء مما جرى سهلاً عليها، أنا آسف جداً أن الأمور قد

سارت على هذا النحو، ولكن أملي كبير بأن المستقبل يحمل لها كل الخير.

استيقظتُ في صباح اليوم التالي أسمع أصواتاً مصدرها المطبخ، كانت هالة تعد الإفطار، تقلي البيض وتسخّن الشاي، ليس في المنزل الكثير ليؤكل، قليل من الجبن مع المربى، ولكن لدى هالة الأسلوب الذي يجعل من الأطباق وجبات شهية.

جلستُ على المائدة الشهيّة سعيداً بعودة أيام جميلة إلى الذاكرة، قلتُ: مر زمن طويل ولم أتناول فيه شيئاً لذيذاً.

ابتسمتْ هالة وقالتْ: هذه الأطباق كانت في الثلاجة، لا شيء جديد.

قلتُ: تبدو كلها جديدة.

تناولنا الإفطار بهدوء، الأجواء كانت سعيدة ولكن يشوبها القليل من الندم، لم أكن أحب أن يؤذي أحدهم زوج هالة، ولكن المشكلة أن زوجها كان معتز، وكان تجنب شيء كهذا صعباً للغاية.

لستُ أصدق إلى الآن أنه حاول قتلي، كم كنتُ أتخيل أنه لم يأبه بي على الإطلاق، الآن أشعر بسعادة أنني كنتُ دائماً حاضراً في ذاكرته، كنتُ مهماً دون أن أدري.

أنهينا الإفطار، وقبل أن ننهض قالتْ هالة: أحمد... آسفة لما جرى.

أشرتُ بالنفي: لا تعتذري، أنا من يتوجب عليه الاعتـذار، كـل ما حدث كان بسببي.

أشارتْ بالنفي: كل ما جرى كان سيحدث عاجلاً أم آجلاً، لستَ السبب في ذلك.

صحيح، فقد كانت هذه هي النهاية الوحيدة لهـذا الطريـق، ولم يكن بالإمكان تفاديها.

قالتْ هالة: أحمد... أنا لا أستحق كل ما فعلته من أجلـي، لقـد كنتَ إلى جانبي طول الوقت ولم تلقَ مني سوى العناء.

قلتُ: أجمل شيء في الـدنيا أن يتعـب الأخ مـن أجـل أختـه، لم أنتظر يوماً منـك أي مقابـل، لقـد فعلـتُ كـل ذلـك وسـأفعله إرضـاء لله ومحبة لك.

أستطيع أن ألحظ عيون هالة تدمع، أعلم أن الظروف الـتي مـرّت بها لم تكن سهلة، وأعلم تماماً أنها تستحق أكثر مما حصلتْ عليـه، واليوم أعلم أكثر أنها قادرة على تحمل كـل الصـعاب، وأنهـا الجميلـة القوية الذكية المتألّقة، وصاحبة المستقبل البـاهر، أمـا أنـا فسـأظل إلى جانبها، الأخ البسيط المخلص الأمين إن شاء الله.

■ الفصل التاسع والثمانون | هالة

أمي... ها أنا وأحمد قد اجتمعنا من جديد.

أمي... أحمد لم يتخلّ عني يوماً، إنه كما هو منذ الصغر، لم يتغير ولن يتغير.

أمي... إن أكبر نعمة في الحياة هي أخ صالح، أعلم تماماً أنه سيحظى بخير نعيم في الآخرة، وأن درجاته من الجنة ستكون فوقي بكثير.

أمي... كل ما أرجوه أن يكرمني الله لأعرج إليه لأراه ينعم هناك.

أمي... أنا لا أستحق منه كل هذا، ولكنني رغم ذلك يجب أن أكون أهلاً لما أعطاني، وأن أكون متألقة كما يعرفني، فهذا الرد الوحيد الذي ينتظره مني.

"أجمل شيء في الدنيا أن يتعب الأخ من أجل أخته" ستظل كلماته ترن في أذني مدى الحياة...

رن الهاتف، رفعتُ السماعة فإذا بها دلال، تطلب إلينا القدوم إلى المدفن، بل يجب أن نحضر حالاً.

لستُ أدري لماذا علينا الذهاب إلى المدفن، ولكن يبدو أن دلال

حزينة، ويجب أن نسرع إليها.

تركنا كل شيء، وأسرعنا إلى حيث أشارتْ دلال، كانت تقف إلى جانبها فيوج أمام قبر محفور، بانتظار إنزال الجثة...

وكالصاعقة عادت بي الذاكرة إلى الملك المنسيّ، وإلى ما حدث في الأمس من شجار وإطلاق للنار وإمساك بمعتز، هل يُعقل أنني نسيتُ كل هذا! هل يُعقل أنني بمجرد الابتعاد عن الملك نسيتُ أمره تماماً!

بدأتْ عيناي تدمعان على الفور، حزناً على موت الملك، وحزناً على نسيانه، والآن وبعد أن يُدفن تحت التراب من سيذكره؟

جلستُ أنا وأحمد أمام منسيّ، كل منّا يستعيد ذكرياته مع الملك، وكل منا يفكر كيف له أن ينساه، وأن ينسى كل العون الذي قدّمه لكلينا، وكيف لنا أن نرد الجميل على الأقل بأن لا ننساه!

وكما لو أن دلال كانت تقرأ أفكارنا، قالتْ: لقد أنهيتُ الكتاب، وسأقوم بنشره، وسيقرؤه الجميع، وسيظل ذكر الملك في السطور إلى الأبد، لقد كان يأمل في ذلك.

إنها دائماً تسبقني، إنها دائماً أفضل مني، إنها دائماً تعرف ما تفعل، كم أحسدها، إنها تجيد التصرف دوماً، بينما لم أحسن التصرف على الإطلاق.

ابتسمتُ لدلال بصعوبة وقلتُ: لقد قدّمتِ الكثير، رغم أن ذلك سيضرك وعائلتك.

أجابتْ: لقد تضررنا بما فيه الكفاية، وتسببنا بالضرر للغير، على هذه الدائرة المغلقة أن تنكسر يوماً، وقد حان اليوم، وسأنشر الكتاب مهما كلّف الثمن.

نظر أحمد إلى دلال وقال: هذا كتاب لن أفوت قراءته.

ابتسمتْ دلال لأحمد، يبدو أنهما يعرفان بعضهما جيداً، كم ابتعدتُ عن أحمد ولم أعد أعرف عنه الكثير.

بعد أن صلينا صلاة الجنازة حان وقت الدفن، أنزل أحمد وفيوج الملك تحت التراب، ولم أحبس دموعي، فهو كل ما أملكه الآن للملك، وداعاً أيها الملك، وآسفة أننا قد ننساك.

طمر أحمد وفيوج التراب فوق الملك، وبدأنا الابتعاد ببطء خطوة خطوة، إلى أن اقتربنا من الشارع الرئيسي، لا أريد أن أنساك أيها الملك، أرجوك أن تظل في الذاكرة، أيها الملك... أيها الملك...

وضعتُ يدي على خدي، إنها دموع، نظر أحمد إليّ وسألني: علامَ تبكين؟

سرحتُ قليلاً، ومسحتُ دموعاً أكثر، وجهي مبتل بالدموع،

أجبتُه: لستُ أدري، ولكنني أشعر برغبة شديدة في البكاء.



■ الفصل التسعون | أحمد

تذكرتُــه في أول لقــاء بيننــا، حــين نــاولني بطــاقتي العــرض السينمائي، تذكرتُه عندما حذّرني مما ستطرحه عليّ هالة من أمر معتـز، تذكّرته عندما منحني وظيفة حكومية لم أكن أحلم بها، تذكرتـه عنـدما أجبرني على عمل الفحص الطبي لمرض الإيدز وأزاح عن كتفي أكبر عبء، تذكرته عندما أنقذني من موت محقق بقنبلة زجّوها في حقيبتي، تذكّرتُـه عندما حمى هالة من الموت، تذكّرتُه يبتسم أننا سننساه...

هذا ما كنتُ أفكر فيه عندما كنتُ أصبّ التراب ليستقر في القـبر قريباً من شعبه، أفكر في كتاب دلال وما سيتركه مـن أثـر في أنفسنا، هل حقاً سننسى؟

كانـت هالـة تبكـي بحُرقـة، بينمـا كانـت دلال تمسـك أوراق الكتاب الجديد بكلتا يديها، تضمّها إلى صدرها، هذا هو كنزها، وهذا ما استطاعتْ أن تفعله من أجل الملك.

انتهينا من الدفن أنا وفيوج، وبدأنا الابتعـاد عـن القـبر، كنـتُ أراقب دموع هالة حتـى لا أنسـى، لا أريـد أن أنسـى، دمـوع هالـة مـا سيذكرني، هذه الدموع الغزيرة لابد أن تذكرني...

بعد لحظات سألتُ هالة: علامَ تبكين؟

مسحتْ دموعها وأجابتْ: لستُ أدري، ولكنني أشعر برغبة شديدة في البكاء.

عدنا إلى المنزل، كلانا عاطل عن العمل ولا ندري ما نفعل، كان فيوج يجلب إلينا بعض الطعام، رغم أنه الآخر كان قد ترك العمل في متجر هالة.

كان باستطاعة هالة أن تعود إلى المتجر، فهو متجرها بالقانون، ولكنها لم ترد أن تعود لأي شيء يتعلق بمعتز.

كان عليّ أن أبحث عن عمل من جديد، ولكنني لم أشأ أن أترك هالة وحدها في المنزل، فأنا أعلم أنها مرّتْ بظروف صعبة، وعانت أكثر من الجميع.

أخيراً اقترحتْ: أحمد... ما رأيك أن نعود إلى الريف؟

فاجأني اقتراحها، لقد هربنا من الريف! اخترتُ كلماتي بعناية: ولكننا تركنا الريف، وأنتِ تعلمين لماذا.

قالتْ: لقد مات أبي، ولنا الحق في ما ترك، ولا أريد أن أهرب بعد اليوم.

اقتربتُ منها أسألها: هل أنتِ واثقة مما تقولين؟ إنها ما تزال هناك.

قالـتْ: لا أريـد أن أهـرب، أريـد أن أواجـه مخـاوفي، لم أعـد صغيرة.

أمسكتُ يد هالة أساندها، وسأظل أساندها إلى الأبد: أنـا معـكِ، وسأقف إلى جانبك دوماً.

ابتسمتْ هالة ابتسامة فخر وخجل، أعلم أنها تريـد الاعتـذار، أعلم أن لديها الكثير لتقول، ولكن ليس عليهـا أن تقـول شـيئاً، فهـذه النظرات كانت معبرة أكثر من الكلمات.

■ ■ ■

■ الفصل الحادي والتسعون | هالة

أخيراً حزمنا أمتعتنا، كان عليّ أن أتخذ هذا القرار منذ زمن، منزل والدتي، وحقلها، وأزهارها، وسعادتها، هي ما نملك، لقد تركناه لضعف منا، ولكننا اليوم أقوياء، وعلينا الوقوف من أجلها.

لم أعد أخشى شيئاً الآن، سأمضي قدماً، وسأصنع مستقبلاً باهراً لكلينا، وسأظل إلى جانب أحمد، ولن أتركه بعد اليوم.

طرقتْ دلال الباب، حضرتْ لتودعنا وناولتنا نسخة من كتابها الجديد، الملك المنسيّ، ووعدها أحمد أن يقرأه.

سألتُها عن حال العائلة، فأجابتْ أنها تعيل العائلة الآن، حيث صادرت الدولة ممتلكات والدها، وتفرّق عنهم جميع الأقرباء، وسكنوا منزلاً بسيطاً تصرف عليه بنفسها.

كم هي قوية، كم أحسدها على إصرارها ومثابرتها، كم أحسدها على رباطة جأشها، إنها تعرف ما تفعل، وإلى ما ستصل.

سألها أحمد عن فيوج، حيث كان من المفترض أن يحضرا سوياً لوداعنا، فأجابته أنها انتظرته ولكنه لم يحضر.

ابتسمتُ وقلتُ: لا عليكما، سيحضر في الوقت المناسب.

إنه هكذا، يختفي فجأة ويظهر في الوقت المناسب، لستُ أدري

متى، وكيف، ولكنه كان دائماً رسالة الفرج إلينا.

أخيراً ها نحن ذا نركب القطار، ومن بعده الباخرة، ونلتقي ثانية بالقبطان أمين، ابن الحاج غانم، الذي بات شائباً وقريب الشبه بوالده، فنقص عليه ما لاقيناه في رحلتنا الطويلة، ونتذكر معه الأيام الجميلة مع الحاج غانم، فيستضيفنا بحفاوة، ويقوم بتخصيص سيارة لتوصلنا إلى منزلنا.

ما أجمل الريف، الحقول الخضراء، والأزهار المتفتحة، والنسيم العليل، سأكون سعيدة هنا، إلى جانب أحمد، كل شيء سيكون على ما يرام، حمداً وشكراً لك يا الله.

■ ■ ■

■ الفصل الثاني والتسعون | أحمد

تناولتُ الكتاب من يد دلال، وقرأتُ العنوان "الملك المنسيّ"، يبدو عنواناً غريباً لكتاب غريب، ولكنني سأقرؤه بكل تأكيد.

لم يكن فراق دلال سهلاً، فأنا لم أقابل في حياتي فتاة أجمل وألطف وأكثر نضجاً منها، ربما لا أكون مصيباً، ولكنني أظن أن علاقة حميمة قد جمعتْ بيننا في فترة وجيزة. أتمنى أن ألقاها ثانية، وأن تكون بخير وأفضل حال، وأرجو من الله أن ييسر أمورها، وأن يجمعني بها ثانية في أجواء من السعادة والهناء.

وضعتُ الكتاب في حقيبتي، وانطلقنا إلى القطار، ثم أبحرنا بالباخرة، لوهلة ظننتُ أنني أرى الحاج غانم، دقّ قلبي بسرعة لهفة إليه، ولكنني أدركتُ أنه ابنه القبطان أمين، لقد بات شديد الشبه بوالده.

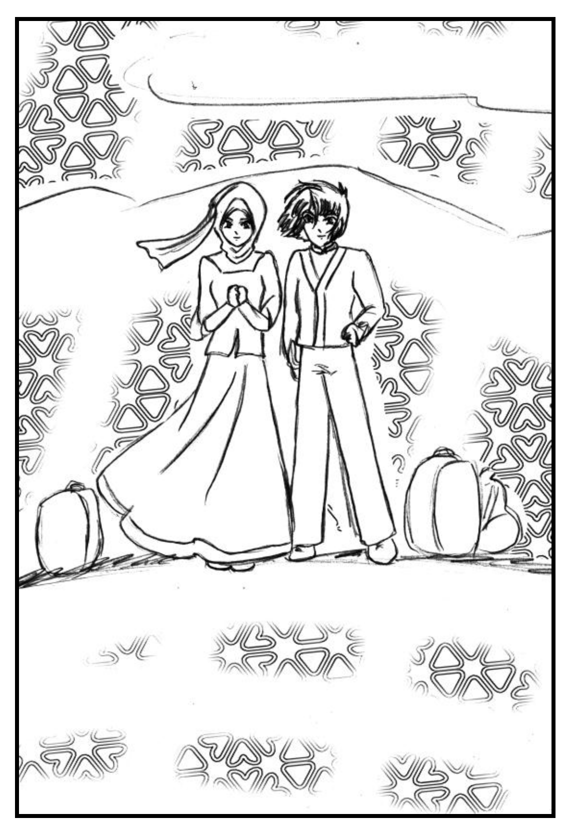
قضينا الرحلة بالحديث إليه، وإلى ما جرى من أحداث طويلة في السنين الماضية، وساعدنا على ركوب سيارة خاصة توصلنا إلى منزلنا.

وها هو منزلنا، لم يتغير، يقف على التلة صامداً لسنين، تحوطه الأزهار والحقول الخضراء، إلى جانبه سياج القطيع، حيث

كنتُ أعتني بهم يومياً إلى جانب سحاب، كلبنا العزيز.

هنا نشأنا، وهنا عملنا، وهنا تعبنا، وهنا ظُلمنا، وقد آن للظلم أن ينحصر، وإلى حياتنا أن تعود إلى مجراها الصحيح.

أريد أن أحصد الحقول، أريد أن أرعى الأغنام، أريد أن أنام بين الأزهار، أريد أن أستنشق النسيم العليل كل صباح، هذه حياتنا، وهذا قرارنا.



■ تذييل

أحمد... اسم أبي الغالي، أسكنه الله فسيح جنّاته

هالة... اسم أمي الحبيبة، أدامها الله وحماها

حالة فيوج أو الشرود النفسي fugue state: هي حالة نفسية نادرة، تتميز بفقدان مؤقت لذاكرة الهوية الشخصية، غالباً ما تتسم بالسفر والترحال، وأحياناً ترافقه تقمص لشخصية جديدة.

عند انتهاء مرحلة الشرود، تعود الذاكرة كما كانت وغالباً ما ينسى الشخص حالة الشرود كاملة، غالباً ما يكون سببه حالة توتر كبيرة.

وأخيراً... أنا أؤمن أن لكل شقيق حكاية، وهنا خصصتْ صفحات أربع ليكتب فيها صاحب الكتاب حكايته باختصار مع شقيقه العزيز...

■ ■ ■

تمت بحمد الله